البيانيست

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور – الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com@yahoo.com

البيانيست

تامر إمام

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٩م

غلاف : عمار جمال العبد

التصميم: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

البيانيست

رواية

تامر إمام

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداء

إلى هؤلاء الذين تعذبهم أنفسهم فيتحمَّلون حتى لا تقتلهم شفقة مَن حولهم..

«سارة»

مشـيتُ فـي خطـوات سـريعة وأنـا أتلفـت حولـي بيـن الحين والآخـر.. الوقـت متأخر، أنا أعـي ذلك.. تمامًا كمـا أعي أنه ما كان بإمكانـي ألا أذهـب إلـى البروڤـة الليلـة بالـذات، فميعاد الحفـل اقتـرب وأنا على اسـتعداد تام لأن أفعل أي شـيء من أجل أن أظهـر بمظهـر أقل ما يمكن أن يقال عنـه أنه رائع، لا يهمني الفرقة نفسها، فلتذهب الفرقة كلها وليذهب كلُّ فردٍ فيها إلى الجحيـم، لا يهم، فأنا لا أعبأ بهم كثيرًا على كل حال، المهم أن يتحاكى الجميع عن عازفة الكمان تلك التي سحرت أعينهم قبل حتى أن تسحر آذانهم..، نعم، فليست موهبتي وحدها هي ما يميزني عن باقي الفتيات..

ظللـتُ أكررهـا بصـوتٍ لا يعلـو علـى صـوت وجدانـي، أنـا مزيـج من الجمـال والتحدي والثقة، خليط لـم يجتمع في أنثى إلا واشتهتها الأنفس كما تشتهي ثمار الجنة، على الأقل هذا ما أراه في مرآتي كل يوم صباحًا ومساءً، وحينما أمُرُّ بجانب زجاج لامع قليـلًا لسـيارة متوقفة، فلقد أيقنت منذ فترة ليسـت بالقليلة أنني -علـى عكـس الكثير ممـن عرفتهم من بنات جنسـي- أحب ما أنا عليه.. أحب كوني أنثى، وأحب كوني كذلك بطريقتي أنا..

يمكـن لأي فتـاة أخـرى أن تتحجـج بالمواعيـد المتأخـرة للبروڤات، بعدم قدرتها على المكوث خارج البيت لتلك الساعة،

بـأي حجة من تلك الحجـج التي نجيد جميعنا أن نصوغها.. لكن ليس أنا، ليسـت (سـارة) من تفعل ذلك.. لقد خُلِقْتُ لأنجح، هذه قناعتي الخاصة، وسأفعل المستحيل من أجل أن أثبت أن قناعتي تلك على صواب..

كانـت ليلـة مليئـة بالغيوم مع أننـا لم نصل بعـد إلى منتصف نوفمبـر، أذكر أنها أمطرت مـرة أو مرتين منذ حلول الخريف، ومـن لا يعـرف أمطـار الإسـكندرية التـي تحيل كل شـيء إلى خليـط من الطيـن والميـاه الراكـدة؟.. لكن السـماء احتفظت وقتهـا بصفائها، الليلة مختلفة، أشـعر بهذا، تلك الرعشـة التي تصيبني كلما لفح الهواء البارد وجهي ينبئني أنها ليست ككل ليالي الخريف التي أعشـقها، تلك السُّـحب الرمادية التي تشـعر أنها تغلف روحك نفسها، هذا الجو يُثير الكآبة، لا الخيال..

تلفـتُّ حولي وأنا أسـمع صـوت كعـب حذائي المرتفـع ورنة خلخالـي الذهبي الرقيق يشـقان ذلـك الصمت.. صمت شـديد، رهيـب.. ذلـك الصمـت الـذي يصـم الآذان ويجعلـك لا تطيق أن تبقـى فيه لثانيـة واحدة أخـرى.. تلفتُّ حولي مرة ثانية وأسـرعت الخطى أكثر وأنا ألعن في سـري مخترع الكعب العالي، لدينا من الإمكانات الجسدية ما يجعلنا نبدو جذابات بما يكفي، لم يكن ينقصنا هذا الاختراع الذي يقصم الظهر كي نبدو أكثر جمـالاً، لكنني سـأرتديه، طالما سـيزيدني جمالاً سـأرتديه، لـن أترك لإحداهن الفرصة كي تحظى بهذه الميزة التنافسـية.. صوت خطواتي يعلو، أو هكذا أشـعر، لكني أراه يؤنس وحشة هـذا الطريق اللعيـن.. تلفتُّ حولي مرة أخرى وقـد بدأت ضربات

قلبي تتضم إلى صوت حذائي ليكوِّنا أوركسترا خاصًّا بهما ، يا لها من معزوفة تثير الأعصاب ، فليتحدث أحدهم الآن أرجوكم، سأُجَن إن لم يفعل..

ثم قفزتُ في الهواء عندما شق ذلك الصوت مسامعي..

وكأنه كان ينتظر أن تتلف أعصابي تمامًا قبل أن يصدر ، انبعث صوت هاتفي يشق الفراغ ويجعل الجلد على ذراعي يصير كجلد الإوز وأنا أشعر بقلبي يهبط داخل صدري كأنما أهوي فتخطفني الطير..

توقفت ليهتز جسدي بذلك التموج المحبب لكل من أعرفهم ورأيت تأثيره كثيرًا في أعينهم المتلصصة ، وأخرجت هاتفي في عصبية ، تبًّا ، إنها أمي مرة أخرى ، لا ، لن أرد ، لست في مزاج الآن لتلك الكلمات التي ستلقيها على مسامعي.. ستؤنبني على مكوثي خارج البيت لتلك الساعة ، ستصرخ، ستنهرني، ستطلب مني أن أترك الفرقة والعزف وأي شيء آخر يجعلها تشعر بعدم سيطرتها عليّ، لا ، فلنؤجل كل هذا حتى أصل إلى البيت..

أسرعت الخطى أكثر حتى صرت أسمع صوت أنفاسي تتسارع وكأنما قد قرر انضمامه إلى الأوركسترا هو الآخر، سأحتاج إلى أن أمارس الرياضة بشكل أكثر انتظامًا ، ما زلتُ في سنٍّ صغير حتى تتلاحق أنفاسي هكذا كالمسنين، إذا استمريت على هذا الحال سأحتاج حتمًا إلى توسيع بعض الشرايين مع دعامة أو دعامتين قبل أن أصل لعقدي الخامس، لا بد أن...

توقفت أفكاري وأنا أستمع إلى تلك الخطوات التي تقترب من خلفي..

لا ، أنا لم أتخيل ذلك الصوت، صوت خفيف هو، يبدو أن صاحب الخطوات يرتدي حذاءً رياضيًا ، لكن أذني الحساسة للموسيقى الْتقطتها ، تلك الأذن التي تعودت أن تلتقط أدق الأصوات مما كان يثير تعجب مَن حولي ممن لم يرزقهم اللّه بمثل هذه الموهبة ، ناهيك عن ذلك الهدوء البِكر الذي يحطم الأعصاب، والذي جعلني أسمع حتى حفيف الأشجار القليلة الملقاة بإهمال على جانبي ذلك الشارع الذي طالما تعودت أن أسير فيه جيئةً وذهابًا مِن وإلى المدرسة، فما زالت حياتي تدور في تلك البقعة من الإسكندرية ولا تريد أن تفارقها.. لماذا قرر أحدهم فجأة أن استوديو بجانب مدرستي القديمة «ليسيه الحرية» ستكون فكرة جيدة؟

أرهفت السمع أكثر، كيف لم أنتبه إلى تلك الخطوات من قبل؟ لا بد أنني غرقت في أفكاري اللعينة التي دائمًا ما تأتي في غير وقتها ، نفَضتُ خواطري عن رأسي مرَّة أخرى وعدت أنصت لتلك الخطوات.. لم يتبقَ إلا القليل وأصل إلى طريق الحرية أو شارع أبو قير كما يلقبه الجميع الآن.. كان بإمكاني أن آخذ تاكسي أو أوبر أو أي وسيلة لعينة أخرى، لم تكن فكرة جيدة أن أمشي الآن، في هذا الوقت، في هذا الشارع بالذات، لكني كنت بحاجة إلى بعض الصفاء الذهني قبل الحفل.. كنت أريد أن أتخلص من تلك الطاقة السلبية التي تغزوني دائمًا وأنا في انتظار حدوث شيء ما ، وكنت أنا -بعد

الكثير من التجارب- قد كونت رأيًا لا يقبل النقاش؛ أن المشي وحيدة هو أكبر طاردي الطاقة السلبية، بالنسبة لي على الأقل.. لعنتُ نفسي وطاقتي السلبية وتلك الفكرة الحمقاء، وأسرعت الخطى أكثر فوجدت لشدة رعبي أن الخطوات خلفي تسرع هي الأخرى، نظرت للخلف وأنا أحاول السيطرة على أعصابي وأن أمنع نفسي من الركض..

ثم رأيته..

لم تكن الإضاءة جيدة لكني استطعت أن ألمح كتلة السواد تلك التي كانت تتبعني في إصرار..

ارتفعت يداي رغمًا عنِّي حتى وجدت أصابعي المرتجفة تلامس شفتاي وشعرت بعينيَّ تتسعان في رعب وأنا أحاول أن أتمالك نفسي وألَّا أفقد أعصابي التي صارت مفككة تمامًا الآن.. بدأت أحدِّث نفسي بصوت مسموع في محاولة مني ألا أفقد رزانة عقلي.. هو مجرد شخص آخر يا (سارة) قادته الظروف للعودة متأخرًا هو الآخر، والمرور من نفس الشارع المشؤوم.. سأستمر في السير بخطوات بطيئة وسيعبر هو ثم سأسرع الخطى خلفه حتى أصل لشارع أبي قير..

كنت قد وصلت بالفعل إلى كلية الهندسة لتصير عن يساري الآن على الناحية الأخرى من الشارع، نظرت إلى الخلف لعلِّي أجد سيارة قادمة أو أي شخص آخر؛ لكن الشارع ظل خاليًا للأسف إلا من ذلك الشخص الذي ظل يتبعني في إصرار.. تبًّا لذلك الضوء الخافت الذي يأتي من أعمدة الإنارة والتي قد تلفت معظم مصابيحها ولم يتم صيانتها كالعادة، لم أتبين من ذلك

الشخص الذي يسير خلفي سوى أنه قصير القامة نوعًا ، لكن لا شيء آخر ، فقط كُتلة من السواد تتحرك خلفي.. الشارع مرعب بما يكفي، لا أحتاج إلى ذلك الشخص كي يزيد من شعوري بالرعب.

نظرت للخلف مرة أخرى وقلبي يتواثب داخل صدري، ثم قررت أن أعبر إلى الناحية الأخرى من الشارع، بالتأكيد سيستمر هو في سيره وستسمح لي زاوية الرؤية بمتابعة خطواته بشكلٍ أفضل حتى يمر، ناهيك عن أنه سيكون بجانبي وقتها لا خلفي عند مروره..

عبرت إلى الجهة الأخرى بالفعل وصوت لهاثي يرتفع ويشعرني بضعفي أكثر فأكثر.. أي طموح وأية أحلام تلك التي أتحدث عنها وأنا بذلك الوهن؟ أنا مجرد أنثى أخرى تحتاج لمن يشعرها بالأمان، تبًّا لي ولأحلامي، سأصل إلى البيت ثم سأوافق على أول عريس، على الأقل لن أحتاج أن أسير وحيدة مرة أخرى..

وصلت للناحية الأخرى من الشارع واعتليت الرصيف وأنا أحاول ألا أفقد اتزاني وأنا أسير فوق سيخين الحديد المسمان بالحذاء، وحانت مني التفاتة إلى الخلف لأجد لشدة رعبي أن ذلك الشخص قد عبر الشارع هو الآخر ويسير خلفي تمامًا الآن..

لم يعد هناك مجالاً للشك.. الأمر ليس مصادفة إذَن.. ذلك الشخص قد أتى من أجلي أنا بالذات..

وكان هذا أكثر مما يمكنني تحمله..

وبكل ما أوتيت من قوة، أطبقت بيديّ على حقيبة الكمان

وانطلقتُ أعدو وأنا أشعر بكعب حذائي يئن مع كل خطوة، تسارعت أنفاسي أكثر فأكثر وشعرت بقلبي تكاد تقذفه حركته الجنونية إلى خارج صدري، لاح أمامي الآن شارع أبي قير، لا يفصلني عنه سوى مِئتي متر تقريبًا، حدثت نفسي بصوتٍ عالٍ مرة أخرى لعل كلماتي تضفي على نفسي ولو القليل من الأمل، فلتتمالكي نفسك يا (سارة)، فستصلين خلال دقيقة على الأكثر.

ثم حانت مني التفاتة أخرى إلى الخلف لأجد ذلك الشخص خلفي تمامًا ولا يفصله عنِّي سوى ما لا يزيد عن النصف متر..

كانت ملامحه واضحة تمامًا الآن عبر تلك المسافة القريبة..

هل أنا أهذي أم أنه يبدو كذلك فعلًا؟..

تسمر جسدي تمامًا واحتبست صرخة داخل حلقي وأنا أتطلع إلى ملامح ذلك الشخص أو الشيء الذي يقف أمامي الآن..

لا، ليس هذا حقيقي، لا يمكن أن تكون ملامح أحدهم بهذه البشاعة، لا، ليس هذا الشيء آدميًا..

ولرعبي امتدت يد ذلك الشيء نحوي..

انطلقَت أخيرًا تلك الصرخة التي احتبست داخل حلقي.. صرخة عالية، مدوية، قادمة من أعمق أعماق الجحيم، صرخة أنثى تتعذب بأبشع الطرق طرًّا، وبوسائل قلَّما خطرت على قلب بشر..

لكن تلك الصرخة توقفت فجأة عندما اندفعت يد ذلك الشخص -والذي تبينت متأخرًا جدًّا أنها كانت ممسكة

بسكين ضخم - نحوي وانغرزت في بطني حتى المقبض..

لم أصرخ ثانية.. كان الرعب والذهول قد فاقا الألم الذي أشعر به، حتى إنني ظللت أنظر في عيني ذلك الشخص دون أن ألتفت لأرى سائل الحياة وهو يتدفق إلى خارج جسدي..

هو أيضًا فعل الأمر ذاته.. استمر في النظر في عيني وكأنما يشاهدهما وهما يبهتان وتبهت فيهما الروح ويغادرهما ذلك البريق الذي طالما وشى بحبي للحياة..

كان لا يزال ممسكًا بالسكين وهي بداخلي..

ظلَّ يتطلع إليَّ لوهلةٍ ثم سحب السكين لتخرج من جسدي وتخرج معها روحي كأنما لم تقدر على فراقها..

ثم سقطتُّ على الأرض..

كأنما أنا دمية نسيَ محرِّكها أن يربط خيوطها فهوت متحطمة على خشبة مسرح العرائس..

دون جمهور للأسف..

رفعت عينيَّ الذاهلتين إليه فوجدته ينحني ليجلس على ركبتيه ويرفع يده الممسكة بالسكين عاليًا كأنما يستعد لطعني مرة أخرى..

ثم توقف فجأة ونظر إلى الناحية الأخرى من الشارع..

تحاملت على نفسي ونظرت إلى حيث ينظر، فلم أجد أي شيء..

أدرتُ عينيَّ إليه مرة أخرى فوجدته - لشدة رعبي- يبتسم..

نظـرتُ مـرة أخرى إلى حيـث ينظر فلم أرَ أي شـيء.. لا يوجد أحد هنا ، نحن بمفردنا تمامًا..

شـعرت بوعيـي يتسـرب منـي رويـدا رويـدا.. التفتُّ إليـه مرة أخـرى وتأملـت ملامحه المرعبة كأنما أريـد أن تنطبع ملامحه في ذاكرتي حتى يسـتخرجها منها مَن سيشرح جثّتي ويعرفُ مَن قتلني.. بدأت أشـعر بالبرودة تنتشـر في أطرافي، شعرت كأنما أرقـد داخـل مبرد طعـام، لا على الرصيف وذلك الشـخص جاثم فوقي..

وبحاسـة لمس بدأت أفقدها ، أحسست بيديه تمسك بفخذيّ وتباعـد بينهمـا ، أردتُّ أن أقـاوم، أردت أن أُبعـد يديه ، أردت أن أخبـره كم أنـا غالية ، كم كنت أدّخر جسـدي هذا لشـخص آخر، لكن قواي كانت قد خارت تمامًا الآن..

بـدأ الوجـود يتلاشـى مـن حولي شـيئًا فشـيئًا وبـدأت أحس بلمسـاته لجسـدي تخفـت ورأيـت صورتـه المهـزوزة وهـي ترفع السكين لأعلى..

ثم لم أعد هناك..

فلقد اختفى العالم من حولي تمامًا.. و..

وأظلم كل شيء..

❖ ❖ ❖

«حسين»

- «ها يا (أروى)»

- «...»

- «(أروى)!»

التفتت إليَّ أخيرًا.. كانت تبدو شاردة الذهن تمامًا كأنما قد أفاقت لتوِّها من سُباتٍ عميق.. نَظَرَت إليَّ تلك النظرة الخاوية التي أراها كثيرًا في عينيها، وباعَدَت بين شفَتيها كأنما تحاول قول شيءٍ ما، ثم قالت أخيرًا بصوتٍ مختنق:

- «معاك يا دكتور»

ظللت أنظر لها وأنا أحاول ألا يبدو على وجهي أيَّة انفعالات.. أشعر الآن بالاستغراب من عدم قدرتي على إخفاء مشاعري منذ أن رأيتها، منذ أن خطت أول مرة داخل عيادتي التي طالما مارست فيها قدرتي على إخفاء مشاعري عن مرضاي، حتى وأنا أشعر بكل ما يشعرون به، بكل ما يحكونه لي من آلام، كل ما يعتمل بداخلهم ولا يسمحون لأيٍّ مَن كان بالاطلاع عليه، إلا هنا، إلا أمامي، يفرغون ما في أرواحهم على مسامعي وأجلس أنا أحلل وأضع الخطط لأزيح عنهم ذلك السقم الروحي، لكن هذه المرة تختلف، ليس معها، ما أشعر به نحوها لم أشعر به مطلقًا تجاه أي مريض آخر، بل تجاه أي أنثى أخرى.. ابتلعتُ ريقي وأنا أشعر أنها تسمع صوت أفكاري وقلت محاولًا استعادة لهجة

الطبيب النفسي العالم ببواطن الأمور:

- «لأ مش معايا يا (أروى)»

أخَـذَت نفسًـا عميقًـا وزَفَرَتْه ببـطء، ثم قالـت بنفس الصوت المبحوح:

- «معلش، أنا سرحت بس شوية»

الْتقَـتْ عينانـا لوهلـةٍ ثم قطعت أنا الصمـت كي لا تفضحني عيناي:

- «كنتِ حتحكيلي عن الحلم اللي حلمتيه امبارح"

تنحنحَت في محاولة يائسـة لتزيل تلك الحشـرجة من صوتها، ثـم قالت وهي تدير بصرها إلى تلـك اللوحة المعلقة على الحائط عن يسارها والتي تصور مقطعًا تشريحيًّا للرأس البشري:

- «بحلـم إنـي كنـت بتخانق.. يعنـي، حاجة شـبه المصارعة كده، مع واحدة، هي كبيرة، أكبر مني، في السن يعني»

لم أستطع أن أمنع عينيّ من أن تتطلع إلى تلك الخرزة الصغيرة اللامعة التي تزين زاوية أنفها المنمنم ثم شعرت بالحرج من نفسي فتنحنحت وقلت بصوت غريب:

- «عجوزة؟»

هزت رأسها، وقالت وهي تلوح بيدها بإشارة غير ذات معنى:

- «لأ، مـش عجوزة، هــي أكبر مني بس.. أكبر مني بحاجة بسيطة، هي جميلة كمان، جميلة أوي».

تأملـت عينيها العسـليتين وحاجبيها المنمقيـن اللذان يزيدان

من جمالهما وقلت:

- «ما انتِ كمان جميلة يا (أروى)»

قلتها ثم شعرت بحرارة أذناي ترتفع، لابد أن لونهما قد صار بلون الطماطم الآن، عقدت حاجبي وأنا ألعن نفسي في سري، إذا لم أستطع التحكم في مشاعري سأنهي الجلسة، أنا على مشارف الخامسة والأربعون، من الجيد أنني لم أرزق أنا وزوجتي بأبناء حتى لا يرون أبيهم يجلس أمام هذه الفتاة الآن ويبدو كمراهق في الثامنة عشر!

الغريب أنني -وأنا أشعر منذ زمن بذلك الخواء العاطفي- لم ألقى من تحرك مشاعري تلك التي انطفأت، أزعم أنني مشهور بشكلٍ ما، بل وظهرت أيضًا كضيف أكثر من مرة في العديد من البرامج التليفزيونية، أقابل يوميًا مَن تستدير لهن أعناق أعتى الرجال، لكن ظل ذلك القلب كالدمية التي نفذت بطاريتها، مرضاي أيضًا كنت أرى أنهم حالات مرضية، مجموعة من العقد النفسية تكونت لديهم منذ الصغر، معادلات لكي أحلها عليَّ أن أخمن عدد من المتغيرات، لم أجد فيهن من يشعرني بأني لم أدفن منذ فترة وأعيش فقط بالقصور الذاتي.. ثم أتت (أروى) من نفس المكان الذى أتت منه جميع النساء اللاتي جعلن رجالًا يقشعر لذكرهم الأبدان يرتمين تحت أقدامهن، يبدون ويتصرفون كالبلهاء..

أفقتُ على صوت (أروى) وهي تكمل حديثها دون أن تبدي أنها سمعت ما قلته لها:

- «بس كان في واحد واقف بيتفرج علينا»

شعرت بحرج أكبر من تجاهلها لتلك الجملة التي أفلتت مني.. سـألتها باهتمام حاولـت أن أضفيه على كلماتي لكي أخفي ما أشعر به:

- «شكله إيه الواحد ده؟»

هزَّت رأسـها فصنع شـعرها الكسـتنائي القصير الذي يصل إلى أسفل رقبتها تموجًا محبَّبًا، وقالت دون أن تنظر إليّ وقد بدا أنها تحاول تذكُّر ما دار في الحلم:

- «شـكله ماكانش واضـح، مش آآآ، مش فاكرة ملامحه أوي، كل اللي فكراه إنه كان.. يعني، ماكانش لابس هدوم"

ظللت أنظر إليها دون أن أعلق، فالتفتت إليَّ وقالت وهي تنظر في عينيّ مباشرة:

- «إحنا كمان ماكناش لابسين هدوم، كنا بنتخانق واحنا عريانين، وهو كان واقف يتفرج علينا»

سـرحتُ فـي عينيها لوهلة وأنـا أتخيلها في ذلـك الوضع حتى شـعرتُ بالدم يصعد إلى رأسـي وبوجنتيَّ تشتعلان فابتلعت ريقي ثم سألتها:

- «وبعدين؟»

رفعـت كتفيهـا إلـى أعلـى وهـي تمـط شـفتيها الكنزتيـن فظهـرت خطوط الأنسـجة في شـفتيها مـن خلال أحمر الشـفاه القرمـزي الذي تضعـه ثم خفضت كتفيها وقالـت دون أن تفارق عيناها عينيّ:

- «ولا قبلين، خلاص»

نظرت لها في تساؤل فقالت:

- «الحلم بيخلص على كده، بنفضل نتخانق، وبيفضل يبصلنا من غير ما يتحرك أو يتدخل، بس كده».

قالتها ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها فبدت كأنما تحتمي بذراعيها مني أو من العالم الخارجي، ووضعت ساقًا فوق أخرى وهي تحرك قدميها في حركة عصبية، ألتفتُّ دون قصدٍ إلى قدميها وتوقفت عينيَّ على ذلك الخاتم عجيب الشكل الذي يزين إصبع قدمها اليمنى الأوسط ثم ارتفعت عينيّ كأنما يتحركان بإرادة خاصة بهما لترتكزان على خلخالها القماشي الذي يحمل دلاية بنفس شكل الخاتم.. كانت لا تضع طلاء أظافر على أصابع قدميها، لكن ما تضعه من إكسسوار جعل لها جاذبية لم أفهمها.. لماذا ترتدي حذاء مكشوف من الأساس ونحن في الخريف؟.. أفقتُ من تأملاتي ورفعت عينيَّ إليها بسرعة فوجدتها -لحسن حظي- تطالع لوحة تشريح الرأس البشري مرة أخرى، مددت يدي أبحث عن شيء ما لا أدري كُنهه على مكتبي حتى وجدت نوتة وقلم فالتقطهما وقلت وأنا أنظر إليها من طرف خفي:

- «انتِ قلتي (بحلم)، ده معناه إن الحلم ده اتكرر قبل كده، مضبوط؟"

أومأت برأسها دون أن تنظر إليّ، وَضَعْتُ النوتة والقلم اللذان أمسك بهما على المنضدة أمامي ثم التفتُّ إليها وقلت بصوت هادئ وأنا أحاول التصرف كطبيب يحترم نفسه:

- «ممكن تحكيلي عن مامتك شوية؟»

عادت تنظر إليَّ دون أن ترد، لاحظت أن ملامح وجهها باتت تحمل أمارات التوتر فقلت بنفس الصوت الهادئ:

- «الست اللي في الحلم اللي انتِ بتتخانقي معاها دي واحدة انتِ شايفاها عدوتك، ومن سنها الكبير ده ممكن أقول إنها مامتك، هي ملامحها كانت شبه مامتك فعلًا؟ تقدري تفتكري حاجة زي كده؟»

لم تَرُد وعقدت حاجبيها قليلًا، لم يفُتْني أنها بدأت تهز قدمها اليمنى في عصبية بالفعل، تراجعت بظهري للوراء وأسندتُ ظهري على المقعد ووضعت كفَّيَّ المفرودتين على ركبتيّ، وقلت وأنا أنظر في عينيها:

- «والراجل اللي كان واقف يتفرج عليكم ده، انتِ برضو قلتي إن ملامحه ماكانتش باينة، ماشفتيش فيه أي حاجة تقول إنه شبه باباكي؟»

ازداد انعقاد حاجبيها وازدادت شدة الهزة التي تهزها لقدمها، لكنها لم ترد أيضًا، ظلت تتطلع إليَّ بعينين لا تريان.. كان شرود ذهنها باديًا للغاية، لا أحتاج لأن أكون طبيبًا نفسيًّا كي ألحظ أنَّني قد بدأت أضع يديَّ على جزءٍ مهم من ماضيها، هممتُ بسؤالها عن والدَيْها ثانيةً، لكنها مالت للأمام فجأة في عصبية، ومدت يدها لتجذب إليها حقيبة يدها الموضوعة على المنضدة وأخرجت منها علبة سجائر مارلبورو حمراء، سحبت منها سيجارة في عصبية، ووضعتها بين شفتيها، ثم

أشعلتها بقداحتها المعدنية ذات اللون الوردي، وسحبَتْ منها نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها، وتركت الدخان عابقًا داخل صدرها للحظات.. ثم زفرته أخيرًا، وفتحت عينيها ونظرت إليَّ، انتظرتها تمامًا وأنا أشعر بقلبي يتحرك مع كل حركة منها، عضت شفتها السفلى بعصبية بدت في نظري في منتهى الإغراء وقالت وقد بدا صوتها يحمل في طياته بعض السخرية:

- «طيب إيه تفسير إن أنا وأبويا وأمي قاعدين في الحلم ملط كدا؟ دا لو اعتبرنا إن كلامك صح وإن هما فعلًا أبويا وأمي اللي في الحلم»

لم تعجبني نبرتها الساخرة لكني أخفيت ذلك تمامًا، صحيح أنني سمعت العديد من العبارات الساخرة من جميع مرضاي تقريبًا، خاصَّةً عندما كنت أقترب من وضع يديَّ على شيءٍ مهم في حياتهم، إلا أنَّني شعرت بكلماتها تخترقني كالرصاص.. ابتلعت ريقي وسألتها السؤال الذي تخيفني إجابته:

- «(أروى)، انتِ عندك علاقات جنسية الفترة دي؟»

ابتسمت في سخرية وهي تنظر إليّ، ظللت أتطلع إلى عينيها وأنا أشعر أنني كلما نظرت فيهما غرقت أكثر فأكثر، حانت مني الْتفاتة إلى شفتيها المضمومتين وهما تحيطان بالسيجارة وقد بدأت ضربات قلبي تزداد، لا تردي بنعم، أرجوكِ، رفعتُ عينيَّ سريعًا إلى عينيها وأدركت لشدة حرجي أنها فيما يبدو قد لاحظت تطلُّعي إلى شفتيها، الحرارة التي أشعر بها على وجهي الآن تشي بأن وجهي قد صار بلون الدم، قطبتُ حاجبيَّ رغمًا عنِّي، رفعَتْ هي يدها وأزالت خصلة من خصلات شعرها

القصيــر من على وجههــا دون أن تفارق عيناها عينيّ، ســأســألها ســؤالًا أخيــرًا ثم ســأنهي الجلســة الآن، لــم أعد أطيــق تصرفي كمراهق.. ابتلعتُ ريقي مجدَّدًا بصوتٍ لا بد أنها ســمعته، وقلت محاولًا إخفاء حرجي:

- «انتِ إيه أبعد حاجة فكراها عن مامتك وانتِ صغيرة؟»

قالت بعصبية شديدة فجأة والدخان يتطاير من فمها:

- «هو احنا ممكن نقفل موضوع أبويا وأمي ده دلوقتي؟»

أومأتُ برأســي ومددت يدي لألتقط النوتة مرة أخرى من على المكتب بجواري على اليســار، كنت بداخلي أريد أن أســتمر، أريــد أن أعــرف عنها أكثر، ليس كمريضة، فــ(أروى) صارت تحتــل مكانة أخرى لديّ، حتى وأنا أقاوم ذلك بشــدة.. حتى وأنا لا أعرف كيف أســيطر على ذلك الشــعور الذي يرفضه ضميري المهني.. قلت وأنا أتحاشى النظر إليها:

- «زي ما انتِ عايزة»

ثم أخذتُ نفسًا عميقًا وقلت وكأنما أُحدِّث نفسي:

- «فــي رأي بيقــول إن فــي الحلم، الشــخص بيتمنــى إنه يحل مشــاكله وهو نايم، بيقــول إن احنا بنحلم عشــان نحقق رغباتنا اللــي مش عارفين نحققها في الواقع، ده رأي (فرويد) في تحليله للأحلام للطفل المدلل».

ثم عدت أنظر إليها وقد بدأت أستعيد بعض من ثقتي وأكملت بلهجة علمية، كأنما ألقي محاضرة ما:

- «بــس أنــا عندي قناعة شــبه تامة إن أحلامنا بتبيــن لنا اللي

احنا حاسين بيه تجاه مواقف الحياة المختلفة اللي بنمر بيها، وبتعمل ده عن طريق رموز.. مش بوضوح زي الواقع، ده رأيي، أعتقد إن أنا و(فرويد) عندنا رأيين مختلفين عن الأحلام»

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تستمع لما أقول فتجاهلتها وقلت بنفس الطريقة الأكاديمية:

- «رأيي إن تفسير الحلم هو في الإحساس اللي بيسيبه الحلم بعد ما بينتهي.. الحلم وسيلة، آلة عشان تقلب الأفكار والأحاسيس اللي جوانا، لو عايزين نعرف الهدف الحقيقي من الحلم يبقى لازم نشوف إيه هو الإحساس اللي بنحس بيه بعد ما نصحى من الحلم»

قالت ببساطة وقد خفت النظرة الساخرة في عينيها قليلًا:

- «بس مش حاسة إن اللي بتقوله ده واقعي»

شردتُ ببصري بعيدًا وقلت وقد سرَّني إنني عدت أمارس وظيفتي كطبيب نفسي:

- «الحلم عكس الواقع، الحلم في الحقيقة هو المقابل بتاع الواقع، بس ده مش معناه إن الحلم مالوش علاقة بالواقع»

رفعت حاجبيها وضحكت بعصبية وهي تهز رأسها وقالت:

- «مش فاهمة»

التفتُّ إليها ونظرت في عينيها مباشرة وقلت وأنا أضغط على كل حرف من حروف كلماتي:

- «زي الحلم بتاعك كده، البنت اللي بتتخانق مع أمها -إللي هي انتِ- البنت دي حاسة دايمًا بأنها في حالة قمع من أمها،

ماكانتش بتقدر تقف قدامها في الواقع رغم إنها من جواها عارفة إنها تقدر تقف قدامها، بس في الحقيقة ماقدرتش، والقمع ده كان من أمها مش من أبوها، وإلا كان زمانها شافت أبوها هو اللي بيتخانق معاها مش أمها، بالعكس، أبوها كان واقف يتفرج، مش بيتدخل، ده معناه إنه برضو ماكانش بيتدخل في الواقع، مع إنها كان نفسها إنه يتدخل، عشان كده شافته رغم انشغالها بخناقتها مع أمها، والبنت دي لما تحس بالقمع -كنوع من الاحتجاج- بتدخل في علاقات جنسية عشان تحس إنها بتحتج على القمع ده، بتؤذي أبوها وأمها مع كل واحد تكون معاه، حتى لو العلاقة دي كانت مع حد ماتعرفوش أوي، عشان كده كنتم طالعين في الحلم من غير هدوم، البنت اللي في الحلم يا (أروى) كانت حاسة إن أبوها وأمها هما السبب إنها بقت عريانة قدام أول حد تتعرَّى قدامه، عشان كده عرَّتهم في خيالها، وبكده الحلم بيسيب عندها إحساس بكل اللي عملوه فيها، واللي هي كان نفسها تعمله فيهم، الفكرة في الإحساس اللي سابه الحلم يا (أروى)، مش في الحلم نفسه"

شردَت ببصرها بعيدًا في الحجرة، ولمحتُ رعشةً في يدها الممسكة بالسيجارة، لقد بدأتُ أسبر أغوارِكِ يا مَن تُحيلينَ حياتي جحيمًا، جلسة أخرى، ربما جلستان وستبكين ثم ستحكين لي كل شيء، لكني أخاف ما سيحدث وقتها، هل سأحكي لكِ؟ هل سأخبركِ بما تفعله عيناكِ بي؟.. كانت تعقد حاجبيها وتضم شفتيها وهي ممسكة بالسيجارة في يدها اليمنى رافعة إيَّاها إلى أعلى في حين تضم ذراعها اليسرى إلى صدرها

وتستند بمرفقها الأيمن عليه، تأملتها.. فبدت -في عينيَّ- رغم كل الأسى الظاهر على وجهها، جميلة.. يجب أن يضع أحدهم قانونًا يمنع النساء من أن يصرن أكثر جمالًا مما ينبغي.. تنحنحتُ وابتلعت ريقي مرَّةً أخرى وقلت محاولًا ألا يفضحني صوتي:

- «انتِ عارفة إن دي الجلسة رقم ٩٨»

الْتفتَت إليَّ وانقلبت سحنتها فجأة، وقالت بعصبية شديدة وهي تنظر إليَّ نظرة جعلت قشعريرة غريبة تسري في جسدي:

- «انتَ بتفتي»

ثم مدَّت يدها لتطفئ السيجارة في المطفأة الموضوعة أمامها على المنضدة وقالت بنفس العصبية:

- «بتقول أي حاجة، وبتعَدِّل على (فرويد) نفسه وفاكر نفسك إنك بكلمتين حكيتهملك حتفهمني»

ثم ضحكت بعصبية وهي تنظر إليَّ، حاولتُ ألا أبدو مهزوزًا.. كانت هذه من المرَّات القليلة التي أثارت مريضةٌ ما ذلك الشعور لديَّ بفقدان الثقة، رسمتُ على وجهي ابتسامة وقلت لها بصوتٍ حاولت أن أجعله هادئًا:

- «أنا عرفت عنِّك حاجات كتير في الثمان جلسات دول يا (أروى)، بس لسا في حاجات كتير برضو ماعرفتهاش عشان أقول إني فهمتك فعلًا»

نظرَت إليَّ طويلًا بنفس النظرة ثم لانت نظراتها قليلًا و قالت:

- «لأ»

قلت وقد أفقدتني الكلمة تركيزي:

- «هو إيه اللي لأ؟»

مـدَّت يدهـا إلى علبة سـجائرها وقالت وهي تشـعل سـيجارة أخرى في هدوء مستفز:

- «مش حتفهمني»

رفعـتُ حاجبيَّ لأعلى وأنـا أتعجب من رد فعلهـا ثم خفضتهما وقلت:

- «ليه بتقولي كده؟»

سحبَت نفسًـا من السيجارة وبدأَت تلملم أشـياءها بيدٍ واحدة استعدادًا للرحيل، لم أسـتطع أن أمنع عينيَّ من أن تتركزا على بنطالهـا الجينـز الضيـق، ثـم أشـحتُ بوجهـي وقد بدأتُ أشـعر بالضيق من عدم سيطرتي على نفسي، قالت دون أن تنظر إليّ:

- «لأني أنا نفسي مش فاهمة نفسي»

ابتسـمتُ في مـرارةٍ وأنا لا أزال أتابعها حتـى فرغَت من لملمة أشـيائها وعـادت تنظر إليَّ بنظـرة متحدية، ألقيتُ نظرةً سـريعة على أصابع يدها المزدحمة بالخواتم والتي لم تحمل طلاء أظافر هـي الأخـرى، والتي وجدتهـا أيضًا شـديدة الجاذبيـة.. تبًّا لذلك الشـعور الذي كنت قد نسيته، أن تنظُر إلى امرأةٍ وتجدُ أن كلَّ شيءٍ فيها يعجبُك، فقط كل شيء.. قلت:

- «دي شـغلتي يا (أروى)، انتِ جاية هنا عشـان كده، عشان أفهمك، وأعتقد الإحسـاس السـيء اللي انتِ حسيتيه دلوقتي ده حيكون راح المرة الجاية، وبطلي تفكري شـوية، خلينا نفكر هنـا مـع بعـض، مافيـش حاجـة حلـوة أو وحشـة، التفكير في

الحاجة دي هو اللي بيخليها كده"

عادَت تبتسم في سخرية بزاوية فمها ثم قالت بإنجليزية سليمة:

«There's nothing either good or bad, but thinking makes it so»

نظـرتُ لها دون أن أتكلم، لا بد أنها رأت الدهشـة بادية على وجهي فقالت ببساطة:

- «شكسبير!»

خفـق قلبي وأنا أكتشـف ميـزةً أخرى بها، هـذه فتاة تحفظ مقاطع لشكسبير أيضًا، وباللغة الإنجليزية، كيف عَرَفَت أنَّني أهيم حبًّا بالأدب الإنجليزي؟ كيف فطِنَت إلى أنني كنت أذوب عشـقًا وأنا أنصـت إلى مدرِّسـة اللغـة الإنجليزية الحسـناء وهي تقـرؤه علينا بصوتهـا الرقيق؟.. لكن هذه المرَّة شـعرتُ شـعورًا مختلفًا تمامًا، خاصة عندما تم سـرده بصوتها.. هذا الذي يشوبه بحَّـة محبَّبة، لـي على الأقل.. لم يكن هذا ينقصنـي، لم أدْرِ مِن قبل أنني أعشـق النسـاء المثقفات، لكنني اكتشفت ذلك الآن فجـأة، ثم أيقنتُ لشـدة خوفي أنني صرت أعشـق ما تفعله هي، مهما كان ذلك الشيء.. ابتَسَمَتْ وهي ترى الاندهاش على وجهي ودارت على عقبيها واتجهت إلى الباب وهي تقول بصوتٍ عال:

- «سلام يا دكتور (حسين)»

ظللـت أتابعهـا وهي تتمايل خارجـة من مكتبـي دون أن أمنع عينيَّ من تأمل جسدهـا حتى فتحت الباب وخرجت وأغلقَته خلفها في هدوء.. نظرتُ إلى الباب المغلق لوهلة، وشعرت فجأة بالفراغ الـذي تركتـه خلفها فخفضت رأسـي ونظرت للأرض في أسـىً

وأنا أفكر في تلك الجلسة التي انتهت فجأة والتي لسبب لست متأكدًا منه حتى الآن، لم أكن أرغب في أن تنتهي.. شعور الضعف هذا يعذبني، شعور أنك تفقد رويدًا رويدًا سيطرتك على نفسك، لكنك في الوقت ذاته تجد متعة غريبة في فقدانك لتلك السيطرة..

ظللت على هذا الوضع لما يزيد عن الدقيقة وأنا أعيد في ذاكرتي كل ما فعلته هي أو قالته، ثم رفعت رأسي أخيرًا وأخذت نفسًا عميقًا وزفرت زفرة حملت كل حرارة الدنيا، ثم درت على عقبيَّ واتجهت إلى حجرة الاستقبال في خطوات بطيئة..

❖ ❖ ❖

«سيف»

وقفتُ أمام جثّتها وأنا أرتشف من كوب القهوة في صمت..

دائمًا ما كرهت المكالمات التي تأتيني متأخرًا..

رنة الهاتف تلك القادرة على إيقاظ الموتى، لم أعد متزوجًا كما تعرفون؛ لذا لم أكترث كثيرًا لصوت الهاتف المرتفع، فلن تزعج تلك المكالمة الآتية نوم أحدهم كما كانت تفعل من قبل..

استيقظتُ فجأة كما هو المعتاد ونظرت في الهاتف لأجد أن المتصل هو (إبراهيم)، تثاءبتُ وقد أيقنت بمجرد رؤية اسمه على شاشة هاتفي أنها ستكون ليلة أخرى من تلك الليالي التي أمضيها خارج البيت تحت الأمطار أو في الحر المقذع؛ لأتفقد تلك الجثة التي قرَّر أحدهم فجأة أن حياتها على هذا الكوكب قد استمرت أكثر مما ينبغي..

وضعتُ الهاتف على أذني وسألته عن العنوان، لن أضيع الوقت في أسئلة سأسألها مرة ثانية لاحقًا وأنا في موقع الجريمة، كيف عرفت أنها جريمة؟ الأمر بسيط، لأن (إبراهيم) يعلم تمامًا أنه إن لم تكن هناك جريمة ما قد وقعت، فلن يجرؤ على إيقاظي في الثانية بعد منتصف الليل لأنني -على عكس زملائي في المباحث- أعشق النوم مبكرًا، ولأنني كنت سأحيل حياته جحيمًا حقيقيًا في اليوم التالي..

أنهيت المكالمة وارتديت ملابسي ومررت على ذلك المقهى الشهير الذي يظل فاتحًا أبوابه على مدار الساعة لأمثالي من الذين يضطرهم عملهم أحيانًا إلى التصرف كخفافيش بشرية، وها أنا ذا أقف فوق الجثة المدرجة في دمائها وأنا أقرب أنفي من الكوب الورقي آملًا في أن يصعد الكافيين إلى مخي عن طريق أنفي أولًا.. كان (إبراهيم) يكمل سرده لما وصل إلى علمه عن الجريمة حتى الآن وإن كنت أعرف تمامًا أنني سأسأله ثانيةً عمَّا حكاه؛ لأنني لم أسمع ولو حرفًا واحدًا مما قال:

- «وزي ما سيادتك شايف، الطعنات في كذا مكان في الجسم، لسا ماحددناش عددها بالضبط بس في دم كتير في بطن الجثة وما بين رجليها، البنطلون اللي هي لابساه مقطوع من نفس المكان.. حنستنى تقرير الطبيب الشرعي عشان نعرف تفاصيل أكتر»

تأملتُ جثة الفتاة الملقاة أمامي على الرصيف.. مجرد فتاة أخرى كانت ستتزوج لتحيل حياة أحدهم جحيمًا مثلما كان سيفعل زوجها معها بالتأكيد، وكما فعلَته معي زوجتي التي بالتأكيد ترى أنني أنا من جعل حياتها لا تطاق.. على الأقل ماتت وبداخلها أمل أنها ستكون مختلفة عن كل مَن سبقَها، أو هكذا أتصور.. تبدو للوهلة الأولى أنها حادثة اغتصاب من تلك الدماء التي بين فخذيها، ملابسها توحي أنها تهتم بمظهرها، بدلة كلاسيكية سوداء مكونة من چاكت وبنطال، تحتهما قميص أبيض اللون لوَّثَته الدماء تمامًا، حذاءها أنيق أيضًا ذو كعبٍ عال، شعرها مصفَّف بعناية، ماكياچ كامل، ثم ذلك

الكمان المحطم والملقى خارج حقيبته الجلدية بجوارها.. تركزت عيناي على الكمان ثم أفقت من خواطري على صوت (إبراهيم) وهو يقول بنفس طريقته الرتيبة في السرد:

- «بس يا (سيف) باشا، دي كل المعلومات اللي عندنا لغاية دلوقتي»

نظرت إليه وأنا أفكر في أن أطلب منه أن يعيد كل ما قاله ثانيةً على مسامعي لكني عدلت عن تلك الفكرة وقلت وأنا أشير لجثة الفتاة:

- «وبالنسبة للبصمات، في أي بصمات لقيتوها على الجثة أو على البتاعة دي اللي مرمية جنبها؟»

قال (إبراهيم) الذي تعود على شرودي المبالغ فيه:

- «زي ما قلت لسيادتك من شوية، أنا اتكلمت مع بتوع المعمل الجنائي، هما أخدوا البصمات اللي لاقوها كلها وحيبعتولنا تقرير أول ما يوصلوا لحاجة»

قلت له وأنا أنظر حولي محاولاً فهم ذلك السبب الذي جعل فتاة مثلها تمشي وحدها في هذا الشارع في مثل هذا الوقت:

- «انتَ قلتلي اسمها، مش كده؟»

أومأ (إبراهيم) برأسه وقال:

- «أيوا يا باشا، اسمها (سارة)، (سارة محمود جابر)»

قلت وأنا أتأمل ملامح (سارة) للمرة الثالثة تقريبًا:

- «ماعرفتوش إيه اللي كان ممشيها هنا في الوقت ده؟»

قال (إبراهيم) ببساطة:

- «أنا قلت لسيادتك إننا جبنا تليفونها وكلمنا أهلها، هي بتعزف كمانجة في فرقة كده هي وصحابها في الجامعة، وكانت معاهم في بروفة عشان عندهم حفلة بكرة»

قلت وأنا أتأمل ملامحها الطفولية برغم المكياچ الكامل الذي تضعه:

- «كلية إيه؟»

قال وهو يتصفح نوتته الصغيرة:

- «طِب يا باشا، كلية الطب، اللي قدامك دي كانت حتبقى دكتورة»

نظرت مرة أخرى إلى الكمان المحطمة وقلت لـ(إبراهيم) بلهجة آمرة تعودت عليها وأَلِفها هو:

- «عايز الفرقة دي كلها كده بربطة المعلم عندي في المكتب»

أومأ (إبراهيم) دون أن يرد فقلت وأنا أتلفت حولي لعلِّي أجدُ شيئًا ما مريبًا في مسرح الجريمة البالغ البساطة هذا:

- «أهلها كمان، كدا كدا هما حييجوا عشان يتعرفوا على الجثة في المشرحة، عايز أتكلم معاهم أول ما يخلصوا"

جحظت عيناه كعادته كلما أمرته بشيءٍ هو غير مقتنع به وقال:

- «أوامر سيادتك بس أنا شايف نأجل الكلام مع أهلها دلوقتي عشان حيكونوا...»

لم يكمل كلامه بعد أن أخرسَته نظرتي وقال بضيق:

- «تحت أمر سيادتك»

قلتُ له وأنا أنحني على ركبتي لأقترب بنظري من الكمان:

- «تفتكر إيه اللي يخلي القاتل يكسر الكمانجة كدا؟ بص يا (ابراهيم)، العلبة بتاعتها سليمة، مفتوحة بس سليمة، القاتل طلع الكمانجة ورزعها في الأرض، ده معناه إنه يا إما بيكره الكمانجة أو بيكرة إن صاحبة الكمانجة بتعزف كمانجة، الموضوع مش حيخرج برة اللي معاها في الفرقة، تلاقيه عيل بيحبها ولا واحدة غيرانة منها عشان بتعزف أحسن، خلصلي موضوع الفرقة ده بسرعة، عايزهم.. هما بتوع المعمل الجنائي خلصوا شغلهم كده خلاص؟"

أومأ (إبراهيم) برأسه، فقلتُ وأنا أقف دون أن أرفع عيني عن الكمان:

- «خليهم يشيلوا الجثة ويطلعوا عالمشرحة، مش فرح العمدة هو، عايز تقرير المعمل الجنائي بسرعة"

ثم أخذتُ رشفة من كوب القهوة فملأت القهوة الراكدة في آخر الكوب فمي.. بثَقتها جانبًا ثم قلت لـ(إبراهيم) وأنا أحاول أن أزيل بقاياها من فمي:

- «أنا في المكتب، خلَّص وادينى تمام"

ثم ألقيت نظرة أخيرة على جثة الفتاة واتجهتُ إلى سيارتي في خطوات سريعة..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

هذه المرة كانت هي أول من خفض عينيه..

ظل ينظر كلٌّ منَّا في عيني الآخر حتى خفضَت هي عينيها في النهاية في حياء، نظرتُ في ساعتي، لقد مرَّت عشرون ثانية، عدت أنظر إليها فوجدتها لا تزال تنظر إلى الأرض، مددت يدي ورفعت ذقنها لأعلى بأناملي كي تنظر إليَّ فابتسمت لي ابتسامتها العذبة وآثار الخجل تبدو على وجنتيها الورديتين..

أهكذا هو الحب؟ أن تشعر أن ابتسامة مَن تعشقه تضيء كل ما حولك، أن تدفئك تلك الشمس التي تُطل من عينيها وتحيل برودة روحك ربيعًا مفعمًا بالأزهار التي ليس بإمكانك حتى أن تحصي ألوانها.. تأملت شعرها الكستنائي الناعم المنسدل على وجهها الملائكي الأبيض المشرَب باللون الوردي، وقلت لها بصوتٍ خافت:

- «أنا اللي كسبت المرة دي»

ازدادت ابتسامتها حتى تجعَّدت زاويتي عينيها الخضراوين لتشِيَا أن ابتسامتها تلك من القلب مباشرة، ثم قالت بصوتها الذي يغار منه الكناري:

- «انتَ بتكسب كل مرة.. بطَّل بقى، مش عايزين نلعب اللعبة دي تاني»

كنتُ أراقب شفتيها الورديتين دون أحمر شفاه وهي تتحدث

وأنا أشـعر وكأن كلماتها تنسـاب من شـفتيها علـى هيئة نوت موسيقية ثم تتسلل إلى أذنيَّ فترقص لها طبلتيّ أذني، مددت يدي لألمس أنفها الدقيق بأصبعي مداعبًا إيَّاها فضيقت حدقتيها دون أن تفـارق عينيهـا الابتسـامة ودون أن تبعد وجههـا، قلت والحب يقطر من كلماتي:

- «مش حنبطل اللعبة دي حتى بعد ما نتجوز»

ازداد احمـرار وجنتيهـا على الفور واتسـعت ابتسـامتها لتبدي حبات اللؤلؤ البيضاء الصغيرة بين شفتيها وقالت:

- «بس بقى»

ثـم خفَّـت ابتسـامتها قليـلًا وتلفَّتَت حولهـا في ترقُّـب وقالت وكأنما تنتظر قدوم شخص ما:

- «علـى فكـرة ماما قالتلي إنها حتيجـي النادي بدري، يعني ممكن شوية كده ونلاقيها جنبنا»

تبخَّرت سعادتي فجأة وأنا أتخيل أمامي ملامح وجه أمها الشبيه بالسـاحرة الشريرة في قصة سـنو وايت، أمها جميلة بالطبع، مَن تلـد هذا الكائن الملائكي يجب أن تكون فاتنة، لكني ما أن أراها حتى أشـعر براحتي النفسية تتبخر.. سيكون عسيرًا بعض الشـيء أن تكون «حماتي» يومًا ما، وإن كنت على اسـتعدادٍ تام لكي أتقبلها من أجل (مي).. مطيت شفتي السفلى وقلت بضيق:

- «ماما.. بتموت فيا ماما، مش كده؟»

نظـرَت لـي في لـومٍ وقالت بعتـاب وهـي تلمس رسـغي بيدها الرقيقة:

- «ماتقولش كده، ماما بس خايفة عليَّا، مش أكتر»

قلت وأنا أشعر بالدم يصعد إلى رأسي:

- «آه، ما هي ماما بتخاف من خيالها فعلًا»

بدا الغضب على وجهها وقالت بصوتٍ بدأ يحمل بعض الانفعال:

- «(أدهم)، انتَ عارف إني مابحبكش تتكلم على ماما وحش، وعلى فكرة طبيعي إنها تخاف عليَّا، هي أصلًا حتموت في جلدها من ساعة ما سمعت عن اللي حصل لـ(سارة)»

توقف بي الزمن لحظتها تمامًا..

(سارة)..

ظللت أنظر لها، لوهلة تبدلت ملامحها أمامي ورأيت (سارة) هي مَن تنظر إليّ.. أجفلت، ثم عاد وجه (مي) الرقيق مرة أخرى.. نظرَت لي باستغراب وهي تتفرس في ملامحي فقلت بسرعة:

- «(سارة) مين؟»

تراجَعَت للخلف ورفعَت حاجبيها لأعلي.. لم أُرد أن أثير ريبتها أكثر من ذلك، فقلت كأنني قد تذكرتُ لتوِّي:

- «آه، معلش، (سارة) اللي لاقوها ميتة في الشارع اللي جنب كلية هندسة؟»

بدا عليها كأنما تراني للمرة الأولى وقالت غير مصدقة:

- «(سارة) اللي لاقوها ميتة؟ (أدهم)، ماتقوليش إنك ماكنتش تعرف (سارة)، دي كانت بتعزف كمانجة في الفرقة بتاعة صاحبكم دا، آآ مش فاكرة اسمه، انتَ مش قلتلي إنك

كنت بتعزف معاهم أيام ما كنت في الفرقة بتاعة الكلية؟»

توقف تفكيري تمامًا.. ماذا أقول لها؟ هل أخبرها الآن وأفسد تلك اللحظة بعد أن أفسدتها سيرة أمها بالفعل؟ ضيقتُ حدقتيَّ كأنما أحاول تذكُّر شيء ما وقلتُ لها محاولاً ألا يبدو صوتي مهزوزًا:

- «مش عارف، آآآ، يمكن بس مش فاكر هي كانت معانا ولا لأ، آآآ، كان معانا كذا بنت في الفرقة بس آآآ مش فاكر أسماءهم، انتِ عارفة، أنا بخلص عزف وبمشي على طول، مابركزش، ومعرفش حد فيهم أوي»

ظلَّت تنظر لي دون أن تتكلم، تبًّا لتلك النظرة في عينيها، نظرة الشك الممزوجة باللَّوم.. نفس نظراته، تبًّا، لماذا تذكَّرته الآن؟ شعرتُ بعصبيةٍ شديدة حاولتُ كتمانها قدْر المستطاع وظللتُ أنظر في عينيها في محاولةٍ يائسة لاستعادة اللحظة الرومانسية التي لم تستمر كما لا يستمر أي شيء جميل.. وكالعادة كان هذا متأخرًا جدًّا لأنني لم أعد أرى تلك النظرة العاشقة في عينيها.. قالت بهدوء -وإن كنت أعلم تمامًا أنه يخفي وراءه الكثير-:

- «بس أنا كنت سمعت من واحدة صاحبتي إنكم كنتم متصاحبين»

شعرتُ بالدم يصعد إلى رأسي وأحسستُ أنني فقدتُ القدرة على تكوين جملة مفيدة، قالت ونظرة الشك واللوم في عينيها تزداد:

- «انتَ مش عايز تقولي عشـان ماتزعلنيش؟ (أدهم)، (سارة) ماتت already، أنا مش فاهماك»

- «كنت بدور عليكم»

ظلَّت تتطلع إليَّ دون أن يبدو عليها أنها قد سمعت (كريم) الذي كان قـد وصل لتوِّه، ظللـتُ أنا أيضًا أنظر لهـا دون أن أتكلم، حتى لو أردت أن أفعل، ماذا سـأقول؟ كيف أختار كلماتي دون أن أفسـد كل شـيء؟ نقَّل (كريم) بصره بين وجهينا ثم تنحنح، كـدتُ أصدق أنـه قد أصابه الحرج بالفعل لولا معرفتي به، هذا الكائن لديه من السماجة ما يكفيه كي لا يشعر بالحرج حتى لو تجوَّل عاريًا في الشارع، قال وهو يضحك ضحكته السمجة:

- «ولا كأني هنا، hey، أنا جيت»

الْتفتَت له (مي) أولاً وابتسـمت ابتسـامة واهنـة، ظللتُ أتطلع إليهـا دون أن ألْتفت إليه في البداية ثم وجهت نظري نحوه أخيرًا.. أكـره دائمًا طريقته السـخيفة فـي إقحام كمـات إنجليزية في كلامـه إقحامًـا كأنما يريـد أن يخبر الجميع كـم كان أبيه سخيًّا في اختياره لمدرسته، قالت (مي) في محاولة منها للتظاهر بالمرح:

- «إيه يا ابني، انتَ فين؟ ماشفتكش من يوم السبت»

اتسـعت ابتسامته السـمجة وقال وهو يحاول أن يستجمع كل ما يعرفه أو سمعه عن خفة الدم:

- «كنـت عارف إني لـو اختفيت كام يوم الناس حتفتقدني، واللّٰه يـا (مـي) بقالـي كام يوم عنـدي كورس مـن ٨، وبخلص

وبروح بعدها الـ gym ، بس إيه رأيك؟ it's becoming apparent ، صح؟

نظـرتُ لـ(مـي) التـي كانـت تتأمل عضلاتـه بالفعـل، وقلتُ بصوتٍ حاولت أن أجعله هادئًا:

- «آه فعلًا، فخادَك نزلوا شوية»

عضَّت (مي) شـفتها السفلى في إحراج والْتفتَت إليَّ غير مصدقة أنني قلت هذا لـ(كريم)، لم يبدو عليه أنه سمع ما قلته من الأساس، فتـح فمه وهو يهم بقول شـيء ما، ثم نظر لشـيء ما خلفنـا فالْتفتنا لنجد أن (كريم) لم يكن أسخف ما يمكن أن يحدث لنا اليوم..

فلقد وصلت أم (مي) أخيرًا.. الاستعلاء يمشي على قدمين..

اقتربَـت منَّا فـي خطوات لا بد أنها قد تدربـت عليها كثيرًا، هـل رأيت من قبل إحدى سـيدات الأعمال وقـد ترجَّلت لتوِّها من سـيارتها الفارهـة وتمشـي متَّجهة إلى باب شـركتها؟ لـو رأيتها فستوفر عليَّ شرحًا لا طائل منه..

وصلـت أخيـرًا وحيَّـت ثلاثتنا بهـزَّةٍ وقُورة من رأسـها، وإن لم يفتني نظرتها الكارهة إليَّ والتي لا أنكر براعتها في إخفائها، إلا أننـي -وللأسـف- كانت إحدى ميزاتـي القليلة هي ملاحظة تلـك المشـاعر التي يجيد البشـر إخفاءها.. التفتَـت إلى(كريم) وقالت بطريقتها الودودة التي لا تخلو من الاسـتعلاء، والتي أراها ككل لهجاتها، مصطنعة:

- «إزيك يا (كريم)، أنا لما ماشفتكش في النادي من كام يوم بحسبك سافرت لبابا دبي»

انتفخت أوداج (كريم) ووضع يديه في جيبي بنطاله، وقال بابتسامة عريضة:

- «لأ يا طنط، أنا حروح في أول مارس، الجو هناك بيبقى so nice وبحب أجيب لبس الصيف من هناك»

كان ينطق «طنط» باللكنة الفرنسية ليُظهِر رقيَّه المبالغ فيه لـ«طنط».. أومأت هي برأسها متفهمة وقالت وهي تمط شفتيها في اشمئزازٍ لا أعرف سببه:

- «عندك حق يا (كريم)، بابا (مي) برضو بيجيبلها اللبس من فرنسا، اللبس هنا بقى زي الزفت، mediocre جدًّا»

يا إلهي، كم أكرهها، كم أكرههما معًا، ينتميان لنفس المجتمع ونفس الطريقة البرجوازية في التفكير.. مدَّعِيَان، اثنان من المدَّعين يحيطان بعالمنا أنا وتلك الرقيقة.. قلت أخيرًا وقد فاضَ بي الكيل:

- «طيب أنا ممكن أديك انتَ أو طنط مقاساتي وتجيبولي لبس من دبي أو فرنسا، أنا بلبس ميديام وفي الجزَم ٤٥»

تثبَّتَت نظراتهم عليَّ والتفتُّ إلى (مي) لأجدها تنظر لي فاغرة فاها ووجنتاها حمراوان، فنظرتُ في ساعتي وقلت بسرعة كأنما تذكرت شيئًا ما:

«آآآ، أنا لازم أمشي، كنت حنسى مشوار مهم، بعد إذنكم»

وأمام نظراتهم المختلفة ما بين اللائمة والكارهة والسمجة التي لم تتغير منذ أن وصلوا، تركتهم واتجهتُ إلى بوابة النادي الذي صرت لا أطيقه كأنما قد سمَّم وجودهما جوَّه كله..

ثم فكرت أن وصولهم لم يكن سيئًا جدًّا ، فما أرادت (مي) أن تعرفه لم يكن بمقدوري أن أقوله لها ، لأنها لو عرفته لفرَّت على الفور كأنما تطاردها كل شياطين الجحيم..

ثم كيف كنت سأحكي لها أي شيء وأنا لا أذكر ما حدث من الأساس؟

❖ ❖ ❖

«حلمي»

منذ أن وطأت قدماه أرض المشرحة وأنا يراودني شعور غريب.. أن (سيف) هذا قد صار مختلًّا تمامًا، كل ما يفعله أو يقوله يوحي بأنه قد تحول إلى إنسان غير متزن، لست طبيبًا نفسيًّا لأحكم على صحته النفسية، لكني لا أحتاج لأن أكون واحدًا كي ألاحظ وجود شيء ما ليس على ما يرام به.. صحيح أنني أعرفه منذ فترة طويلة، فقد عملنا معًا في الكثير من القضايا التي تولاها هو ونجح فيها كعادته، لكنه لم يصل قط إلى هذه المرحلة من الاضطراب النفسي.. هو لم يكن قط شخصًا عاديًّا، وكيف تكون عاديًّا وأنت ترى هذا الكم من الجرائم التي تُظهر قدرة الإنسان على أن يكف أن يكون واحدًا.. أن يكون إنسانًا..

شعره الناعم، والذي بدأ الشيب يخط فيه بعض الخطوط؛ صار غير مصفف ويتناثر بشكل عشوائي فوق رأسه، بشرته الخمرية شاحبة، كانت ذقنه حليقة، إلا أن هذا أظهر وجهه النحيل الذي اشترك مع جسده في أنه صار أكثر نحالة من ذي قبل.. لكني كنت أرى أن أكبر التأثير كان يظهر في عينيه.. لم يعد هناك بريق في عينيه الذكيتين، وإن احتفظا بتأثيرهما الذي يثير التحفظ وعدم الراحة في نفوس مَن يراه، العينين نافذة الروح، لذا لا أحتاج إلى كثير من الذكاء لأعرف أن روحه صارت بلا شغف..

نعم، اشــتركت معــه في العديــد من القضايــا ، لكن دوري كــان كالعــادة قاصــرًا على إخباره بمــا تخبرني به الجثث ، وإن لــم تكن تعرف، فللجثث لغة خاصة بها ، يراودني أحيانًا شــعور أن الجثــث تتحــدث معي بالفعل، لا ، لم أفقد اتزاني النفســي أنا الآخر كما لا بد وأن ذلك قد دار بخاطرك، لكنه عملي، عملي أن أعرف ما تريد تلك الأجســاد الباردة أن تقوله.. أعتقد أن لهذا الســبب بالذات لم أفقد بعدُ رجاحة عقلي، فلم أســعى لأن أعرف الدوافــع وراء القتــل كما يفعــل هو، أو أن أغــوص داخل النفس البشــرية لأجد الوازع من أجل أن ينهي فلانٌ حياةَ فلانٍ من أجل.. من أجل لا شيء في الواقع، أعتقد أنه لهذا السبب لم يعد (سيف) أبــدًا كما كان، لا عجب أن زوجته لم تتحمل كل هذا وقررت في النهاية أنها تريد أن تمضِ حياتها مع شــخص لا يجد في كلِّ مَــن يقابله مشــروعًا لمجــرمٍ آخر، لــم يحالفه الحظ بعــدُ في أن يكون واحدًا..

كنت أخبره بما وصلتُ إليه أثناء تشــريحي لجثة تلك الفتاة، (ســارة) كما هو مكتوب على الكارت المربوط بإصبع قدمها اليســرى.. نعــم، عندمــا تمــوت بشــكل غيــر طبيعــي، فدعنــي أخبرك أن أطرافك ســيتم استخدامها في أشياء مثل تلك هنا في المشرحة.. وها هو يضحك في عصبية وأنا أصِف له تلك الطعنات التي تلقتها.. لم أقم خلال أعوام خبرتي الخمس وعشرون بتشريح جثــة تلقــت مثــل تلك الطعنــات كما لــم أقابل علــى الإطلاق مَن يضحــك وأنــا أخبــره عن شــيء بمثل هــذه البشــاعة.. نظــرت له باســتغراب وقد اعترتني بعــض العصبية، فحتى مع مئات الجثث

التـي رأيتها لم أفقد بعد شـفقتي نحوهم وأنهم كانوا -منذ فترة ليسـت بالبعيدة- أحياء يتنفسـون ويحبون.. ولديهم أحلام، كما لديهـم آمال عريضة أن تتحقق تلـك الأحلام.. لم يكونوا يعرفون أنهـم سـيتحولون إلـى شـيء تالف، دمية كسـرها طفـل صغير فانتهت وظيفتها عند هذا الحد.. شـيء موضوع على ذلك السرير المعدنـي المتحرك كي يسـهل تحريكهم ووضعهم في الثلاجة فيمـا بعـد.. ظللـت أنظر لـه دون أن أتحدث حتى قـال أخيرًا وهو يحاول جاهدًا أن يتوقف عن الضحك:

- «معلـش يـا دكتـور، أصـل القاتـل ده طلع مجـرم، ضربها بالسكينة فـ...»

ولم يسـتطيع أن يكمل كلامه بعد أن غلبه الضحك، ظللت أنظـر إليـه بغيـظ ثم لم أسـتطع أن أصمت أكثر مـن هذا فقلت بعصبية:

- «أنا مش شـايف حاجة تضحك في موضوع إن الجثة تكون اضربـت بالسـكينة فـي الحتـة دي، ثـم زي ماقلت لسـيادتك، ماكانتش طعنة واحدة»

قال على الفور:

- «ماهو ده مخليني مش عارف أمسك نفسي، ده شكله كان مفقـوع منهـا قوي، يعنـي ما اغتصبهـاش وضربها بالسـكينة، تلاقيه كسل يـ...»

لـم يسـتطع اسـتكمال كلامه واسـتمر في الضحك وسـط نظراتـي المسـتهجنة من بذائتـه المفهومة، ثم رفع يديـه معتذرًا

وقال وقد بدا عليه أنه يحاول فعلًا أن يتوقف عن الضحك:

- «معلش، أنا آسف، أنا خلاص معاك، كمل يا دكتور»

أخذت نفسًا عميقًا وقلت وأنا أحاول أن أستجمع أفكاري مرة أخرى، وإن لم تختفِ العصبية تمامًا من صوتي:

- «زي ما قلت لسيادتك، الطعنات اللي في المهبل تمت للأسف قبل الوفاة، يعني هي كانت حاسة بيها كلها.. غير الطعنات دي مافيش غير طعنة واحدة بس في الجزء أصابت الكبد والوفاة كانت نتيجة النزف الشديد اللي سببته الطعنات «

توقفت لأرتب أفكاري ثم قلت وقد تذكرتُ شيئًا مهمًّا:

- «في حاجة تانية مهمة، القاتل أشول، اتجاه الطعنات بتقول إن صاحبها بيستخدم إيده الشمال بشكل شبه دائم، لأنه متمكن من التحكم فيها، وعمق الطعنات بيقول إن قوته الجسمانية مش كبيرة.. آه، وفي احتمال مش صغير إنه يكون في نفس طول الجثة، قصير يعني، ١٦٠ سم على أقصى تقدير، بس ده مبني على الطعنة الأولى بس للأسف، لأن الطعنات التانية تمت والجثة على الأرض، وبالتالي الطول مالوش تأثير»

ظللت أنظر له حتى أرى وقْع ما قلته على وجهه.. لا شيء.. كان ينظر لي كما لو كنت أخبره عن إصابتي بالمغص من جراء ما التهمته اليوم على الغذاء.. ظلت نظرته متركزة عليَّ حتى شعرت بالحرج فهممت بقول شيء ما لكنه قال فجأة كأنما أفاق للتَّو من غيبوبة:

- «كان لابس جوانتي، مش كده؟ مافيش بصمات يعني»

لـم أكن قـد أخبرته بتلك المعلومة بعـد ، لا بد وأنه قد وضع يده على شيء ما لا أعرفه.. قلت وأنا أحاول معرفة ما يفكر فيه:

- «فعـلًا ، مافيش بصمـات غريبة ، حتى البصمـات اللي على الكمانجة أو العلبة كلها بتاعة (سارة)»

شـعرت برجفة غريبة وأنا أنطق اسمها.. فكرة أن تسمي جثة باسـم هو شيء مقبض من الأساس.. قلت وأنا أشاركه أفكاري دون أن أدري سببًا لذلك:

- «عارف يا (سيف) بك إني ساعات لما...»

قاطعنـي وهو يتمعَّن في ملامح وجههـا ويحرك أصابعه أمامه كأنما يرسم شيء ما في الهواء:

- «حد عايز ينتقم منها ، مش كده؟ اللي يضربها بالسـكينة في آآآ يعني ، يبقى بيكره إنها أنثى.. رأيي إنه واحد كان بيحبها وهـي حلقتلـه ، أو آآآآ ممكـن يكـون مريـض نفسـي وبيكره السـتات ، شـاف أمه بتخون أبوه بقى أو واحدة عملت معاه حاجة شبه كدا ، إيه رأيك؟»

قالها والتفت إليَّ ، ذهب سـريعًا شـعوري بالغيظ من مقاطعته لي وقلت وأنا أفكر فيما يقول:

- «طريقة الطعنات بتبين إن في غِل أكيد ، لكن أنا معنديش خبرة كافية زيك إني يعني أ...»

قاطعني مرة ثانية:

- «أنا بسـألك رأيك ، رأيك الشـخصي يا دكتـور ، أنا عارف إنـك بتاع تشـريح مش بتاع علم نفس وجريمـة ، بس ده ما يمنعش

إني عايز أسمع رأيك»

شعرت بالضيق من وصفه لي كـ«بتاع تشريح» ، أمكث في تلك الغرفة التي طُليت جدرانها باللون الأبيض في محاولة منهم لتقليل الكآبة لساعات ، كراسي معدنية ، مناضد معدنية ، ثلاجات كالأدراج تحوي جثثًا انتهينا من تشريحها ، كل هذا ليتم تلقيبي بـ«بتاع تشريح» ، لكني تناسيت ذلك الشعور بسخافة الاسم وقلت وأنا أدعو اللّٰه أن تنتهي هذه المناقشة سريعًا :

- «رأيي إنه الاتنين: حد بينتقم ، بس ده ما يمنعش إنه مريض نفسي برضو»

أومأ برأسه وهو يتأملها مرة أخرى ثم اتجه للباب دون أن يتكلم ، تابعته وهو يهم بفتح الباب ثم توقف فجأة والتفت إليَّ وهو عاقد الحاجبين وبدا عليه كأنما يفكر في قول شيء ما ، ثم فتح الباب بالفعل وغادر دون أن يقول أي شيء آخر ، تاركًا إيَّاي مع جثة الفتاة..

كنت أتمنى ألا أقولها ، لكني للأسف صرت أرى أن (سيف) صار ينتمي هو الآخر إلى عالم ذلك القاتل الذي كنا نتحدث عنه لتوِّنا..

صار مريضًا نفسيًّا..

❖ ❖ ❖

«وليد»

لا بد وأن (أدهم) معدوم الإحساس تمامًا كي لا يشعر بنظرات (كارما) له..

كان صوت مزاحنا عالٍ فعلًا ، من الجيد أنه لم يتحمس أحد الأساتذة المارين بالصدفةً حتى الآن ويطلب منَّا أن نتأدب قليلًا ونحترم حرم الجامعة ، ووسط كل هذا الصخب والضوضاء كانت عيونها العاشقة تكاد تحتضنان وجهه وهو جالس وسط الجمع دون أن يلتفت إليها أو حتى يلحظ وجودها..

(مي) تتحدث، تحكي عن موقف ما حدث معها ، ترى هل يرون مثلي أنه لا يخرج سوى التفاهات من ذلك الفم الجميل؟.. أعتقد أنه لا ، فالجميع ينظر إليها في فضول غير عادي في حين تكمل هي حديثها في اهتمام كما لو كانت تتحدث عن نهاية الكوكب، الكل، عدَايَ..

وعدا (كارما)..

تأملتُ عيونها السوداء الواسعة ووجهها الشبيه بشكل القلب والذي تشعر أنه يضيء من تلقاء نفسه وشعرها الأسود الطويل الذي تنسدل خصلاته الناعمة على وجهها ثم التفتُّ إلى (أدهم) وأنا أشعر بالغيظ يتملَّكني..

لماذا تعجب به فتاة مثلها؟ وأنا الذي صارت ملامح وجهها محفورة في ذهني وأكاد ألتهمها بعينيَّ لا تكاد حتى تشعر

بوجودي؟.. صحيح أنني لا أعرف عنها أي شيء سوى أنها معنا في نفس الجامعة وأنها تصغرني أنا و(أدهم) بعامين، مثلها مثل (مي)، وأننا وجدناها فجأة بيننا بعد أن أتت مرة مع إحدى زميلات (مي) ثم صارت تأتي بين المحاضرات لتقف معنا، إلا أنها -لسببٍ لا أعرفه سوى أنها جميلة- جعلتني أتلفت حولي دائمًا وأنا أجلس مع تلك المجموعة السخيفة في انتظار أن تأتي.. لم تكن تتحدث كثيرًا، كانت تكتفي بالوقوف والابتسام، والضحك أحيانًا، لم نسمع صوتها إلا نادرًا، إلا أنني لا أنكر أنها دخلت عقلي ولم تخرج منذ اليوم الأول لرؤيتي لها، صحيح أن مستوى الجمال في دفعتها مرتفع، من الممكن أنه لهذا السبب لم تلفت الأنظار إليها، إلا أنني أجدها جذابة جدًّا..

ثم تذكرتُ أنني أذوب عشقًا في أي أنثى أيًّا مَن كانت، فيما عدا السَّمِجات منهن، فأنا لا أسامح أبدًا في ثقل الظل، فأدرت بصري للجهة الأخرى وحاولت تناسي أنها هنا من الأساس..

تعالت أصوات ضحكاتهم مرة أخرى، لا بد وأن (مي) قالت شيئًا ما غير سمج على غير العادة.. تلك السخيفة صارت خفيفة الظل فجأة؟! يجب أن أبحث عن مجموعة أخرى أمضي معها وقت ما بين المحاضرات، وإلا سأضطر يومًا ما إلى أن أقول لها شيئًا على غرار «يا لسخافة والدتك» فيما يستمعون هم في استمتاع إلى ما تقول.. لا داعي لهذا، سأتركهم فحسب، هذا أقل الخسائر الممكنة..

نظر (أدهم) للناحية الأخرى وهو يبتسم فوقعت عيناه على (كارما) التي تنظر له، تلاقت عينيهما لثوانٍ دون أن تفارق

وجهه الابتسـامة، لمحت حاجبيها يرتفعان قليلًا وشعرت للحظة أنها توقفت عن التنفس ثم عاد حاجباها يهبطان وصدرها يتحرك وإن اختفى البريق فيهما بعد أن أدار (أدهم) رأسه مرة أخرى إلى (مي) دون أن يبدو عليه أنه رآها من الأساس..

ثم التفتت إليَّ..

شـعرت بالارتباك للحظة ثم ابتسـمتُ لها.. يبدو أن ابتسـامتي بدت مواسـية بشـكلٍ أو بآخـر؛ لأني لمحت الحـزن يتكون في عينيها، لا بد وأنها شعرت أنني لاحظت نظراتها لـ(أدهم).. شعرتُ بالاستياء من نفسي وقلت محاولًا أن أخفف عنها ولو قليلًا:

- «أنـا مـش مركز خالـص في اللـي بتقوله (مي)، سـاعات بتبقى سخيفة، مش كده؟»

ابتسمَت وإن احتفظت عينيها بنفس الحزن، فقلت بسرعة:

- «الحقيقة هي مش سـاعات، هي على طول سـخيفة، وهما مـا شـاء الله هُبل، بيضحكـوا على أي حاجة تقولها، تحسـيهم متخلفين شوية، صح؟»

ضحكـت هذه المرة بصوتٍ عالٍ نسـبيًا ووضعـت يدها على فمهـا، التفت إلينا الجميـع هذه المرة، يبـدو أن (مي) قد انتهت من ملحمتها «الأوديسـية» التي تحكي فيها عن صعوبة اختيارها للحـذاء الـذي يناسـب حقيبتهـا القرمزيـة، وقـال أحـد زملائنا الواقفين مازحًا:

- «فـي موضـوع تانـي هنا يا جماعـة، (كـارمـا) بتضحك مع (وليد)، لازم تحكي لنا يا عم (وليد) قلت إيه لـ(كـارما) عشـان

تضحك كدا؟ إحنا أول مرة نسمع صوتها»

نظرتُ لـ(كارما) التي احمر وجهها وبدا عليها الحرج ونظرَت نظرة جانبية إلى (أدهم) الذي كان يتابع ما يحدث دون اهتمام، ثم التفتُّ إلى زميلنا السخيف وقلت بهدوء محاولاً ألا تفضحني قدمي التي صرت أهزها الآن بشدة:

- «طبيعي إنها تضحك يا معلم، أصلي كنت بقول عليكم إنكم متخلفين»

احمر وجهه وقال بغضبٍ طفولي:

- «إيه متخلفين دي؟ إيه الهبل اللي بتقوله ده يا (وليد)؟»

نظرَت لها (مي) من أسفل إلى أعلى ثم التفتَت إلى (أدهم) الذي قال ببساطة:

- «زعلان ليه بس؟ أنا ساعات بحس فعلًا إننا متخلفين»

نظرت له (مي) في استنكار، التفتُّ إلى (كارما) فوجدتها تنظر له بامتنانٍ زائد عن الحد، يبدو أن العالم صار يدور حول (أدهم) الآن بشكل أو بآخر.. شعرت بغصة في حلقي، قامت (مي) واقفة وقالت وهي تنظر إلى (أدهم) في غضب:

- «طيب، بما إننا متخلفين بقى فأنا حمشي عشان ماتضطرش تقعد مع متخلفين.. سلام»

ثم نَظَرَت إلى (كارما) مرة أخرى من أسفل إلى أعلى وابتعدت في خطوات سريعة..

ظل (أدهم) يتابعها وبدا كأنما يهم بالمضي خلفها، مدت (كارما) يدها أمام عينيَّ الحاقدتين ووضعت يدها على رسغ

(أدهـم)، التفـت لهـا (أدهـم) والحيـرة بادية على وجهـه كأنما تركته أمه وحده في مكان لا يعرفه ورحلت، فقالت هي بصوتٍ رقيق والحب يقطر من كلماتها:

- «شكرا يا (أدهم)»

نظر لها (أدهم) للحظات دون أن يبدو عليه أنه سمعها، ثم قام بسرعة ليلحق بـ(مي)..

كان وجه (كارما) يشي بأنها موشكة على البكاء.. التفتُّ إلى صديقنا الذي كان لا يزال هناك، ينظر إلى (كارما) ووجهه تعلوه ابتسامة ساخرة، ثم التفتَ إليّ وفي عينيه نفس النظرة، ثم قام واتجه بعيدًا هو الآخر..

شعرتُ للحظة أنني لا أدري ماذا يجب عليَّ أن أفعل، اقتربت بجسدي من (كارما) وفتحت فمي لأقول أي شيء لكنها قامت فجأة واتجهت في خطوات سريعة نحو المدرج.. تابعتها ببصري ثم تذكرت فجأة أن محاضرتي بدأت منذ دقائق بالفعل فأخذت حقيبتي واتجهت إلى المدرج أنا الآخر في خطوات أقرب إلى العدْو..

فإن كان قد كتِب عليَّ أن أكون فاشلًا في علاقتي بالجنس الآخر، فعلى الأقل يجب أن أنجح في شيء..

أي شيء..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

- «أنا عايزه أتكلم النهارده شوية»

ظل يتطلع إليَّ بعدما قلتها بتلك الطريقة التي أشعر معها أن نظراته تخترقني.. كعادته كان يبدو هادئًا وإن كنت لاحظت أنه يفلت منه بين الحين والآخر نظرة خاطفة إلى جسدي.. لا أستغرب هذا كثيرًا، كونت فكرتي منذ فترة طويلة أن كل الرجال متحرشون حتى يثبت العكس، هو أثبت فقط أن القاعدة سارية ولم يكسرها هو على سبيل التغيير.. لكن ذلك لم يغير من الأمر في شيء.. أنا أريد أن أحكي له، حتى نظراته تلك لم تضايقني كثيرًا، بل أشعرتني بأنوثتي بشكل أو بآخر، أنا أنثى، أنا مرغوبة، تلك الغريزة للسعي نحو أن نبدو في أعين من حولنا أكثر جمالًا، ذلك الوازع الأبله الذي خُلِقَنا جميعًا كنساء لنجده جزء لا يتجزأ من وجداننا جعل نظرات مثل نظرات دكتور (حسين) تشعرني بالكمال، لا بالنقص..

قال وهو يعدل المنظار على أنفه ليبدو أكثر حكمة مما يبدو:

- «إيه بقى اللي انتِ عايزة تحكيه النهارده؟»

نظرت بتلقائية إلى لوحة تشريح الرأس البشري التي يعلقها على الحائط.. كانت جدران الغرفة المطلية باللون الأسود، الأثاث والأبواب تم اختيارهما بعناية بلونهما البندقي المتماثل..

أرضيــة الحجرة الرخاميــة ذات اللونين الأبيض والأســود كجلد النمــر أعطيا تبايــن رائع، أضف إلى هذا المكتبة الضخمة التي تقف راســخة خلــف مكتبه الــذي نجلس أمامه على كرســيين متقابليــن، والتــي ملأتها كتب زاهيــة الألــوان، مراجع تتحدث عن علم النفس بالتأكيد، وأضافت تلك الإضاءة غير المباشــرة والتي ترميها عدة أباجورات باللون الأسود أيضًا موزعة بعناية في عــدة أماكن حول الغرفة شــعورًا عجيبًا بالراحة، كأنك تود أن تظل هنا للأبد..

فقط لوحة التشريح هي ما لم يكن ينمتي لديكور المكان، لكــن لم يكن هذا الســبب في أنها جذبــت انتباهي.. أحيانًا أود أن يفعل أحدهم شيئًا كهذا، أن يأخذ رأسي ويشرحه ويريني ما بداخله..

التفــتُّ إليــه لأجد عينيه البُنِّيَّتيْن مثبتتيــن على قدمي اليمنى، لا بــد وأن خلخالي الجديد يعجبه، هو متحرش بالفعل وإن كان بالنظر فقط، تأملت ملامحه، وجهه المســتدير وبشــرته الوردية المشــربة بالحمرة، شعره الكســتنائي الناعم الذي لم يفعل فيه الشــيب فعلته رغم عمره الذي أعلم أنه يقترب من الخمسين على مــا أعتقد، حاجبيــه الكثَّيْــن وعينيه الضيقتين وذقنــه الخفيفة التــي تحــوي مناطــق لا ينمــو فيها الشــعر مــن الأســاس، ملامح طفوليــة إلى حدٍّ كبيــر، كان الچاكت القصيــر الذي يرتديه فوق البلوفر والقميص الذي ترك آخر زر فقط فيه لم يغلق جعلني أشــعر أن أمه هي من ألبســته صباحًا قبل أن ينزل من البيت كي لا يصاب بالبرد، هو طفلٌ كبيرٌ حقًّا، لكنه وسيم، مراهق ظل

عند عمر السادسة عشر ولم يغادره، رفع عينيه ونظر لي، لم يلحظ الأحمق أنني لاحظت نظراته، أحمق آخر، كل الرجال حمقى، وهذه هي نظريتي الثانية..

قلت له وأنا أنظر إليه مباشرة:

- «انتَ مش سألتني المرة اللي فاتت إن كان عندي علاقات جنسية ولا لأ؟»

لوهلة بدا عليه أنه فوجئ بما قلته ثم عاد الهدوء إلى وجهه ذو البشرة الحمراء قليلًا وقال:

- «جميل إن انتِ عايزة تحكي، اتفضلي يا (أروى)، أنا سامعك»

نظرت للأرض وأنا أحاول أن أرتب أفكاري ثم نظرت إليه مرة أخرى وقلت:

- «أنا عايزة أكلمك عن واحدة صاحبتي»

ضيَّق حدقتيه قليلًا كأنما فوجئ بحديثي عن فتاة وليس شاب مثلما توقع، صمتُّ لبعض الوقت وشعرت باستمتاع حقيقي وأنا أشاهد اللهفة التي يحاول أن يخفيها في عينيه، ثم قلت:

- «اسمها (بيري)، وآآآ أنا بحبها»

رفع حاجبيه ثم خفضهما بسرعة، كان يبدو على وجهه الإحباط، لكنه أخفى شعوره بسرعة ورفع يديه إلى رأسه لتتخلل أصابعه شعره وسأل:

- «وهي؟ بتحبك برضو؟»

أومأت برأسي دون أن أرد، نظرتُ مرة أخرى للوحة التشريح

ثم قلت دون أن أتلفت له:

- «بقالنا فترة كبيرة مع بعض، كنا صحاب في الأول وبعدين لقينا نفسنا بنتشد لبعض واحدة واحدة.. بس هي بتتنرفز عليا، وبتبقى عنيفة في أوقات كتير، بس أنا بحبها»

قلتها ثم التفتُّ إليه لأجد وجنتيه قد صارتا بلون الدم، لا بد وأنه يتخيلنا الآن أنا وهي في أوضاع مشينة، ظللت أنظر له وأنا أشعر باستمتاع غريب بكل تغير يعتريه، يا لكَ من مراهق كبير، مراهق يعرف كيف يسيطر على كلماته وأفعاله، لكنك لن تستطع أن تسيطر على وجهك الذي يفضحك.. عدل منظاره الأنيق فوق أنفه مرة ثانية، وقال بصوتٍ نجح في أن يجعله ثابتًا:

- «بتبقى عنيفة وبتتنرفز عليكي في العادي، ولا وانتوا، يعني آآآ مع بعض؟»

نظرت للسقف لأتركه يتأملني بحرية ثم نظرت إليه فجأة لعلي ألمح خائنة عينيه، لكنه كان لا يزال يتطلع إلى وجهي فقلت:

- «الاتنين»

مد يده وأمسك بنوتة صغيرة موضوعة على المكتب، ثم قال وهو يخط فيها شيئًا ما:

- «يعني انتِ الـ **safe target** ليها»

لم أفهم ما قاله، قطبت حاجبي ونظرت له متسائلة فقال ببطء، وكأنما قد راق له أن يلعب دور العالم ببواطن الأمور:

- «**Safe target** دي معناها حد في حياتك تقدري تطلعي

غضبك وكبتك عليه من غير ما تبقي خايفة إنه يزعل أو إنه يتغير معاكي، حاجة كده زي الـ **sand bag** بتاعة الملاكمة، مهما تضربي فيها حتفضل ترجع للوضع اللي كانت عليه، مش حتمشي، ومش حتزعل»

فكرت فيما يقول.. أنا بالفعل لم أفكر قط في الابتعاد عنها، لم أشعر حتى بالغضب منها، لسبب أو لآخر شعرت أنني أستحق ما تفعله بي، بل أحيانًا كنت أشعر بشيء من المتعة فيما تفعله..

- «أروى!»

أفقتُ على ندائه، لا بد وأنني غرقت في أفكاري، التفتُّ إليه فقال:

- «عايز أعرف سرحتي في إيه دلوقتي؟ إيه اللي انتِ كنت بتفكري فيه؟»

ترددت قليلًا ثم قلت:

- «ساعات بحس إني أستاهل كل اللي هي بتعمله فيا»

ظللت أنظر في عينيه دون ان أدير بصري عنه، ظل متماسكًا.. ثم رأيت وجنتيه يصطبغان بالأحمر الداكن وأدار عينيه فجأة إلى النوتة الصغيرة كأنما يقرأ ما بها، ابتسمت، لماذا أفوز دائمًا في اختبار قوة العينين هذا؟ قال دون أن ينظر إليَّ:

- «(أروى)، أنا مش حقدر ألومك ولو حاجة بسيطة على اللي انتِ حاساه ده، لو أنا مكانك كنت حسيت بكده برضو»

شعرتُ بالدم يصعد إلى رأسي.. ما هذا الغباء؟ قلت له بعصبية:

- «مش حتقدر تلومني؟ انتَ مين أصلًا عشان تلومني؟ ثم أنهي

إحساس ده اللي حتحسه لو انتَ مكاني؟ مكاني إزاي؟»

لا بد وأن عيناي كانتا تشتعلان؛ لأني لاحظت شرخ في جدار تماسكه، تتحنح وقال:

- «أنا قصدي بس إن...»

قاطعْتُه بعصبية أكبر:

- «انتَ عمرك ما حتبقى مكاني!»

ثم الْتقطتُّ حقيبتي في عصبية وأخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة بيدٍ مرتجفة من شدة العصبية وأخذت منها نفسًا عميقًا كنت أحتاجه بشدة وأغمضت عيني وأنا أشعر بالدخان يتسلل إلى كل خلية من خلاياي ثم فتحت عينيَّ لأجده ينتظرني حتى أنتهي فشعرت بالعصبية تعتريني بشكل أكبر وقلت له بصوتٍ عالٍ:

- «انتَ أصلًا تعرف إيه عني غير اللي بحكيهولك؟ مش ممكن كل اللي بحكيه ده يبقى بلح؟ ما يكونش حقيقي أصلًا؟»

شعرتُ بالتردد في عينيه، كأنما يريد أن يقول شيئًا ما ولا يدري إن كان من الصواب أن يقوله أم لا، ثم قال أخيرًا بصوته الهادئ الذي بدأ يستفزني:

- « إن اسمك مش (أروى)، وإن صاحبتك ماسمهاش (بيري)»

أجفلت.. كيف عرف؟ ثم خمنت أن هناك شخص ما يعرفني ويعرفه في الوقت نفسه فتضاعفت عصبيتي وقلت:

- «انتَ عرفت منين؟ ها، مين اللي قالك؟»

ظل ينظر لي بهدوئه المستفز ثم قال بصوته الهادئ الأكثر استفزازًا:

- «أنا خمنت، والحمد لله، تخميني طلع في محله»

نظرت إليه في شكٍّ وأنا أحاول سبْر أغواره، يبدو أنني قد تعاملت معه باستخفاف أكثر من اللزوم.. قال وكأنما لا يريد أن يفقد مبادرة الهجوم الآن:

- «انتِ الموضوع ده ابتدى معاكي من امتى؟ امتى حسيتي أول مرة إنك ممكن تتشدي لواحدة؟»

قلت وأنا أحاول أن أتذكر وقد أخافني أنه أذهَب عصبيتي في لحظة بجعل عقلي يحاول أن يبحث عن المعلومة في ثناياه:

- «مش فاكرة، كان في واحدة صاحبتي و... لأ، مش فاكرة»

قال دون أن يترك لي مساحة للتفكير:

- «حرجع تاني أسألك عن علاقتك بأمك»

لم أرد.. أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة حتى شعرت أنني سأنهيها كلها في هذا النفَس فقط وشعرت بألم في صدري فسعلت بشدة، انتظر هو حتى انتهيت ثم قال لي كأنما لم يكن ينتظر مني إجابة من الأساس:

- «(أروى)، أو whatever انتِ اسمك إيه، انتِ طول عمرك، من وانتِ صغيرة، كنتي دايمًا حاسة إن مافيش حد بيقدرك في البيت، كل اللي بيعملوه إنهم يضغطوا عليكي، يعاملوكي وحش، بالذات أمك، بس من غير اهتمام، زي ما يكونوا

بينكدوا عليكي لما يكونوا فاضيين. حتى أبوكي زي ما اتفقنا المرة اللي فاتت إنه ماكانش بيدافع عنك، ماكانش شايفك أصلًا أو حاسس بوجودك. وفي وقت ما انتِ كنتي حاسة إنك بتكبري، بتسيبي الطفولة وتروحي للمراهقة، انتِ كنتي برضو لوحدك.. ابتديتي تدخلي في علاقات، مش بس عشان تحسي إنك كبرتي، لأ، عشان إنك عندك أمل إنك بالطريقة دي، حتوصلي لوضع حتحسي فيه بالتقدير وإنك في وسط مركز انتباه أي حد، تحسي بالإهتمام، حتى لو الاهتمام ده كان من واحدة، أو بالذات لو كان من واحدة، عشان ساعتها حتحسي إنها مكان أمك، اللي ماعملتش كده معاكي في وقت ما كنتي محتاجاها إنها تعمل كده، وعشان كان كل اللي بتعمله أمك إنها تضغط عليكي نفسيًّا، اتكون عندك شعور إن هو ده اللي انتِ تستاهليه، أكيد هي بتعمل كده عشان مصلحتي، أكيد ما بتكرهنيش.. وعشان انتِ جواكي حاسة إنك بتعملي حاجة غلط، حاسة إن صاحبتك لما بتبقى عنيفة معاكي أو تزعقلك فهي كده بتديكي العقاب اللي انتِ تستاهليه، فبتحسي إنك أريح، على الأقل بتعاقبي نفسك بوجودك معاها.. علاقة متكاملة.. بتكلم صح ولا بلح زي ما بتحبي تقولي؟»

تبًا، تبًّا.. لا أحب أن أتعرى أمام شخص ما بهذا الشكل.. ما يقوله كان وصفًا دقيقًا لكل ما حدث ويحدث معي.. أومأت برأسي معلنةً أن ما يقوله صحيح، قال دون أن يمنحني فرصة ليعمل عقلي:

- «وأبوكي؟»

تذكرت تلك الفترة السيئة في حياتي فقطبت حاجبي وشعرت

بضربات قلبي تزداد وقلت:

- «ده بقى اللي كان بلح بجد، ماكنتش بشوفه، في الشغل، على طول برة، بييجي بالليل، ماكونتش بشوف غيرها تقريبًا، وكانت مكرهاني في عيشتي زي ما انت بتقول بالضبط»

غرقت في ذكريات لم أكن أريد أن أتذكرها من الأساس..

- «(أروى)!»

التفتُّ إليه ونظرت له في حدَّة، يبدو أن نظراتي كانت قاسية؛ لأنه بدا مهزوزًا لوهلة ثم قال بسرعة:

- «غريبة إنك ما اتكلمتيش عن الأحلام المرة دي»

سرني أنه غيَّر دفة الحديث فقلت وأنا أشعل سيجارة أخرى:

- «نفس الحلم اتكرر من كام يوم، وبقالي يومين ما بحلمش»

أومأ برأسه متفهمًا رغم أني لا أعرف ما الذي فهمه بالضبط من توقف أحلامي في تلك الفترة، راقبته فقال فجأة كأنما قد تذكر شيئًا ما لتوِّه:

- «هو ده كل اللي كنتي عايزة تحكيهولي، ولا في حاجة تانية»

نظرت إليه باستغراب، إما أنني كنت غبية عندما ظننت أنني أستطيع أن أخفي مشاعري عمَّن حولي، أو إنه فعلًا يعرف ما يفعله جيدًا.. قال بعد أن طال صمتي:

- «(أروى)، في إيه؟»

قلت ما جئت اليوم لأقوله بالذات بعد أن كنت قد صرفت النظر عن أن أحكيه عندما تحدثنا عني:

- «في واحدة صاحبتي ماتت»

قال بسرعة:

- «ماتت؟»

ترددت قليلًا ثم قلت ما كنت أخشى أن أقوله منذ أتيت:

- «اتقتلت»

ظل ينظر إليَّ دون أن يبدو عليه أنه قد تأثر.. تبًّا لك، أنا أخبرك أن صديقتي قد قُتلت، فتنظر إليَّ بهذه النظرة المتخلفة؟ سألني بنفس الصوت الرتيب:

- «اسمها إيه صاحبتك؟»

ترددت ثم قلت له بعصبية:

- «(سارة)، اسمها (سارة)»

قال على الفور:

- «صاحبتك زي (بيري) كده؟»

كان مخي الآن يعمل بسرعته القصوى.. هل أخبره الآن؟ ثم قلت وقد فكرت ألَّا أخبره بمعلومة أخرى اليوم:

- «لأ، دي حاجة تانية، أعرفها من زمان»

ظل ينظر لي، لماذا أشعر في عينيه بشكٍّ مما أقوله له؟ شعرت بعصبيتي تزداد وأطفأت السيجارة بعنف في المطفأة وأخذت واحدة أخرى لأشعلها فقال:

- «أنا آسف إنها ماتت»

صِحتُ فيه وقد شعرت بالكلمة تضغط على أعصابي وتحيل

ما بقي من سلامي النفسي -إذا كان عندي واحدًا من الأساس- إلى جحيم مستعِر:

- «بقولك اتقتلت!»

قال على الفور وهو يرفع يديه معتذرًا:

- «انتِ اتعصبتي ليه؟ أنا آسف، أكيد مش قصدي أزعلك»

قلت وأنا ألتقط حقيبتي:

- «أنا لازم أمشي»

- «بس احنا ما كملناش»

- «أنا لازم أمشي!»

لم يرد بعد أن قلت الجملة الأخيرة بعصبية شديدة، شعرت بيدي ترتجف فالتقطت حقيبتي وقمت واقفة واتجهت إلى الباب في خطوات سريعة وأنا أشعر بجدران المكان تجثم على صدري وتمنع عني الهواء..

- «انتِ مش حتقوليلي اسمك على الأقل؟»

توقفت وأنا أشعر بالتردد فعلًا، هل أخبره الآن؟ كل خيار يشعرني بضغط نفسي هائل، لماذا يجب علي أن أختار من الأساس؟ فليحدث ما يحدث، سئمتُ من كل هذا التفكير الذي لا يفضي لشيء.. هممت بفتح الباب والخروج تاركة إياه دون أن يتلقى ردًّا إلا أنني وجدتني أقول فجأة كأنما أزيح حملًا عن كاهلي:

- «(ليلى)»

ثم غادرت مسرعة وأغلقت الباب خلفي في عنف..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

لم أكن أستمع لما يقوله (وليد) من الأساس..

خمسة أيام كاملة مرت ولم ترد على مكالماتي.. هي حتى لم تأتِ إلى الجامعة، ولم تظهر في النادي في السابعة مساءً كعادتها كل يوم..

خمسة أيام ولم أرها..

هل تشك فعلًا في أنني قد قتلت (سارة)؟

ردود فعلي كانت سيئة، كنت شديد الغباء يومها وفقدت قدرتي تمامًا على التركيز بعد ذكرها لـ(سارة).

- «وطبعًا مش حينفع تسأل أمها أو تروح لهم البيت مثلًا»

التفتُّ إلى (وليد) بعد أن نجحت جملته الأخيرة في أن تنتزعني قليلًا من أفكاري التي غرقت فيها.. هززت رأسي وأنا شارد الذهن ولم أرد.. سرحت قليلًا في المياه التي تتدفق من النافورة التي نجلس أمامها على أحد المصاطب الرخامية التي تحيط بها والتي بنيت خصيصًا لرواد السينما التي تقع أمامها. نـأتِ أنا و(وليد) لنجلس هنا بين الحين والآخر، حتى لو لم نكن ننوي أن ندخل السينما، الإضاءة الخافتة وصوت تدفق مياه النافورة كافيان تمامًا لبعث ولو القليل من الراحة النفسية التي أفتقدها بعنف..

- «ماشي، زي القمر وجميلة ورقيقة وكل الهبل اللي انتَ بتقوله ده، بس أنا مابتنزليش الحقيقة، دمها واقف قوي، وأمها

بقى دمها خفيف فشخ هي كمان، زيبق مش دم»

ابتسمتُ ابتسامة واهنة ولم أرد، لسببٍ ما لم أستطع طوال عمري أن أشعر بالضيق من أي شيء يقوله (وليد)، حتى لو كان على (مي)، أشعر كثيرًا بصدق ما يقول أيًّا كان، كما أحتاج من وقت لآخر إلى مرآة أرى فيها نفسي وأعرف إن كنت أتصرف بعقلي أم بقلبي، وعادةً أتصرف بشكل خاطئ في الحالتين.. لكن ذكره لأم (مي) أعاد إليَّ شرود ذهني مرة أخرى..

ترى ماذا قالت عني تلك اللعينة يومها بعد أن تركتهم مع (كريم)؟ هي تكرهني لسبب لا أعلمه، ثم إن لديها من الذكاء ما يجعلها تشعر بالتوتر الحادث بيننا لحظتها، لا بد وأن (مي) قد خضعت لجلسة استجواب يومها شبيهة بتلك التي تحدث في أفلام الجاسوسية، ثم لماذا تحتاج إلى الاستجواب من الأساس؟ أنا واثق تمامًا أن (مي) تحكي لها كل شيء بأريحية تامة، يكفي أن تقول لها «مالك؟» لتحكي لها عمَّا حدث بيننا، ناهيك عن إخبارها بعدد المرات التي أمسكت فيها بيدها!

- «بص بقى يا معلم، أنا عارف إن انتَ فنان وكدا وحتحب الأفكار التافهة دي.. بص، انتَ تروح عند أي واحد بتاع ورد، تزوق العربية، وتروح لها تحت البلكونة بتاعتها، وتـ...».

قطع كلامه فجأة وهو يتطلع بعينين جاحظتين إلى شيء ما خلفي، قطبت حاجبي والتفتُّ بسرعة أنا الآخر..

وتوقف قلبي للحظة..

كانوا على الجهة الأخرى من النافورة، لكني لاحظتهم

كما لاحظهم (وليد)، كان يمشي عن يسارها بينما تمشي أمها على الجهة الأخرى، وكان ممسكًا بيدها ويتجهون إلى السينما التي على يميننا أمام النافورة التي نجلس أمامها..

(مي) و(كريم) وأمها..

لم أفهم المشهد في البداية، ظننت أنني أتوهم، أن هذا لا يحدث، أردت أن أركض لأسألها، أن أجذبها من شعرها لتفسر لي ذلك المشهد الذي أراه، لكنني فقط تسمرت مكاني ولم أفعل أي شيء.. أفاقني أخيرًا صوت (وليد) وهو يصيح:

- «إيه الهبل ده؟ انتَ شايف؟ ده ماسك إيديها وأمها ماشية جنبهم، هو في إيه؟ إيه ولاد الو......ة دول؟»

لم أرد، كنتُ غارقًا في أفكاري السوداء، أتخيلني أقتلها بطرق شتَّى، أراني وأنا أعذبهم كما لم يُعَذَّب أحد من قبل..

- «هي عشان كدا ماكانتش بترد عليك في التليفون؟ يكونوش اتخط...؟»

لم يكمل الجملة، اندفع إلى حيث اختفوا داخل السينما تاركًا إيَّاي لا أعرف ماذا أفعل..

صداع غريب شعرت به يكاد يمزق رأسي..

ماذا يحدث؟

- «أهو (كريم) يا (أدهم)، بيقول إنه ماشافناش واحنا قاعدين هنا وجبته مخصوص عشان يسلم عليك»

أخرجني صوت (وليد) من شرودي فالتفت إليه ورأيت (كريم) يقف بجانبه.. كان الصداع يسيطر على كياني كله،

الألم الذي أشعر به جعلني أتصور أنني لست هنا ، (كريم) ليس هنـا ، (وليـد) هو الآخـر ، (مي) ، أمها ، كل هـذا لا يحدث، هو كابوس فحسـب، سـأفيق منه على صوتها الرقيق وهي تخبرني أنها تحبني..

لكن ملامح وجه (كريم) كانت تقول غير ذلك..

ولأول مرة منذ أن عرفته، اختفت الابتسـامة السمجة من على وجهه وحل محلها نظرة توتر..

توتر لم أره في عينيه من قبل..

والأدهى أنه كان يتصبب عرقًا..

رفع يدًا مرتجفة مررها على شعره وقال بصوت مهزوز:

- «آآآ إزيك يا (أدهم)، أنا فعلًا ماخدتش بالي إنكم قاعدين هنـا ، فرصـة إنكم تبقوا أول نـاس تعرفوا.. أنا و(مـي) اتخطبنا امبـارح، يعني، قراية فاتحة بـس دلوقتي لغاية ما نخلص كلية ، معلـش ماجتش فرصة عشـان نعزمكم، الموضوع حصل امبارح فـي الڤيـلا عندهـم وماحـدش كان موجـود غير أهلنا ولسـا ما قلناش لحد»

نظر (وليد) لي، ثم التفتُّ إليه وقال بصوتٍ حاد:

- «نعم يا روح أمك؟»

- «إيه يا (وليد) اللي بتقوله ده؟ ده بدل ما تقولي مبروك؟»

اقترب منه (وليد) ومدَّ يده وأمسـكه من ياقة قميصه، وقال واللعاب يتطاير من فمه ليرتطم بوجه (كريم):

- «مبروك مين يا روح أمك؟ مبروك ده اللي بيـ....»

قلتُ مقاطعًا إيَّاه وأنا أشعر بالصداع يكاد يفتك بجمجمتي:

- «سيبه يمشي يا (وليد)»

نظر لي (وليد) غير مصدقًا لما قلته ولم يترك ياقة قميصه، حاول (كريم) أن يفلت ياقته من يدَي (وليد) إلا أن خوفه البادي وارتعاد يديه حالا بينه وبين أن يقدر على ذلك، كنت أشعر بأن دماغي سينفجر، لا أريد أن أراه أمامي، لا أريد أن أعرف ماذا حدث من الأساس، قلت:

- «امشي يا (كريم)، روح لهم، هم أكيد مستنيينك»

وكأنما أنقذَته كلماتي مما يشعر به الآن، أفلت (وليد) ياقته، فرفع يديه ليعدل من هندامه ثم نظر لنا في كرهٍ واندفع في خطوات هي أقرب إلى العدْو نحو السينما..

- «انت سيبته يمشي؟ ده كان لازم يتضرب علقة عشان يعرف إن اللّه حق»

ضغطت بيدي اليمنى على رأسي وأغمضت عينيّ والألم يعتريني.. أريده أن يتوقف عن الكلام.. رن هاتف (وليد) لحظتها ليزيل عني الحرج، أخرج هاتفه ورد كما لو كان يفرغ عصبيته في الطالب:

- «أيوا يا (إيهاب)، إيه عايز إيه؟ مافيش، بقولك مافيش، خارجين؟ مين اللي جاية، لا ماشي، أنا جي أنا و(أدهم)، سلام»

كنت استمع لما يقوله (وليد) وعقلي يرفض استيعاب الكلمات، أي كلمات، هل يريدني بالفعل أن أذهب إلى مكان ما الآن؟.. لكنني لم أقل شيء، الألم الذي أشعر به في رأسي

يمنعني من التفكير من الأساس، أنهى (وليد) المكالمة ثم التفت إليَّ وزفر وقال :

- «ده (إيهاب)، (إيهاب) الجيتاريست، عايزنا نقابله، لما قلت له إنك معايا قالي هاته وش عشان في مفاجأة، يلَّا ولا إيه»

لم أرد، اقترب هو مني وقال بعصبية:

- «انت حتفضل سلبي كده لغاية امتى؟ حتى لو كنتم مش مخطوبين، انتم المفروض كنتم بتحبوا بعض، زعق، اتخانق، اخبط إيدك في الحيطة، هاتها من شعرها، اعمل أي حاجة بدل مانت قاعد ماسك دماغك زي خيبتها كده»

لم أرد أيضًا، هو لا يعرف ما أشعر به الآن، فقط لا يعرف، وإن كان معه حق في كل ما قاله..

وكأنما شعر بقسوة كلماته، اقترب مني ووضع يده على كتفي وقال بصوت خافت:

- «أنا آسف يا (أدهم)، أنا عارف إنك حتحمل نفسك ذنب أكتر من الحقيقي، فعايزك تطلع اللي جواك ده عاللي يستاهل، مش تكتمه جواك زي ما بتعمل دايمًا.. (كريم) اللي عمل كده وهو عارف إنك بتحبها، و(مي) اللي كل الفترة دي كانت بتسلي وقتها معاك لغاية ما يجيلها عريس جاهز زي (كريم)، وأمها اللي أنا واثق إنها العقل المدبر للخطوبة دي، وعارف يا (أدهم)، غلطتك إنك اعتبرت إن ده حب من الأساس.. (أدهم) انت كنت بتحاول تنسى (سارة) بـ(مي)، مع إني متأكد إن لا ده كان حب، ولا ده كان حب»

شعرت بقشعريرة غريبة تنتابني عند ذكره لـ(سارة)، لكن ما أشعر به من صداع أنقذني من التفكير فيها ثانية..

- «(أدهم)، تعالا معايا دلوقتي، الخروجة دي حتنسيك كل الهبل ده، ما تبصليش كده، أيوا ده هبل وكنت بتشتغل نفسك.. يلا، (إيهاب) ده مسخرة السنين أصلًا، ده كان بيفشخني ضحك أيام الامتحانات، تعالا نقعد معاه، قعدته حلوة وحينسيك المزة، على الأقل النهارده»

لم أرد أيضًا، لا يمكن أن يفهمني، (مي) لم تكن «مزة» فحسب، هناك أشياء لا يمكن التعبير عنها بكلمات، أشياء غير مادية ستحولها للمادية بتحويلها لشيء ملموس.. أنا أتفه إنسان على وجه الأرض، ليس كما يقول هو، كل هذا حدث بسببي، (مي) تركتني لأني لا أستحقها، وأمها لديها كل الحق في أن تخاف على ابنتها من شخص مثلي، و(كريم)، أنا لم أفعل ما يبقي (مي) بجانبي، فلماذا ينتظر هو حتى تذهب لآخر غيري وغيره؟.. ذلك الصداع الذي يكاد يمزق جمجمتي الآن صار فوق احتمالي.. تركت (وليد) يسوقني من يدي وهو يقول:

- «يلا بس، ونشوف مفاجأة إيه اللي محضرها لنا دي، انتَ مش حتعرف تسوق كدا، يلا بدل ما نلبس في حاجة، مش حيبقى فركشة وخراب ديار، أنا معايا أوفر، حطلب أوبر، بلاش (كريم) أحسن تزعل»

سرت معه بلا مقاومة، المهم أن يتوقف عن الكلام..

لا أريد أي شيء الآن سوى أن يذهب هذا الشعور..

شعور أن كل هذا كان بسببي..

كم أكره هذا الشعور، كما أكره من رسَّخه في داخلي منذ أن كنت طفلًا حتى صرت مسؤولًا عن أي شيء حدث، حتى لو لم أكن هناك..

حتى لو لم يكن لي أي صلة به..

أين أنت الآن من كل هذا؟..

أين أنت؟..

❖ ❖ ❖

«وليد»

كان المكان مزدحم تمامًا عندما وصلنا..

الإضاءة الخافتة والموسيقى التي تشعر أنها تنبعث من كل مكان جعلتني أشعر براحة نفسية لم أشعر بها منذ فترة، وبالطبع يوجد فتيات، الكثير منهن في الواقع، لذا قررت أن هذا المكان هو الأجمل على الإطلاق على هذا الكوكب، ولسوف أحطمن رأس مَن يرى عكس ذلك..

يجب أن أعترف أن هذه إحدى نقاط ضعفي التي ستودي بي يومًا ما.. إذا قالت إحداهن «صباح الخير» سأقول لها على الفور، بلا تردد، وبكل أريحية «وأنا كمان بحبك»..

تلفت حولي في محاولة للبحث عن (إيهاب)، وإن كنت في الحقيقة أملي عينيَّ من هؤلاء الجميلات المنتشرات في كل مكان.. (أدهم) شارد الذهن تمامًا، يبدو أن ما حدث مع (مي) قد جرحه بالفعل، سينسى، آجلًا أم عاجلًا سيفعل، (أدهم) كتوم بطبعه، لكنه كان يتحدث كثيرًا عن (مي) في الآونة الأخيرة، معي أنا بالذات بصفتنا أصدقاء، لكن في الطبيعي لم يكن يتحدث تقريبًا، لذا لم أكن أشعر بغرابة شديدة لكونه صامتًا الآن، فلتذهب (مي) إلى الجحيم، على الأقل عاد (أدهم) إلى ما كان عليه قبل أن يقابلها..

أنا أعلم أن ما كان بينهما ليس حبًّا، لم يكن سوى ناقوس

يـدق ليشـعرك أن لـك قلـب تنبـض، أن هناك شـيء مـا هنا بين الضلـوع له وظيفة أخرى غير ضخ الـدم والإصابة بالجلطات، ثم تنتهي علاقتك بذلك الشـخص وتتزوج بآخر فيتبدد لديك شـعور الحـب من الأسـاس.. رأيـت هذا مع أبـي وأمي، أختـي وزوجها، وكل مـن أعرفهـم تقريبًـا.. كان يجـب على (مـي) و(أدهم) أن يتزوجا، عندما تشـعر أنك تحب شـخص ما تزوجـه على الفور، فتلك هي الطريقة الوحيدة كي تتوقف عن حبه!..

لمحـتُ أخيرًا يد تشـاور لي وسـط الزحام ولمحـت (إيهاب)، فدفعت (أدهم) دفعًا نحو المنضدة التي يجلس عليها.

- «في waiting list يا فندم، ممكـن حضرتك تسـيب اسمك وتتفضل تستنى لغاية ما..»

قاطعه (إيهاب) بصوتٍ عال:

- «اخلع يا سخيف، معايا الناس دول، روح ظيط على حد تاني اللّه يكرمك»

ابتسـم النـادل ابتسـامة صفـراء ونظر لنـا، بادلته بابتسـامة سـاخرة تحمل الكثيـر من (مؤخرتك حمراء تمامًـا)، ثم اتجهنا نحـو (إيهـاب) الذي وقف فاتحًا ذراعيه بمبالغـة كعادته، ثم مدَّ يـده إلى (أدهم) الذي كان مـن الواضح أنه في مكان آخر الآن يتخيل (مي) في أحضان (كريم)..

- «(أدهم)، (إيهاب)، انتوا شفتوا بعض قبل كده تقريبًا»

- «مرة واحدة حسـب ما أنا فاكر، بس الباشـا صيته مسمع من غير ما أقابله حتى، ده أحسن بيانيست في اسكندرية»

مد (أدهم) يده ليمسك برأسه ويغمض عينيه، نظر له (إيهاب) باستغراب، ثم التفت لي وقال:

- «دي حركات عشان الشهرة دي ولا إيه؟»

خبطت على كتف (إيهاب) وقلت وأنا أنظر إلى (أدهم) محاولًا إعادته إلى أرض الواقع:

- «(أدهم) عنده صداع من الصبح، هو لما يركز في المزز اللي حوالينا بس الصداع حيروح بإذن اللّه»

ضحك (إيهاب) في سخرية ثم أشار لما خلفنا وقال:

- «وعلى ذكر المزز، آدي أمز واحدة في العالم جاية أهي عشان تقعد معانا»

التفتُّ على الفور حتى كادت رقبتي تنخلع من مكانها ثم رأيت أنه لم يجانبه الصواب بالتأكيد عندما لقبها بالمزة..

خمرية البشرة كانت، شعر أسود فاحم قصير جدًّا، لكنك لا يمكنك أن تخطئ وتحسب أنها ذكر، لا، بل زادتها طريقة قص شعرها الذكوري تلك أنوثة إلى أنوثتها وأظهرت جمال وجهها الذي يماثل شكل القلب.. كانت ترتدي جاكت جلدي أسود مما يرتديه سائقي الدراجات النارية، وبنطال جينز ضيق للغاية، وبوت طويل يصل إلى ما فوق ركبتيها، وكانت تقترب منّا في خطوات عملية سريعة، وإن كان جسدها الرياضي يتمايل من تلقاء نفسه دون أن تبذل هي أي مجهود.. وما أن وصلت حتى وقف (إيهاب) فاتحًا ذراعيه فعانقته عناقًا طويلًا، يبدو أنهما متحابين، إذَن فلماذا يلقبها (إيهاب) بالمزة؟ ألا يحترم

فتاته قليلًا؟.. لا أفهم شيئًا، تلفتُّ حولي كي أرى إن كان هناك من شعر بغرابة الموقف، لا، كلٌّ في دنياه، ألم أقل لكم أنه مكان ظريف؟.. كنت أود أن تكون معي الآن صديقة لأعانقها ها هنا بما أن المكان يسمح بهذا بل ويرحب به على ما أعتقد، إلا أنه كما تعرفون، ليس لدي واحدة، لكنني على أمل أن أخرج بواحدة من هذا المكان الليلة بإذن اللّه!..

انتهيَا أخيرًا من المعانقة وكثير من الـ (عاملة إيه، واحشني، ...) والتفتوا إلينا وقال (إيهاب) بحماس لا أدري سببه:

- «أعرَّفكم، (ياسمين لطفي)، أحسن ڤوكال في اسكندرية تقريبًا، وبتعزف جيتار زي حالاتي، بس أحسن مني طبعًا، هي اللي عاملة الباند اللي بنعزف مع بعض فيه، (وليد سليمان)، مش بتاع الأهلي، **he's an old friend**، و(أدهم الكحكي)، دكتور وأحسن بيانيست في اسكندرية، تخيلي؟»

مددت يدي إلى (ياسمين) لكنها مدت يدها إلى (أدهم) الذي كان ينظر إليها بنظرة خاوية، سأقلل من نزولي معه في وجود فتيات إذا استمر الأمر هكذا، مد هو يده وسلم عليها، قالت بحماس هي الأخرى:

- «أهلًا يا دكتور، سمعت عنك طبعًا، أي حد في الـ **field** ده سمع عنك»

ظللت واقفًا ويدي ممدودة للأمام كالأبله في انتظار أن تنتهي من الْتهامها لـ(أدهم) وتلتفت إلى العبد الفقير إلى اللّه، التفتت

إليّ أخيرًا وسـلمت عليَّ دون أن تقول أي شـيء، بل اكتفت بهزة من رأسـها، يبدو أنني لا أسـتحق أكثر من هذا من فاتنة مثلها.. تأملت عينيها العسليتين اللتان يحيط بهما كحل كثيف واللتان تعكسـان بريق الأضـواء الخافتـة للمكان فيجعلهـا تضـيء من تلقاء نفسـها، ثم تركت يدها كارهًـا ونظرت إلى (إيهاب) وأنا أحـاول فهم كيف تكون هذه الجميلـة صديقة هذا التافه الذي أعرفه..

جلسـت هـي برشـاقة ووضعـت سـاقًا فـوق الأخـرى، وقالت لـ(أدهم):

- «إيـه يا دكتـور، ما بتفكرش ترجع تعزف تاني؟ أنا كنت سمعت إنك بطلت من فترة»

- «إيـه يـا دكتور؟ محسسـاني إن عندك كشـف، طمني يا دكتور، عندها إيه؟»

ضحكـتُ، وابتسـم (أدهم) فقـط، في حين نظـرت هي في غضب إلى (إيهاب) وقالت بصوتٍ عالٍ وبعصبية شديدة:

- «نبطل سخافة قُلنا»

رفع (إيهاب) يده معتذرًا وإن لم تفارق وجهه الابتسامة، علاقة غريبـة فعـلًا! ظلت تنظر لـه لثوانٍ في غضب ثـم التفتت لـ(أدهم) وقالت بهدوء وبنفس الابتسـامة السـابقة كأنما لم تنهر (إيهاب) منذ ثوانٍ:

- «المزيـكا دي في الـدم، ما ينفعش تبقـى بتعزف أو بتغني وتبطل وتقول مش حالعب تاني»

أمالَ (أدهم) رأسـه وأسندها على أطراف أصابع يده وأغمض عينيـه فـي ألم لثوانٍ، ثم قال لـ(ياسـمين) التـي كانت تنظر إليه باستغراب:

- «يعنـي، أنـا فجـأة لقيتني مش طايـق ألمس صوابـع البيانو حتى، مش عارف، ممكن شوية وأرجع، ممكن لأ، مش عارف فعلًا»

نظرت (ياسمين) لـ(إيهاب) ثم إلى (أدهم) مرة أخرى وقالت:

- «انتَ كويس؟»

ابتسم (أدهم) ابتسامة خفيفة وأومأ برأسه دون أن يعدلها، ثم اعتدل فجأة ونظر في سـاعته والتفـتَ إليَّ وفتح فمه كأنما يهم بقـول شـيء ما.. توقعت بالطبع إنه سـيقول أنه سـيرحل الآن.. لن أغادر هذا المكان وتلك المنضدة التي تجلس عليها تلك الفاتنة وأرحل.. سـأخرج بفتاة من هنا، هذا قرار قد اتخذته ولن أتراجع عنه..

- «أنا عايزاك معايا في الباند»

التفـتَ لهـا (أدهم) ولم يـرد.. ظلـوا ينظرون لبعضهـم البعض لوهلة فقال (إيهاب) ضاحكًا:

- «السكوت علامة الرضا، يبقى نقول ألف مبروك»

رمقتـه (ياسـمين) بنظـرة نارية فمط شـفتيه وأشـار بسـبابته وإبهامـه كنايـة عـن أن فمه قـد أُغلِـق، التفتت هي مـرة أخرى إلـى (أدهـم) الـذي كان ينظر إلـى الجانب الآخـر دون أن ينظر لشـيء معيـن وكان مقطبًـا حاجبيـه والحـزن بـادٍ علـى وجهه،

مطَّت (ياسمين) شفتيها وهي تنظر إليه في استغراب، ثم رفعت حاجبيها وقالت:

- «انتَ في حاجة مضايقاك؟»

رفع (أدهم) عينيه إليها وظل ينظر إليها لوهلة ثم قال بصوت خافت:

- «الموضوع مش زي ما انتِ فاهمة»

رفعت حاجبيها أكثر ثم خفضتهما ومطَّت زاوية فمها وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

- «طب فهمني، أنا ماورابيش حاجة»

دخلوا في حوار بيزنطي عن الموسيقى لم أهتم به كثيرًا، (أدهم) يتحاشى أن يقول السبب الحقيقي لتركه للعزف ويرد بإجابات ليست ذات معنى، التفتُّ إلى (إيهاب) الذي كان يتابع ما يقولون بابتسامة بلهاء، لكزْتُه في كتفه فتأوَّه ونظرَ لي في استغراب، أشرت إليه أن يقترب ثم سألته:

- «هي الأستاذة اللي زي القمر دي تبعك؟»

ضحك في سخرية بصوتٍ عال ثم هز رأسه وقال:

- «لأ، إحنا مع بعض في الباند، بس خلاص»

شعرت بشيءٍ من الأمل فيما يقول فنظرت نظرة جانبية إلى (ياسمين) وقلت:

- «طب إيه؟»

ضحك بسخرية أكبر وقال:

- «لا ، دي ما تنفعكش دي يا معلم»

- «وماتنفعنيش ليه بروح أمك؟»

ربَت علي كتفي وقال وهو ينهي الحديث:

- «حقولك بعدين»

ثم الْتفت إلى (أدهم) و(ياسمين) اللذان كأنا لا يزالان يتحدثان وقال بصوته العال:

- «ما تنجز بقى يا عم الدكتور، المزة جيالك مخصوص النهارده لما عرفت إنك جاي»

نظرت أنا و(أدهم) إليها باستغراب، فقد تصورت للحظة أن الموضوع جاء عفويًا، قالت هي بسرعة:

- «إحنا بقالنا فترة عايزين بيانيست معانا، ولما (إيهاب) قالي إن واحد صاحبه جاي وانتَ معاه، قلت لازم آجي أتكلم معاك في الموضوع ده، ها، ماتكسفنيش بقى قدام ابن الظريفة ده»

ابتسم (إيهاب) ابتسامة واسعة وهو يسمع أمه تلقب بالظريفة، وشعرت أنا بمزيد من الإحباط وهي تنعتني بـ«واحد صاحبه»، ظل (أدهم) يبدو عليه التردد فاقتربَت منه (ياسمين) برأسها وقالت بدلالٍ جعل شعر رأسي يقف:

- «يلا بقى يا دومييييي، وافق، عشان خاطري وافق، حتتبسط خالص واللّه، ده كفايا إن معانا (إيهاب)»

ابتسم (أدهم) رغمًا عنه ومط شفتيه ثم رفع كتفيه أخيرًا ويديه إلى أعلى بمعنى أنه لا حيلة له سوى أن يوافق:

- «yes, yes, yes»

قالتها (ياسمين) فالتفت إليها (إيهاب) ثم إلى (أدهم) وقال:

- «أهو يا عم أهو، تلاتة ياس، عشـان ما تحرمش نفسـك من حاجة»

- «سخيف»

قالتها (ياسـمين) وهي تضحك ثم قالت بابتسامة عذبة شعرت معها أني قد وقعت في الحب، كعادتي كلما رأيت فتاة تبتسـم ابتسامة عذبة أو غير عذبة:

- «أنـا بقـى حقولـك **brief** سـريع كـده عـن احنـا بنعمل إيه بالضبط»

وبـدأت تحكـي وأنـا أسـتمع إلى صوتهـا العـذب وقلبي يدق بصوت يعلو على صخب المكان..

كعادتي..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

اقتربت منه ببطء وأنا لا أعرف إن كان ما أنا مقدم عليه صواب أم خطأ..

لم أوقد الأنوار، فأنا أعرف طريقي جيدًا داخل تلك الحجرة بالذات..

وقفت بجانبه ووضعت يدي فوقه.. ملمس الأبانوس هذا الذي يظهر من خلال القماش المهترئ، ترددت للحظة ثم مددت يدي أخيرًا وأزلت الغطاء عنه..

وها هو البيانو يتجسد أمامي مرة أخرى..

مهيبًا، شامخًا، لست أعرف من اخترع البيانو لأول مرة لكنه كان على صوابٍ تمامًا عندما اختار له اللون الأسود، فلا أذكر أنني قد رأيت شيئًا في مثل فخامته من قبل، بالنسبة لي على الأقل.. تأملته.. يا للعجب من كون إنسان يستطيع أن يخرج من هذا الجسد المصمت أصواتًا ساحرة، حياة كاملة تنساب من أوتاره وتتسلل داخل رأسك لتحملك إلى آفاق بعيدة، ترى بأعين من عزفها، تشعرك بما كان يشعر هو به وقت أن ألَّفها، كلما سمعت آلات أخرى كلما ارتبطت أكثر بهذه الآلة الموسيقية، مَن يعزف أو هو مستمع جيد للموسيقى يعرف أنه هو الآلة الوحيدة التي تمكنك من استخدام أصابع يدك العشرة مرة واحدة، لتحدث ذلك التناغم، وياللسحر، تنقل أصبع واحد فقط

فيتغير كل شيء.. كم أعشق التفاصيل، ويا لِكَمّ التفاصيل في تلك الآلة الساحرة..

جلستُ على الكرسي الذي لم أجلس عليه منذ عام كامل، ثم مددت يدي ورفعت غطاء الأصابع.. وها هما اللونان المتناقضان، الأبيض والأسود، وضعت يدي لألمس الأصابع البيضاء العاجية، ثم السوداء الأبانوسية.. قشعريرة غريبة سرت في جسدي كله، يا الله، كم كنت أفتقدك، كنت أهرب أحيانًا في تلك الأصابع، أعزف، أتوه حتى أصحو وقد فرغت كل طاقتي السلبية، أو معظمها فلا يوجد شيء قادر على إذهابها تمامًا..

لم أستطع أن أتريث أكثر من ذلك، كوَّرتُ يدي قليلًا، ثم بدأت أعزف على الفور..

لم أدرِ كَم مرَّ من الوقت، كانت مقطوعة **Dance Macabre** لـ«**Camille Saint-Saëns**»- هي ما اختارت يداي أن تعزفه، فنادرًا ما أجلس على البيانو وأقرر ما أعزفه.. لا أدري لماذا تذكرت (سارة) الآن، (سارة) التي كانت تمثل لي كل شيء قبل أن أقابل (مي).. شعرتُ بالاختناق، لقد أتيت هنا كي أنسى، كي أفرغ كل ما أشعر به، لا لكي أتذكر الآن كل شيء، أنا..

- «(أدهم)!»

أجفلت، وتوقفت عن العزف ونظرت للخلف لأجد أمي تقف عند الباب وعلى وجهها نظرة مذعورة.

- «ازيك يا ماما، انتِ واقفة من بدري؟»

قلتها بلهجة أحادية التُّون دون أن يحمل صوتي أي مشاعر، ظلت ترمقني بتلك النظرة المذعورة ثم قالت بلهجة حادة لا تنتمي بصلة لتلك النظرة على وجهها:

- «انتَ رجعت تعزف تاني إمتى؟»

ظللت أتطلع إلى عينيها المذعورتين ثم قلت:

- «في باند، حرجع أعزف معاهم، كنت عايز أشوف لسا بعرف أعزف ولا لأ»

ظلت واقفة، لم تغير من نظرتها، ولم ترد، نظرتُ إلى الأرض لوهلة ثم قلت دون أن أنظر إليها:

- «بتسألي ليه؟»

ابتلعت ريقها بصوت مسموع وقالت وهي تشير للبيانو:

- «انتَ كنت بتعزف نفس اللي انتَ كنت بتعزفه يوم ما...»

لم تكمل جملتها، شعرت بالدم يصعد إلى رأسي وقلت وقد بدأت العصبية تظهر في صوتي:

- «بتسألي ليه برضو؟»

نظرَت إليَّ وظهر الأسى على ملامحها.. كم أكره تلك الانطباعات التي تتكون على وجهها كلما تراني أعزف، لحسن الحظ لم أرَ تلك الانطباعات منذ عام كامل، لكن يبدو أنني سأعود لأراها من جديد.. قالت:

- «أنا بس آآآ.. انتَ عارف، أنا قلبي بيتقبض لما بسمعك بتعزف المقطوعة اللي انتَ كنت بتعزفها دلوقتي دي»

زفرتُ وقلت في نفادِ صبر:

- «خـلاص يـا مامـا ، ما تبقيش تسـمعيها ، لمـا أعزفها ابقي اقفلي الباب عليكي»

ظلـت واقفة ولم تـرد ، درتُ تجاه البيانو ولـم أعزف، انتظرت قليـلًا حتى سـمعت الباب يغلـق وصوت خطواتها وهـي تبتعد في بـطء.. ظللت كمـا أنا لوهلة ثـم كورت يديَّ مـرة أخرى وبدأت أعزف من جديد.

نفس المقطوعة..

ازدادت حـدة ضربات أصابعي على البيانو، فقط لأتناسـى ما ذكرتني هي به الآن، لكن هيهات..

تركـت الذكريات تنسـاب داخل رأسـي وتركـت أصابعي تحاول أن تنسيني كل شيء؟

لكني أعلم أن هذا غير ممكن..

فما حدث لا يمكن نسيانه بأي حال من الأحوال..

لمـاذا لـم يكتشـف أحدهم إلى الآن شـيء يمحـي الذاكرة ويريح الجميع من عذاب الذكريات؟..

لماذا؟..

❖ ❖ ❖

«ياسمين»

- «تاني يا (ندى)، صوتك مش عاجبني النهارده، فيه إيه؟»

نظـرت (نـدى) لـ(أدهم) ثم نظـرت لي بغضب ومطت شـفتيها ثـم أشـاحت بوجههـا ولم ترد.. لسـبب مـا يريد الجميـع أن يظهر وا بمظهـر جيـد أمامه، صحيـح أن هذا أول يوم لـه في البروڤات وبالطبـع يريـد كل منهـم أن يترك انطبـاع أنه أهم مَـن بالفرقة لـدى القادم الجديد، إلا أنهـم اليوم يثيرون أعصابي لدرجة تفوق الوصف..

- «من الأول يا جماعة، نركز شـوية، معايا يا (أدهم) زي ما اتفقنا»

ثلاث ضربات بعصا الدرامز ثم في الرابعة «انترو» بسيطة، ثم بـدأت الأغنية، هذا أفضـل كثيرًا، الحقيقة أن (أدهم) أفضلهم حتى الآن مع أن هذا يومه الأول، كم أريد أن أحظى بمثل موهبته في كل الآلات، بدأت أتمايل مع الموسـيقى بالفعل مع الإيقاع، ثـم انتهـت المقدمة وهـا قد حـان دوري، أخذت نفسًـا عميقًا ثم بدأت في الغناء:

موال، ترحال وكل يوم سؤال

الدنيا ديًّا، كتير عليا، مش لاقية راحة البال

يمكن من جوا أنا فيا حاجات كتيرة، عايزة أتغير أنا

أنا عايزة أثور أكيد وأروح بعيد، بس باين له هروب مُحَال

نظرتُ إلى (ليلى) كعادتي كلما اندمجتُ في الغناء فوجدتها لا تنظر إليَّ كما تعوّدَت أن تفعل..

كانت تنظر لـ(أدهم)..

أنا أعرف (ليلى) جيدًا ، أعرفها كظهر يدي في الواقع، ليست هذه نظرة استكشاف للوافد الجديد ، (ليلى) عيناها تلمعان وتعدل من خصلات شعرها من وقت لآخر، بل وتنفس دخان سيجارتها تجاهه، هي تفعل هذه الحركة معي فقط، تقول لي أنها تحبني أن أستنشق الهواء الذي يخرج من صدرها ، بدأت أشعر بالعصبية وبدأ صوتي يخرج عن التون..

- «Stop!»

توقفوا عن العزف فجأة ونظروا جميعًا إليَّ في عدم فهم، أشرت بيدي في الهواء وقلت:

- «كلنا محتاجين نريح شوية، خلينا ناخد بريك»

- «(ياسمين)، صوتك مش عاجبني النهارده، في إيه؟»

التفتُّ إلى (أدهم) الذي قالها مقلدًا لهجتي في التحدث، ضحك الجميع بالطبع عداي، لم يظهر للحظة واحدة من قبل أنه يعرف كيف يمزح أو أنه يفهم الدعابات من الأساس.. التفتُّ إلى (ندى) فوجدتها تضحك بشدة وترفع إصبعها الإبهام عاليًا نحو (أدهم) لتخبره أن دعابته قد راقت لها ، ولدهشتي، كانت (ليلى) أيضًا تضحك وتعض بأسنانها على شفتها السفلى.. شعرتُ بالغيظ مما يحدث لكنني لم أود أن أقول ما يغضب (أدهم)، فأنا قد وجدت عازف مثله أخيرًا ولن أغامر بأن يتركنا.

- «برييييك»

قلتها واتجهت للباب، سأحتاج أن أشرب بعض القهوة حتى أهدأ قليلًا، التفتُّ إلى (ليلى) لأخبرها بعينيَّ أنني غاضبة منها فوجدتها تنظر إلى (أدهم) الذي كان قد ترك الأورج ويتجه هو الآخر نحو الباب..

وفجأة، وجدته يتعثر ويكاد يسقط على الأرض لولا أن استَنَدَ في اللحظة الأخيرة على أحد المقاعد بجانب (ليلى)، نظرت فوجدت قدم (ليلى) ممدودة للأمام.. تبًّا، لقد فعلت تلك المجنونة إحدى حركاتها السخيفة معه.. الْتفتَ هو إليها ورأى قدمها التي كانت تسحبها هي للخلف في تلك اللحظة، وظلت تنظر إلى ملامحه الغاضبة رافعة حاجبيها إلى الأعلى راسمة ابتسامة مشاكسة على وجهها الذي أعشقه..

- «انتِ هبلة؟»

تغيرت على الفور ملامح (ليلى) وظهر الغضب جليًّا على وجهها وقامت من مقعدها وصاحت فيه:

- «مين دي اللي هبلة يا متخلف انتَ؟»

وفجأة مدَّ (أدهم) يده وأمسكها من ذراعها ولواها مما أرغمها على أن تستدير فصرخت:

- «انتَ يا حيوان، إيه اللي بتعمله ده»

- «مش أنا اللي يتهزر معاه الهزار ده، انتِ فاهمة ولا لأ؟»

اندفعتُ على الفور تجاههما بعد أن كنت قد تسمرت في مكاني وأنا أراقب هذا المشهد العجيب الذي اشتعل فجأة..

- «(ليلى)، (أدهم)، إيه اللي بتعملوه ده؟»

- «انتِ مش شايفة الحيوان ده لاوي إيدي ازاي؟ ده متخلف»

ترك (أدهم) ذراعها فدارت على الفور ونظرَت إليه بعينين تكادان تشتعلان من شدة الغضب ثم صرخت فيه:

- «فيه واحدة يتهزر معاها الهزار ده يا زبالة انتَ؟ إيه الخرا اللي بتعمله ده؟»

صاح هو فيها:

- «أنا اللي هزرت معاكي يا مجنونة انتِ؟ مش عاجبك اللي أنا بعمله متهزريش معايا بعد كدا، بسيطة دي ولا صعبة؟»

صِحتُ فيهما:

- «إيه، في إيه؟ أنا حاسة إني في حضانة مش مع ناس كبيرة، إيه الهبل اللي بتعملوه ده؟ (أدهم) بعد إذنك الهزار في حدود، وانتِ يا (ليلى)، ما تهزريش بعد كده مع حد من الفرقة لو سمحتي»

نظرَت (ليلى) لـ(أدهم) بغضب ثم أخذت حقيبتها واتجهت للباب في عصبية وهي تقول:

- «يلا، ابقي خلّي سي الفنان بتاعِك ده ينفعِك، سلام»

اندفعتُ خلفها وجذبتها من ذراعها، حاولت هي أن تجذب ذراعها من يدي إلا أنني جذبتها بقوة فنظرت إليَّ وبدا الألم على وجهها، قلت بغضب دون أن أرفع صوتي:

- «مش حتمشي، فاهمة ولا لأ؟»

ظللنا ننظر لبعضنا البعض لوهلة ثم تركتُ يدها فاتجهت هي إلى مقعدها وجلست وأخرجت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة ونفستها في غضب وهي تهز قدمها بشدة.. التفتُّ إلى (أدهم) فوجدته قد جلس أمام الأورج وهو عبوس الوجه، عاد الجميع وبدأ كلٌّ منهم يجلس في مكانه ويمسك بآلته الموسيقية، تذكرت أنني لم أشرب القهوة التي كنت أريدها، تبًّا لهما معًا.. أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت بصوتٍ حاولت أن أجعله هادئًا:

- «يلا بقى، وروني البريك عمل إيه.. درامز، يلا ابدأ»

❖ ❖ ❖

«ليلى»

- «ماشـي يا جماعة، اللّه ينـور، كنتوا هايلين، بعد بكره، ماتنسوش».

لـم ألتفت إلـى (ياسـمين)، كنت أنظـر لـ(أدهم) وهـو يلملم أشياءه ويستعد للرحيل، لا أنكر أنني ما زلت أشعر بغضبٍ عارم مما فعله، لكن شيئًا ما فيما حدث بيننا جعلني أشعر برجولته، هو لم يرضَ بأن أمزح معه بتلك الطريقة، بل كان رد فعله عنيفًا أيضًـا وهو يحافظ على كرامته، لا أنكر أنه لفت انتباهي أول ما رأيته في البروڤا، كنت قد رأيته عدة مرات في حفلات كان يعـزف هـو فيها، لم يلفـت انتباهي وقتها قـط، لا أدري ماذا جدَّ عليَّ، لكن ما فعله جعلني أفكر فيه أكثر..

- «بصراحة، انتِ زي القمر النهارده»

التفـتُّ لأجـد (نـدى) تنظـر لـي بابتسـامتها المرحـة، طالما أعجبتنـي (نـدى)، روحهـا خفيفـة ودائمًـا مـا تنشـر البهجة في المكان الذي تتواجد فيه، ابتسمت لها وقلت:

- «ميرسي يا (ندى) انتِ اللي قمر واللّه»

اقتربت مني وقالت:

- «لأ بجـد، انـتِ شـيك أوي النهـارده، كل يـوم بتبقي شـيك، بس النهارده زيادة الصراحة، الفسـتان واو، أول مرة اشـوفك لابسة فساتين، والصندل، تحفة، حتى الـ accessories، الخاتم والخلخال

في رجليكي تحفة، انتِ جايباهم منين؟ أنا كنت بدور على خلخال شيك كده من فترة ولفيت قد ما لفيت ومالقيتش برضو»

ضحكتُ وأنا أمسك بيدها، دائمًا ما تجعل من أمامها يظن أنه أفضل وأجمل وأظرف إنسان في الوجود، من الجميل أن يتواجد في حياتك شخص مثل (ندى).

- «(ليلى)!»

التفتنا جميعًا إلى (ياسمين) التي صعد صوتها فجأة باسمي، نظرتُ إليها باستغراب فصاحت:

- «هو احنا مش قلنا مافيش هزار خلاص مع حد من الباند؟»

شعرتُ بحرجٍ شديد، ونظرت إلى (ندى) فوجدت وجنتيها قد صارتا بلون الدم، تركتني (ندى) واتجهت إلى الباب، ظل الجميع واقفين يتابعون الموقف ثم اتجهوا إلى الباب دون أن يقول أحدهم أي شيء..

أخرجتُ سيجارة وأشعلتها ونفثت دخانها وأنا أنظر للجهة الأخرى، سمعت خطوات (ياسمين) تقترب، لم أتلفت لها، فجأة وجدت يدها تجذبني من ذقني وتجبرني على النظر إليها، نظرت إليها لثانية ثم أدرت وجهي مرة أخرى، جذبتني من ذراعي في عنفٍ فنظرتُ لها، كنت أشعر بألم شديد لكني لم أقل شيئًا، اقتربت بوجهها مني حتى شعرت بأنفاسها على وجهي، كانت نظراتها تشتعل غضبًا، ظلت تنظر إلى عيني عبر تلك المسافة القصيرة ثم قالت بصوتٍ خافت لكنه يحمل الكثير من العصبية:

- «انتِ شوية تـ **flirt** على (أدهم)، وشوية على (ندى)، في إيه

ما تظبطي كده»

ظللت أنظر إليها دون أن أرد، كانت قدمي تهتز رغمًا عني كعادتي كلما شعرت بالعصبية، جذبتني هي فجأة وقبَّلتني.. قُبلة طويلة، رفعت سيجارتي عاليًا خشية أن تصيبها، لم أندمج في البداية ثم بادلتها بالتقبيل حتى شعرتُ بحرارة جسدي كله ترتفع.. ابتعدَت عني أخيرًا ثم قالت بصوتٍ خافت لكن برقة هذه المرة:

- «انتِ عارفة أنا ممكن أعمل إيه لو عرفت إن أي حاجة من الحاجات دي جد؟»

لم أرد، وإن كنت بدأت أشعر ببعض الخوف من طريقة كلامها.

- «(ليلى)، أنا ممكن أقتل، عارفة يعني إيه أقتل؟»

شعرت برعشة خفيفة تجتاحني وبالجلد على ظهر ساعدي يصير كجلد الإوز، ظلت تنظر في عيني ثم أمسكَت بيدي وضغطتها بقوة وقالت:

- «(ليلى)، انتِ بتاعتي، بتاعتي أنا بس»

قالتها ثم جذبتني مرة أخرى نحوها وقبلتني، وما أن انتهينا حتى نظرت في عيني وقالت:

- «يلا، عايزين نخرج خروجة حلوة عشان ننسى الخرا اللي حصل النهارده ده»

لم أرد أن أذهب معها لكني لم أجرؤ أن أرفض، تركتها تلملم أشياءها وتستعد وبقيتُ أنا مع سيجارتي ينفُث كلٌّ منَّا الآخر..

❖ ❖ ❖

«وليد»

- «انتَ خدت بالك من (ياسمين) و(ليلى)؟»

نظر لي باستغراب، أحيانًا تدهشني سذاجته، قلت:

- «انتَ ماخدتش بالك من حوار (ندى) ده؟»

- «(ندى) إيه؟»

شعرت بالدم يصعد إلى رأسي..

- «آه، مانتَ كنت نجم القعدة، تصدق ماحدش خد باله أساسًا إني كنت قاعد معاكم في البروقة؟ (ياسمين) زعقت لـ(ليلى) عشان كانت بتهزر معاها، كانوا بيعملوا حركات بنات بقى، انتِ زي القمر، لأ انتِ اللي فشيخة، فـ(ياسمين) ماعجبهاش بقى إن (ليلى) تبقى بتهزر مع حد تاني»

- «انتَ أوفر والله يا (وليد)، هي كانت عايزة البروقة تمشي كويس بس، هي كانت قالت لـ(ليلى) إنها ما تهزرش مع حد من الفرقة ساعة ما اتخانقت معاها»

نظرت له باستغراب:

- «لأ ثواني كدا.. انتَ اتخانقت مع (ليلى)؟»

حكى لي (أدهم) سريعًا ما حدث بينه وبين (ليلى)، يبدو أنني كنت في الخارج وقتها.. لم أفهم أي شيء، ما يقوله يوحي بشيء أو بآخر بأن (ليلى) تحاول التقرب من (أدهم) بطريقتها،

وما فهمته اليوم يقول أن (ليلى) و(ياسمين) على علاقة ببعضهما البعض.. هززت رأسي وقلت لـ(أدهم):

- «أنا مش فاهم حاجة»

- «انتَ بس دماغك تعباك، ريحها شوية يا (وِلّ)»

نظرت إليه وأنا أتساءل عمَّا يعتمل في داخله، بالأمس كان يشعر بالأسى مما حدث مع (مي)، والآن هو يعبث في هاتفه ويبتسم، قلت وقد قررت أن ما يحدث لـ(أدهم) يحدث له فقط ولن يحدث لأي شخص آخر، بالذات أنا:

- «ماشي يا عم، (ياسمين) المزة عايزاك معاها في الفرقة، وزعقت لـ(ليلى) المزة برضو عشان خاطرك، و(كارما) المزة هي كمان بتكراش عليك»

نظر لي فجأة وقال باستغراب:

- «(كارما)؟!»

قلت بغيظ:

- «(أدهم)، انتَ حمار يا ابني، حمار وماتستحقش أي واحدة من النسوان اللي حواليك دول، أو تقريبًا عشان انتَ ماتستاهلهمش فهما بيجولك، مش عارف، في حكمة ورا الموضوع ده أنا مش فاهمها، انتَ ماخدتش بالك قبل كدا من (كارما) وهي بتبصلك؟ ده كل الناس خدت بالها يا ابني!»

شرد (أدهم) ببصره وقال:

- «أنا ماخدتش بالي قبل كده، بس أنا فعلًا مافيش أي حاجة من نحيتي خالص»

- «ماهي هي دي المشـكلة، انتَ مافيش حاجة من ناحيتك، وبيبصولـك انتَ وبيحلقولي أنا، كأني شـجرة مزروعة جنبكم مثلًا»

كان شاردًا ولم يلتفت لما قلت لحسن الحظ، أحيانًا كثيرة أقول أشـياء ثم أندم عليها لاحقًا، لا أريده أن يشـعر أنني أشـعر نحـوه بالحقـد، ليس هذا ما أشـعر به فعلًا، أنـا أريد أن أكون مثله ليس أكثر.. قلت:

- «عمومًـا مـش لازم يكون في حاجة مـن ناحيتك، مش لازم يكـون في مسـمى للعلاقـة من الأسـاس، اضحك، وانبسـط، وصاحب، عندك جوز الصواريخ (ليلى) و(ياسمين)، لو ماطلعوش زي ما في دماغي، خدلك واحدة وأنا أخدلي واحدة»

- «مين الصواريخ (ليلى) و(ياسمين) دول؟»

التفتنـا أنا و(أدهم) لنجد (كارما) خلفنا، أجفلت، ترى ماذا سمعت؟ قلت:

- «مافيش يا ستي، (أدهم) رجع يعزف في باند فيه اتنين قطط كده بس كويسين الحقيقة، لو شفتيهم حتفهمي قصدي، وأنا بـروح أقعـد معاهم كدا، أهـو كأني الفواحة اللـي في العربية مثلًا»

نظرَت لـ(أدهم) و بدا عليها أنها مصدومة بشكل ما وقالت:

- «رجعت تعزف؟»

نظر لها (أدهم) باستغراب وقال:

- «أه، إيه المشكلة؟ ثم انتِ تعرفي أصلًا إني كنت بعزف؟»

احمر وجهها قليلًا وقالت:

- «يعني أنا سمعتهم مرة بيتكلموا على إنك كنت بتعزف، ثم انتَ خلاص قدامك سنة وتتخرج وتبقى دكتور، فقلت يعني أكيد مش حتفكر ترجع»

قال (أدهم) فجأة بحدة:

- «وانتِ مالِك أبقى دكتور ولا مش دكتور؟ أنا المفروض أعمل اللي أنا عايزه مش اللي الناس شايفاه صح»

نظرتُ له بغيظ، (أدهم) يتصرف بغرابة هذه الفترة، يضحك فجأة وتفلت أعصابه فجأة، نظرتُ لـ(كارما) فوجدت الحزن على وجهها، لم تتعصب، لم تغضب، يا لرقتها، أنتَ صديقي لكنك لا تستحقها يا رجل، ولدهشتي قالت هي بصوتٍ خافت أقرب للبكاء:

«أنا آسفة يا (أدهم)، ماكانش قصدي إني أضايقك، أنا بس قصدي..»

وقطعت كلامها عندما التفت إليها (أدهم) ورمقها بنظرة نارية، وضعت أصابع مرتجفة على فمها، لقد أخافها اللعين بنظرته تلك، هممت بقول شيء ما لأصلح ما فعله لكنه قال فجأة بصوتٍ هادئ:

- «أنا اللي آسف يا (كارما)، أنا بس مش مضبوط شوية الفترة دي»

لانت ملامح (كارما) على الفور واقتربَت منه وجلست بجانبه ووضعت يدها على ركبته أمامي أنا الذي دائمًا ما يعاملني الناس كأني شيء ما في خلفية مشاهد حياتهم وقالت بصوتٍ خافت:

- «إيه اللي حصل يا (أدهم) إحكيلي، أنا سامعاك»

التفتَ لها (أدهم) وظلَّ ينظر كل منهما في عينَي الآخر، شعرت بالدم يصعد إلى رأسي وقلت محاولاً إفساد هذا المشهد الرومانسي:

- «مافيش يا ستي، (أدهم) و(مي) سابوا بعض»

قالت لـ(أدهم) دون أن تنظر إليَّ كأنه -ذلك التعس- هو مَن تحدث وليس أنا:

- «أيه ده بجد؟ ده إمتَى الكلام ده؟»

لم أرد هذه المرة، قال (أدهم) وقد عاد الحزن إليه:

- «من يومين، عادي، إنسي»

قالت وقد بدَت سعادة لم تستطع أن تخفيها في عينيها:

- «وعشان كده بقى رجعت للمزيكا وبتشوف مزز وصواريخ وكده؟»

ابتسم لقولها، كانت هذه أطول محادثة أراها تقوم بها.. ابتسمتُ أنا الآخر، بشكلٍ ما لا يمكنك ألا تشعر براحة تعتريك عندما تجد السعادة تشع من عيني تلك الفتاة، قالت دون أن تفارق وجهها الابتسامة:

- «طب خدوني معاكم عشان أقولكم رأيي إذا كانوا مزز فعلًا ولا ده cheerleader effect وخلاص»

- «شير مين يا حاجة؟»

ضحكت والتفتَت إليَّ أخيرًا وقالت:

- «cheerleader effect ده لما تشوف كذا بنت مع بعض،

فيهـم حـد حلو وحد وحش، فعينك بتشـوف الـ **average**، يعني بتشوفهم كلهم حلوين حتى لو فيهم وحشين»

قلت وقد أبهرني ذكائها:

- «مـا شـاء الله، هي بقـى ليها مصطلح كمـان؟ عمومًا همَّا مزز فعلًا، يعنـي الـ **average** بتاعهم حيديكي نفس الرقم بتاع كل واحدة فيهم»

ضحكَت، يا لجمال ورقة ضحكتها، لماذا أشعر أن الشمس تزداد إشـراقًا وأن الخضرة حولنا تسـتقيم درجة خضرتها عندما تضحـك هي؟ توقفـت أخيرًا عـن الضحك فعادت السـماء للونها الأصلي وقالت بابتسامة:

- «خلاص، يبقى آجي معاكم وأقولكم رأيي بنفسي»

- «أنا عايزك فعلًا تيجي معايا المرة الجاية»

التفتَت لـ(أدهم) وتهلَّلت أساريرها وقالت بفرحة عارمة:

- «بجد يا (أدهم)؟ عايزني آجي معاك؟»

ابتسـم هـو ابتسـامة خفيفـة وأومـأ برأسـه، مدت هـي يدها وأمسـكت بيـده وضغطتها.. فجأة تحـول الموضوع مـن أن تأتَ «معنا» إلى أن تأتِ «معه»، قلت وقد شـعرت أن وجودي صار فعلًا غير مرغوب فيه:

- «يلا، أنا حروح ألعب مع الأسد، أشوفكم بالليل بقى»

وتركت المكان وأنا أشعر بصدري يضيق حتى كاد لا يسع روحي من الأساس..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

«التَّملُّق هو أن تخبر الطرف الآخر بما يظنه تمامًا عن نفسه»

عدت أقرأ الجملة الأخيرة لعدة مرات ثم توقفت عن القراءة وأنا أفكر في معناها..

أنا أفعل هذا الآن مع (ياسمين)، (ياسمين) تريد أن تكون قوية، أن تكون مسيطرة، أن تتملكني، وأنا أخبرها أنها قوية وأتصرف لأظهر لها أنها مسيطرة وأدعها تظن تمامًا أنني ملكها، فهل أنا أتملقها؟ وإن كنت أفعل، فهل أفعله خوفًا منها.. أم لكي لا تتركني؟ ثم ماذا عن (أدهم)؟.. تبًّا، سأحتاج الذهاب إلى دكتور (حسين) في أقرب وقت ممكن..

- «إيه ده، كتاب علم نفس؟»

رفعتُ عيني إلى الصوت لأجد المتحدث إحدى زميلاتنا، وهي بالمناسبة أسخف مَن الْتحق بكلية تجارة منذ أن تم افتتاحها.. خفضتُ عيني إلى الكتاب مرة أخرى، لست في مزاج الآن للتحدث مع تلك السخيفة.. استمريت في القراءة لعلي أجد جملة أخرى أتناقش فيها مع (حسين) عندما أراه.

- «مش بكلمك يا زفتة انتِ؟»

رفعتُ عينيَّ إليها وخفضت الكتاب ثم قلت بعصبية:

- «أيوا كتاب خرا على دماغك، عايزة حاجة؟»

ابتسمَت ابتسامة ساخرة ونظرت لي من أسفل إلى أعلى وقالت:

- «(ليلى) انتِ بتروحي لدكتور نفساني؟»

تسمرت فجأة، يبدو أن الكلمة قد فاجأتني لأني ظللت لوهلة لا أجد ردًّا وشعرت بوجنَتيَّ تشتعلان، يبدو أن لونهما قد قارب على الأرجواني وليس الأحمر، سألتها بصوتٍ مبحوح:

- «وحروح لدكتور نفساني ليه؟»

قلتها ثم نهرتُ نفسي على الإجابة التي تثبت أنني أذهب بالفعل إلى طبيب نفسي، شعرت بالحنق من نفسي ومنها لكنني حاولت كتمانه قدر المستطاع، قالت هي بنفس طريقتها الساخرة:

- «يعني عشان تتعالجي من اللي انتِ فيه»

ظللت أنظر إليها غير مستوعبة ما تقول ثم قلت بنفس الصوت المبحوح:

- «هو إيه اللي أنا فيه؟»

ضحكت ضحكة طويلة مفتعلة بالطبع ثم قالت بتهكُّم:

- «ابقي خدي معاكي (ياسمين) هي كمان، مش هي عندها نفس اللي عندك برضو؟»

لم أستطع الانتظار أكثر من هذا، طالما تمنيت أن أضرب تلك الفتاة، وها هي الفرصة سانحة، وضعت الكتاب جانبًا في هدوء لا أعرف سببه، ثم قمت واقفة بهدوء أيضًا، ثم مددت يدي وأمسكتها من شعرها..

واشتعل كل شيء فجأة..

صراخ وصفعات ولكمات وسُباب، لم أميز مَن يفعل ماذا، ميزت أصواتًا أخرى، يبدو أن عدد من الطلاب قد أتوا ليخلصوا بيننا.

- «بتضربيني؟ ده أنا حفضحك في كل حتة أكتر ما انتِ مفضوحة.. يا ليسبيان يا بنت الو**ة»

كنت أشعر بأيادي تحتك بجسدي، بدفعة من هنا ومن

هنـاك، لا أذكر أنني بكيـت، كل ما أذكره أن تلك الكلمة صارت تتردد في مخي وتعيد نفسها مرات ومرات..

أنا لست فتاة جيدة، أنا مكروهة في كل مكان أذهب إليه..

(ياسـمين) هـي الوحيـدة التي لا أجـد عندها ما أشـعر به في كل مكان..

كم أفتقدها الآن، كانت ستعرف كيف تتصرف كانت سـ...

- «إيـه اللـي بيحصـل ده؟ دي كلية ولا سـوق خضـار؟ ناديلي الأمن يا ابني»

أعادتني الجملة إلى الواقع على نحو ما، يبدو أن أحد الأساتذة قد رأى ما حدث وقرر أن يمارس وظيفته في الحفاظ على نظافة الكلية من أمثالي.. وبالفعل ظهر فردين من الأمن كأنهما كانا ينتظران بفارغ الصبر أن يُبيِّنا أنهما يستحقان المبلغ التافه الذي يتقاضانه، أشارا إلينا لنسير أمامهما إلى مكتب الأمن، لم أقُل شيئًا، سرتُ أمامهما بالفعل دون أن أتحدث وسط صرخات تلك العاهرة التي كانت تلقي باللوم عليَّ بالتأكيد..

لكنني لم أفعل..

كل ما أردته أن ينتهي كل شـيء الآن لأذهب إلى (حسـين) لأحكي له ما حدث وما أشعر به ثم أعود بعدها إلى (ياسمين)..

لأرتمي في حضنها..

وأبكي..

دون أن أقول كلمة واحدة..

❖ ❖ ❖

«سيف»

- «هاتلي قهوة يا ابني، عايز تشرب حاجة؟»

هز رأسه نفيًا، التوتر بادٍ تمامًا على وجهه، هذا جيد، من الجميل أن يظلوا متوترين هكذا حتى تضعف مقاومتهم ويخبروني بكل شيء..

- «هاتله ليمون»

سيزيد من توتره أنني قد قررت أن يشرب شيئًا ما دون أن يطلبه، من الممكن جدًّا أن يكون يكره الليمون مثلًا، هذا جيد بشكل أكبر، أريده ألا يشعر بالراحة، فالقلق دائمًا ما يأتي بنتائج جيدة.

- «ها يا عم (أدهم)، قلت لي كانت علاقتك إيه بـ(سارة)؟»

كان يتحاشى النظر في عينيَّ، هذا جميل، كل من يتحاشون النظر إلى عينيك يكذبون في المجمل، سأنتظر تلك الكذبة التي ستخرج من فمه الآن:

- «كنَّا نعرف بعض، يعني كناآآآ»

لم يكمل الجملة.. ظللت أنظر إليه دون أن أرد، شعرت بتوتره يزداد، نادرًا ما يتحمل أحدهم أن تظل تنظر إليه هكذا دون أن تتحدث.

- «كنا متصاحبين»

- «جميل، وسبتوا بعض ليه؟»

سمعنا صوت طرقات على الباب ثم دخل (جابر) ومعه القهوة والليمون، ظللت أنظر إلى (أدهم) لكنه كان ينظر إلى (جابر) بتوجس، لا أدري إن كان يرى أنه ليس من اللائق أن يحكي عن قصته الرومانسية البلهاء أمامه، أم إنه يتوقع أن يضع (جابر) الطلبات ثم ينهال على مؤخرة رأسه بكفه الضخمة.. المهم أن دخول (جابر) قد ضاعف من توتره وسيساعد هذا بالتأكيد على تقليل فرصِه للكذب، أو الكذب غير المفضوح إن صح القول، قال أخيرًا:

- «عادي، ما اتفقناش مع بعض، كان في مشاكل»

- «كان في مشاااااكيييييل، أيوا بقى، قولي على المشاكل دي»

شعرت بالدم يهرب من وجهه الذي صار بلون الورقة، ثم قطب حاجبيه وقال بعصبية لم تظهر على صوته طوال حديثنا:

- «أنا عايز أعرف حيفيد حضرتك بإيه إني أحكيلك عن علاقة حب فاشلة؟ إيه علاقة دا بأي حاجة أصلًا»

اعتدلتُ في مقعدي ومددت يدي والتقطت كوب القهوة في هدوء شديد، أستمتع دائمًا بأول رشفة من القهوة، ثم تنتهي متعتها، مثل أي شيء آخر في الحياة.. أخذت رشفتي الأولى المحببة ثم قلت بهدوء:

- «بص يا حبيبي، أنا عشان انتَ شاب محترم وحتبقى دكتور قريب، ده لو ماطلعتش انتَ اللي قتلتها طبعًا، فأنا حفهِّمك»

- «أنا ما قتلتـ...»

قاطعته بإشارة من يدي وقلت:

- «حنعرف، لو قتلتها حنعرف، اشـرب بس الليمون وسـيبني أكمل، اشرب».

ظل مترددًا ثم اقترب من المكتب ومد يده وأمسك بالكوب.

- «انتَ يا ابني واقف ليه من ساعة ما دخلت؟ أقعد يا حبيبي، استريح»

تردد قليلًا، يبدو أنه شعر أنه هناك خدعة ما، ثم جلس أخيرًا وأمسـك بكوب العصير بكلتا يديه كأنما يسـتمد منه الأمان بشكلٍ أو بآخر.. تراجعت في كرسيِّي وقلت وأنا أشعر بالنشوة مما أقوله:

- «إحنـا عملنـا تحرياتنا، (سـارة) كان ليها صحاب كتير، بـس علاقتهـا بيهم كانـت عادية، مافيـش دراما يعنـي، أكتر اتنيـن كانـت قريبة منهـم كنت انـتَ و(ليلى)، (ليلـى) صاحبة (ياسـمين)، مانـتَ عارفهم، مش دول اللي معاك فـي الباند اللي انتَ لسا منضم له جديد؟ شُفت بقى، أهو، كلكم صحاب في بعض، يعني من الآخر واحد منكم اللي قتلها «

بـدت الحيـرة على وجهـه وقطب حاجبيه بشـدة، لا أعرف إن كان حدْسِـي هذه المرة سليمًا أم لا، لكن يبدو أنه لا يعرف أن (سـارة) كانت تعرف كلًّا من (ليلى) و(ياسمين)، فكرت أنها فرصة جيدة يجب أن أنتهزها.

- «انتَ تعرف إن (ليلى) و(ياسمين) يعرفوا (سارة)؟»

هـزَّ رأسـه وإن بقـي على شـروده كـأنما حـاول التفكير في شيءٍ ما، قال أخيرًا دون أن يلتفت إليّ:

- «لأ، ماكنتش أعرف، بس (سارة) كانت بتعزف كمانجة، آآآ ممكن تكون كانت تعرف (ياسمين) بس عمرها ما حكيتلي عليهم»

- «ممم، عمرها ما حكيتلك عليهم، ها طب أديك قابلتهم أهو، إيه رأيك فيهم بقى؟»

رفع كتفيه لأعلى وخفضهم ثم قال:

- «عادي، زي كل البنات اللي قابلتهم في المزيكا»

- «وعاملين ازاي بقى البنات اللي قابلتهم في المزيكا دول؟»

بدا عليه التفكير العميق مرة أخرى وشرد ببصره ثم نظر إليَّ وقال:

- «ممكن يعملوا أي حاجة»

لم أفهم ما يقول في البداية، ثم فطنت أنه يشير إلى أن مَن قتل (سارة) لا بد وأنه إحدى الفتاتين، لأنهما على حد قوله يمكن أن يفعلن أي شيء، وأي شيء هذه قد تتضمن القتل.. حيلة «أنا لم أقتله، بل هو» هذه من أقدم الحيل التي يلجأ إليها المجرمون غير المتمرسون في الإجرام، يبدو أن (أدهم) هذا يخفي وراءه الكثير.. قلت:

- «عمومًا هو اللي قتلها له علاقة بالمزيكا»

نظر لي باستغراب محاولًا أن يستشف ما أعنيه، لم نُعلن بالطبع أن الكمان الذي كان معها تم تحطيمه، هذه من

الأشـياء التي نعرف بها المجرم، كنت أنتظر أن يقول لي شـيئًا علـى غـرار «تقول هذا لأن الكمان تم كسـره؟»، لكنه لم يقل هـذا للأسـف، هو حتى لم يسـأل لماذا قلت له ذلـك.. هو لا يريد أن يتحدث ولا يريد أن يعرف، تصرف غريب حقًّا.. من يشتبه فيه في جريمة قتل يجب أن يسأل ليعرف أكثر عن المصيبة التي هو فيهـا، لكـن يبدو أنه لا يكترث، إما لأنـه لم يقتل فعلًا ويعرف تمامًا أنه لا علاقة له بما حدث -وهو ما لا أستسيغه- أو هو يعلم تمامًـا ماذا حدث في مسـرح الجريمـة ولا يريد أن يدخل معي في نقاش كي لا يقع في قول شيء ما يؤكد اقترافه للجريمة..

حسنًا، أنتَ أردت هذا..

اعتدلـت في كرسـيِّي، ثم قلت له وأنا آخذ رشـفة أخرى من القهوة التي فقدت مذاقها:

- «ها بقى، من الأول كده وواحدة واحدة، سـيبتوا بعض ليه انتَ و(سارة)؟»

❖ ❖ ❖

«حسين»

- «شكلِك النهارده غير كل مرة»

نظـرَت لي بعينين اختلط فيهما الحزن بالحيرة، لفت انتباهي أن وجههـا به بعـض الكدمات، لم تكن واضحـة للغاية لكني صرت أحفظ وجهها كما كنت سأحفظ وجه أبنائي، لو كنت قد رزقت بهم.. شـعرت بغصة وأنا أراها بهذا الشكل، فقلت لها وأنا بداخلي أود أن أقتل مَن فعل بها هذا:

- «(بيري) اللي عملت فيكي كده؟»

التفتت إليَّ أخيرًا وقالت دون أن تفارقها تلك النظرة:

- «اسمها (ياسمين) على فكرة»

سرَّني أنها بدأت تثق بي شيئًا فشيئًا، قالت فجأة:

- «بس مش هي اللي عملت كده»

- «أمال مين؟ واحدة تانية اتعرفتي عليها؟»

هزت رأسـها بسـرعة وعضت شـفتها السـفلى، خفـق قلبي، كل مـا تفعله يعجبني، تدير عينيها لليمين فأراها جميلة، تعض شـفتها فأراهـا جميلة، أعلم مـا بها لكنها ما زالـت في نظري.. جميلة.. إذا لم يكن هذا حبًا فماذا يكون إذَن؟

- «طيب ممكن تحكي لي؟»

أشـعلت سـيجارة بهدوء شديد ونفسـتها ببطء، وظلت صامته

لفترة وجيزة، احترمت صمتها حتى نظرت إليَّ وقالت:

- «كنت في الكلية، قاعدة لوحدي وبقرا كتاب عن علم النفس»

ابتسمتُ، هي أيضًا أصبحت تشاركني ما أعشق.. تجسدت صورتنا أمامي، أنا وهي، نستلقي على الفراش، في يد كلٍّ منَّا كتاب، نقرأ ثم نتبادل نظرة، نبتسم لبعضنا البعض، ثم نعود لنكمل القراءة..

- «كنت بحسبَك حتسألني بقرا ليه عن علم النفس»

أفقتُ من خيالاتي على صوتها، وجدتها تنظر لي والغضب مرتسم على وجهها، شعرت بالحرج للحظة ثم هممت بسؤالها فقالت هي:

- «أنا عايزة أتعلم إزاي أفهم نفسي، عايزة أعرفني أكتر، أنا بحاول أتعلم منك، انتَ فاهمني؟»

أومأتُ برأسي وهممت بالكلام فقالت فجأة:

- «دكتور، هو أنا bi sexual؟»

رفعت حاجبيَّ للحظة، لم أتوقع السؤال، هل هي فعلًا تسأل إن كان بإمكانها أن تنجذب للجنس الآخر أم لا؟ ما معنى هذا؟ قلت:

- «كونك بتميلي لنفس الجنس دي حاجة نفسية مش عضوية، يعني، ممكن طبعًا تميلي للجنس التاني عادي جدًّا، انتِ بتسألي ليه؟ انتِ قابلتي راجل عجبك؟»

يبدو أنها فوجئت بالسؤال؛ لأنها باعدت بين شفتيها ونظرت لي

رافعة حاجبيها إلى أعلى ولم تتحدث، يبدو أنني على حق، هناك شخص آخر بالفعل، رجل، لوهلة تمنيت أن تقول «نعم، أنت»، لكن كعادة الدنيا، نادرًا ما يحدث ما نتمناه، بل يحدث دائمًا العكس تمامًا.. قالت وهي ممسكة بالسيجارة رافعة إياها بجوار رأسها:

- «(ياسمين) صاحبتي دي بتعزف جيتار وبتغني، عندها باند كده بيعزفوا الأغاني بتاعتهم، هي اللي بتكتب وبتلحن mainly، في واحد جديد لسا جي الباند معاهم، اسمه (أدهم)، من ساعة ما دخل وأنا مش عارفة أنزل عيني من عليه، مش عارفة ليه، وبعد كده حصل حاجة غريبة.. حاولت أهزر معاه، أنا عارفة إن اللي عملته ده أوفر، بس في ولاد كتير بتقبله عادي، كلهم بيقبلوا هزاري أصلًا، حتى لو سخيف.. أنا كعبلته وهو ماشي، كان حيقع بس لحق نفسه، لف وزعق فيَّا، ولوالي دراعي ورا ضهري وقالي مش أنا اللي يتهزر معاه الهزار ده»

- «وبعدين؟»

- «وبعدين (ياسمين) جات وخلصت ما بينا»

فهمت إلى حد ما ما يحدث معها.. خطيت بعض النقاط في النوتة الصغيرة التي خصصتها لها وصرت أحتفظ بها في جيب البالطو الذي تعودت أن أرتديه بمجرد وصولي إلى العيادة، لا أعرف سببًا لفعلي هذا سوى إنني اعتبرت أن تلك الحالة تخصني وحدي، ثم إنني أحيانًا -ولا أخفي عليكم- صرت أتلمس النوتة في جيبي بين الحين والآخر فأشعر أنها لا تزال معي ولم ترحل عائدة إلى عالمها الذي صرت أعرف عنه شيئًا فشيئًا كل يوم.. سألتها:

- «انتِ مش شايفة حاجة مشتركة بينه وبين (ياسمين)؟»

نظرت لي في حيرة ولم ترد، قلت محاولًا ترتيب أفكاري:

- «(أدهم) لما هزرتي معاه الهزار اللي بتهزريه مع كل الناس مارضاش، دي أول حاجة، ولوى إيدك ورا ضهرك، عاملك بطريقة مافيش حد غير (ياسمين) بيعاملك بيها، إحنا اتفقنا قبل كده إنك ساعات بتحسي إنك تستاهلي اللي بتعمله فيكي (ياسمين)، وأكيد حسيتي إنك برضو تستاهلي اللي عمله فيكي (أدهم)، ده لو جَنِّبنا الانجذاب الشكلي اللي حصل في الأول، وده أنا رأيي إنه ممكن يكون سببه فتور في علاقتك بـ(ياسمين) وإن مافيش بنات حواليكي دلوقتي ممكن تقولي إنك منجذبة ليهم، ده غير طبعًا إنك أكيد خايفة من (ياسمين) إنها تعمل مصيبة لو انتِ عملتي حاجة زي كده»

ظلت تنظر لي لفترة طويلة دون أن تتحدث، كانت تدخن وتتفرس في ملامحي كما لو كانت ترى شيئًا ليس على ما يرام في ملامح وجهي.. شعرت ببعض الارتباك وهممتُ بقول شيء ما لكنها قالت فجأة:

- «دكتور، انتَ بتقرا الأفكار؟»

شعرت براحة فجأة وابتسمت، ثم تحولت ابتسامتي إلى ضحكة، يا إلهي لكم أسعدني ما قالته..

- «لأ طبعًا، بس اللي انتِ بتحكيه هو اللي بيخليني أعرف»

رَفَعَت حاجبًا واحدًا وقالت دون أن تفارق عيناها عينيّ:

- «لأ بس واو الحقيقة، انتَ قلت كل حاجة صح»

شـعرت بقلبي يخفق، لا شيء مثل كلمات الإطراء ممن تحب قادرة على جعلك سعيدًا، مهما قيل لي أنني طبيب جيد، لم أشعر أبدًا بمثل ما شعرت الآن..

تغير وجهها فجأة واختفت ابتسامتها وشردت بعيدًا وبدى على وجهها الأسى.. سألتها:

- «(ليلى)، إيه اللي افتكرتيه دلوقتي خلاكي اتغيرتي كده؟»

نظرت لي بعينين شاردتين تمامًا وقالت:

- «افتكرت (سارة)»

تذكرت، (سارة) صديقتها التي قُتِلَت.. تعجبت من تذكرها لها الآن.. قالت:

- «ساعات بسأل نفسي إذا كانت اتعذبت وهي بتموت.. حست بإيه؟ حست بإيه وهي عارفة إن دلوقتي خلاص، بح، مش حتصحى بكره تروح الكلية، مش حتشوف حد تاني، حتقعد في حفرة صغيرة يدوب على قدها، ضلمة.. تفتكر حسِّت بإيه يا دكتور؟»

تعجبتُ من معرفتها الضئيلة بالدين وبما يحدث بعد الموت، يبدو أن أبويها فعلًا لم يستثمرا وقتهما في إخبارها بأي شيء..

- «أنا ساعات بحس إن ضميري بيوجعني لما بفتكرها»

ظللت أنظر إليها وعقلي يعمل بسرعة جهنمية الآن.. لماذا تشعر بوخز في ضميرها عندما تتذكر شخصًا ما قُتِل؟ سألتها وقد بدأت أشعر ببعض الارتياب:

- «انتِ في حاجة عن (سارة) ماقلتيهاليش؟»

ظلت تنظر لي لوهلة ثم مدت يدها وأطفأت سيجارتها في

المطفأة ثم أخذت حقيبتها وقالت بعصبية:

- «مش انتَ بتقرا الأفكار يا دكتور؟ ابقى اعرف لوحدك بقى إيه اللي أنا ما قلتهوش»

ثم اتجهت للباب في خطوات سريعة.. شعرت بالدم يصعد إلى رأسي فصحت:

- «استني!»

التفتت لي ونظرت لي بحدة فقلت بعصبية لم أستطع منعها:

- «أنا مقولتش إني بقرا الأفكار، قلتلك إن مافيش حد بيقرا الأفكار، وقلتلك برضو إن كل حاجة بوصلّها بيبقى من الكلام اللي انتِ بتقوليه، مش عايزة تحكي ليه يا (ليلى)؟ إيه الحاجة اللي مخلياكي حاسة بالذنب من ناحية (سارة)؟»

ظلّت تتطلع إليَّ وقد تكوَّنت في عينيها نظرة نارية، ثم فتحت الباب وغادرت وأغلقته خلفها في عنف..

شعرت كأنما قد صفعني أحدهم على وجهي.. لماذا لا يكف النساء عن أن يتصرفن كالمجانين؟..

التعامل مع النساء ليس بالأمر السهل، سواء كانت مريضة نفسية أم لا..

ولن تعرف أبدًا إن كن كذلك فعلًا..

لكن السؤال ظل يدور في رأسي فلم يدع مجالًا لأي شيءٍ آخر..

ترى ما الذي تخفيه (ليلى) عني؟.. ما الذي لم تحكِه عن (سارة)؟..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

- «بريـك يـا جماعـة، هايل، كنتوا أحسـن مـن كل مرة، وانتَ، اضبط الـ violin عشان out of tune سيكا»

هـز عـازف الكمان رأسـه فابتسـمتُ فـي مرارة، لـم تكن الكمان تحتاج إلى ضبط، لكن (ياسـمين) هي تحتاج من وقت لآخر أن تثبت أنها مسيطرة..

ما زلت أشـعر بصداع شـديد منذ أن كنت عند ذلك الضابط الذي يتصرف كما لو كان يعرف كل شـيء مسـبقًا.. أمضيت معه سـاعات عديدة، يسأل سـؤال ثم يعود ليسأل نفس السؤال، أعتقـد أنـه يفعل ذلك بحثًا عن اختلافٍ ما، شـيء ما سـأقوله ثم سأسرده بطريقة مختلفة، يبحث عن شرخ في جدار ما أحكيه، ولن يجد..

ماذا يعرف هو عن أي شيء؟..

(ليلى) و(ياسـمين) أيضًـا، لو كنت أعرف منـذ البداية أنهم على علاقة بـ(سـارة) مـا كنت لأقبل أن أنضـم للفرقة، لكنني عرفت من (سيف)، وسيشك بالتأكيد إذا تركتهم الآن..

أعلـم أن مـا قلته لـه عن أنهمـا على اسـتعداد لفعل أي شـيء سـيجعله يشـك فيهما.. لم أكـن أقصد هذا، مـا قصدته هو ما وصلـت إليـه أخيرًا بناءً علـى تجربة عملية عشـتها وخرجت منها باستنتاج لن أقبل أن يناقشني أحدهم فيه..

النساء يستطعن فعل أي شيء، بالذات هؤلاء من نوعية (سارة) و(ليلى) و(ياسمين)..و... و(مي)

ويستحقون القتل..

كلهن..

نظرت لـ(كارما) فوجدتها تنظر إليَّ بابتسامة عذبة.. ظللنا نتبادل النظرات طوال العزف في محاولة منِّي لئـلَّا أغرق في أفكاري السوداء التي ستأخذني إلى الاكتئاب كما فعلت من قبل، لا، لن تسيطر عليَّ هذه المرة.. كيف لم ألحظ نظرات (كارما) من قبل؟ أنا غبي فعلًا كما يقول (وليد)، لا يهم أن يكون هناك مسمى للعلاقة.. أحيانًا يقول أشياء لا يقولها غيره..

(وليد).. أشعر بالشفقة نحوه هو الآخر في أوقات كثيرة، هو لا يعلم أهميته في حياة كل مَن يعرفه، لكنه ينظر للأمر فقط من وجهة النظر الأنثوية؛ إن لم يكن مهمًّا في حياة أنثى ما، فليذهب كل من يعرفه إلى الجحيم، لكنه لم يمر بما مررت أنا به، ويعتبر أن مجرد عدم وجود أنثى في حياته مشكلة تجعل حياته لا تطاق..

ماذا يعرف هو الآخر عن الحياة؟..

جميعهم لا يعرفون ما أمرُّ به الآن.. الموضوع أعقد مما يتخيلون..

هززت رأسي لأنفض تلك الأفكار، وهممتُ بالذهاب إلى (كارما)، لكني وجدت فجأة من تقف أمامي وتضع يدًا على خصرها ويدها الأخرى التي لا يوجد بها إصبع بدون خاتم واحد

على الأقل ممسكة بسيجارة ترفعها بجانب وجهها..

(ليلى)..

لم أتوقع أن تتحدث معي مجددًا، فما فعلته أنا في المرة السابقة كان سخيفًا إلى حدٍّ كبير، صحيح أنني صرت أؤمن تمامًا أنهن -الفتيات- يستحِقُّن تمامًا أن يعامَلْنَ بهذه الطريقة، لكني لم أتوقع أن أجدها تقف أمامي الآن.

نظرت إليها لوهلة ثم تصنَّعت أني أعبث بأحد أزرار الأورج لعلها تنصرف..

- «مش حتتأسفلي؟»

التفتُّ لها ورفعت حاجبيَّ لأعلى، لن تتوقف عن إبهاري بتصرفاتها الغريبة، ضحكتُ في سري في مرارة لكني لم أُبدِها لها، عدت أعبث في لوحة المفاتيح لثوانٍ ثم نظرت إليها وقلت:

- «أتأسفلك على إيه؟»

عبثت بلسانها داخل فمها ثم عضت زاوية شفتها السفلى وقالت:

- «مافيش حد يعامل بنت بالطريقة اللي انتَ عملتها دي»

فكرت أن أقول لها وأنا أيضًا لا أظن أن هناك فتاة تحترم نفسها تعرقل الفتيان كنوع من المزاح، لكني آثرت ألَّا أفعل، الحديث معها لن يوصل إلى شيء، سأجعلها تنصرف ثم سأذهب لـ(كارما).

- «خلاص يا ستي، أنا آسف»

قلتها وهممت بالنهوض فوجدتها تمد يدها وتضعها فوق يدي الموضوعة على الأورج وتقول بصوتٍ خافت وهي تنظر في عينيَّ مباشرة:

- «أنا كمان آسفة، اللي عملته ده كان سخيف برضو.. انتَ ماكانش ينفع إني أهزر معاك كده، وكان عندك حق في اللي انتَ عملته، لو ماكنتش عملت كده ماكنتش حتبقى راجل بجد»

نظرت ليدها الموضوعة على يدي ثم رفعت عيني إليها في استغراب.. تعريفها لكلمة «رجل» غريب نوعًا، هل لأنني رفضت أن تمزح معي هكذا أصير في عينيها رجلًا مكتمل الرجولة؟ هززت رأسي وسحبت يدي من يدها وهممت بالذهاب مرة أخرى لكنها مدت يدها إليَّ وقالت بابتسامة واسعة:

- «على فكرة إحنا كل ده ما اتعرفناش بجد.. أنا (ليلى)، صاحبة (ياسمين)، في رابعة تجارة، مابعزفش بس بحب المزيكا»

نظرت ليدها الممدودة ولم أجد بُدًّا غير أن التقطها في يدي وقلت:

- «أنا...»

قاطعتني قائلة:

- «أنا عارفة، انتَ (أدهم)، (أدهم الكحكي)، حضرت لك حفلة أو حفلتين تقريبًا قبل كده، انتَ بتعزف حلو أوي، غريبة إنك دخلت طب»

كانت يدها لا تزال في يدي، لسببٍ ما لم أردها أن تسحب يدها، ولم تفعل هي في الواقع.

- «أنا خدت بالي إنك وانتَ بتعزف ساعات كتير بيبقى

ملامـح وشـك زي ماتكون بتتألم، زي ما يكـون في حاجة انتَ حاسس بيها غير اللي بيحصل حواليك»

نظرت إليها في استغراب.. لم يجانبها الصواب فيما قالته.

- «انـتَ عارف، أكتر وقت انتَ بتعزف حلو فيه بيبقى الوقت اللي بيبقى شـكلك كده؟ انتَ عارف إن دا كدا الـ defensive mechanism بتاعك؟ انتَ بتحول الطاقة السلبية لإبداع»

لـم أرد.. كنـت قد قرأت مـن قبل عن موضوع الـ defensive mechanism هـذا وأعلم تمامًا مـا تتحدث عنه، تذكرت مقولة there's more about here than meets the eye.. تبـدو فتـاة مجتمـع موسـيقي، تقليدية، من مدَّعـي الثقافة ومحبي التشـبه بالجانـب المظلـم مـن الغـرب، شـاربات الخمـر والسـجائر وما بينهما، لكن يبدو أنها تختلف بشكلٍ أو بآخر..

- «وانـتِ بقـى تجـارة قسـم علـم نفـس ولا بتحبـي تعرفـي الـ defensive mechanism بتاع الناس في وقت فراغك؟»

ضحكت وهي ترجع بجزعها إلى الوراء ثم تعود ثانية، تمايلها وهي تضحك يمكن أن يوضع في أحد المراجع الطبية تحت شعار «هكذا تضحك الأنثى»، قالت أخيرًا بعد أن فرغت من الضحك:

- «وده بقـى الـ defensive mechanism التانـي بتاعـك، انتَ بتألِّـس وتتريق على كل حاجة، وأولهم نفسـك، بتهرب من الواقع بالتريقة عليه، كأنه مش بجد، كأن كل اللي بيحصل ده هزار».

هذه المرة أخافتني فعلًا.. ما تقوله حقيقي إلى حدٍّ لا يوصف.. تأملتها، هي أيضًا خلف جمالها يوجد شـخص آخر يختبئ، إذَن

فلنبدأ المبارزة..

- «وانـتِ بتضحكي بس من غير عينيكي ما تضحك، زاوية عينيكـي زي ما هـي، مابتتكرمشّ وانـتِ بتضحكي.. يعني، إلـى حـدٍّ ما، بعرف أفرق ما بين اللي اتعلم يضحك عشـان يخبي اللي جواه، وبين اللي بيضحك فعلًا.. من قلبه»

ظلـلَّ كلٌّ منَّا ينظر فـي عيني الآخر لوهلة، لا أنكر أن كل مـا فيهـا جميـل، ولا أنكر أيضًـا أنه، لأشـياء ليس لهـا علاقة بجمالها، شعرت أنني أنجذب إليها رويدًا رويدًا..

- «انتِ موضوع علم النفس ده هواية ولا بتغيري **career** وكده؟»

ضحكت مرة أخرى ثم قالت:

- «لأ، بحب أقرا، يعني، أفهم الناس، أفهمني **mainly**»

- «وانتِ مش فاهمة نفسك؟»

- «إيه مش واخدين بالكم إن البريك خلص ولا إيه؟»

التفتنـا نحن الاثنان إلى (ياسـمين) التي وقفـت بجانبنا وعلى وجهها ابتسـامة صفراء ويبدو من جسـدها الـذي كان يهتز أنها كانـت تهـز قدمها في عصبيـة، كـانـت تنقل بصرهـا بيننا ثم تطيـل النظـر إلى (ليلى).. قلـت وأنا أحـاول أن ألطف من غضبها الواضح والذي لا أعرف له سببًا من الأساس:

- «احنـا **already** ماطلعنـاش بـرة الاسـتوديو يا (ياسـمين)، عايزة نبتدي يلا»

ظلـت تنظر لـي لوهلة بعصبية ثـم لان وجهها قليلًا وابتسـمت ابتسامة أكثر صفارًا مما سبقتها، ثم قالت بحماس مزعوم:

- «استعدوا بقى عشـان حفلة الساقية كمان يومين، عايزين نطول في البروڤات شوية النهارده وبكره»

- «هو أنا ممكن آجي معاكم؟»

التفتنا جميعًا إلى (كارما) التي احمر وجهها بشدة وقالت بصوتٍ متلجلج:

- «آآآ أنا ممكن أطلع وراكم بعربيتي، أنا بس عاجبني اللي انتوا بتعملوه وكنت آآآ»

قالت (ياسمين) على الفور:

- «لأ يا حبيبتي طبعًا، انتِ حتيجي معانا في الـ bus، أكيد (أدهم) حيحب إنك تبقي معانا»

قالتها ونظرت إليّ، ضيَّقتُ حدقتي رغمًا عني وأنا أنظر إليها كأنما أحاول أن أرى ما وراء ما قالته، تصرف غريب من (ياسمين)، لا أنكر أنها استقبلت (كارما) بحفاوة عندما حضرت معي إلى البروڤة في بداية اليوم..

هل هي تغير على (ليلى) حقًّا؟..

من المرات القليلة التي تمنيت ألا يكون (وليد) محقًّا، نظرت إلى (كارما) فوجدت السعادة تطل من وجهها كالنور، نظرت إلى (ياسمين) مرة أخرى وابتسمتُ لها شاكرًا في محاولة ألا تبدو ابتسامتي صفراء للغاية مثل ابتسامتها..

- «يلا يا جماعة كل واحد مكانه.. حنبدأ حالًا، عايزاها تبقى أحلى مرة عزفنا فيها الأغنية دي»

❖ ❖ ❖

«إبراهيم»

- «ها يا (ابراهيم)، جبتلي اللي قلتلك عليه؟»

وضعتُ الملف أمامه على المكتب ثم قلت بأدب:

- «زي ما سيادتك طلبت يا (سيف) بك، تحركات العيال المشتبه فيهم في قضية القتل يا فندم»

ظل ينظر للملف الموضوع أمامه ولم يمد يده إليه، لم يتحرك في الواقع أو يقل أي شيء، ظل على هذا الوضع قرابة الدقيقة، كنت قد تعودت على شرود ذهنه الشديد وأفكاره الغريبة عن القضايا التي أعمل معه فيها، الفترة التي تليت انفصاله عن زوجته كانت سيئة، لكن هذه الفترة كانت أغرب من أي فترة أخرى..

قال أخيرًا وهو يشير إلى الملف دون أن ينظر إليّ:

- «انتَ آآآ شفت الواد اللي اسمه آآآ هاهاها، مش عارف ليه افتكرت الأغنية بتاعة شفت الواد اللي اسمه علي جه الدكتور وعمله إيه، هاهاها.. آآآ (أدهم)، الدكتور ده اللي في طب، كان بيروح فين الفترة اللي فاتت دي؟»

هذا الرجل فقد عقله تمامًا! يتذكر أغنية أطفال وهو يتابع ملف قضية قتل؟.. قلت محاولًا أن أفكر في القضية فقط كي لا أجن مثله:

- «المعتاد يا باشا، البروقة مع الفرقة اللي فيها البنتين اللي

اسمهم (ليلى) و(ياسمين)، النادي، والبيت، بيقعد كتير في البيت سيادتك، آه نسيت أقول لسيادتك حاجة كمان، أول مرة في البروڤات راح ومعاه واحد اسمه (وليد)، صاحبه، في واحدة اسمها (كارما) راحت معاهم مرة واحدة بس، هي معاهم في نفس الكلية برضو، بس المعلومة اللي عندي إنها ما لهاش أي صلة بأي حد في الفرقة غير (أدهم) و(وليد)، يعني أعتقد ممكن نستبعدها من لستة المشتبه فيهم»

ظلَّ صامتًا وهو ينظر إلى ركن الغرفة، وبدا شارد الذهن كالعادة، دائمًا ما يطلب مني أن أعيد ما قلته أو يسأل أسئلة تدل أنه لم يستمع لأي شيء مما أقول.. التفتَ إليَّ أخيرًا وقال فجأة:

- «تفتكر بيعمل إيه في البيت يا (ابراهيم)؟»

نظرت له في عدم فهم.. أحكي له كل هذا، ويسألني هو عمَّا يفعله (أدهم) هذا في المنزل.

- «معرفش يا باشا»

تراجع في كرسيِّه وضحك في عصبيه وهو يحك جانب رقبته الأيسر بيده اليمنى ثم أشار لي وقال:

- «عارف يا (ابراهيم)، كل الأماكن اللي بيروحها دي عادية، ولا البروڤة، ولا النادي، البيت يا (ابراهيم)، اللي خلاه يقتل، لو هو اللي قتل فعلًا زي ما أنا متخيل، هو البيت، السر في البيت يا (ابراهيم)»

لم أفهم أيضًا ما يرمي إليه لكني صمتُّ تمامًا، ليس احترامًا له، ولكن لأني لا أجد ما يقال فعلًا، شرد ببصره مرة أخرى ثم

نظر لي وقال:

- «هو طبعًا احنا ما معناش أدلة كافية عشان نجيب إذن نيابة نفتش بيه بيته، صح؟»

هززت رأسي وقلت:

- «لأ يا باشا، مافيش بصمات، سلاح الجريمة مختفي، وكمان علاقته بالقتيلة انتهت من فترة، ودي صحوبية يعني مش متجوزين ولا حاجة عشان نلبِّسهاله»

ضحك كأنما أخبرته بدعابة جيدة وقال وسط ضحكاته:

- «فعلًا، لو كان جوزها كانت تبقى أحسن بكتير، على الأقل كانت تبقى تستاهل»

واستمر في الضحك لفترة وأنا أنظر إليه ولا أجرؤ على التحدث، توقف أخيرًا عن الضحك ثم قال وهو يفتح الملف أمامه:

- «ماشي يا (ابراهيم)، سيبلي الملف واتكل انتَ على اللّه، وخليك حاطط العيال دي كلهم تحت المراقبة برضو.. آه صحيح، عايز شوية معلومات كده عن بقية صحاب (سارة)، يعني، أدينا بننفخ في الزبادي»

أومأتُ برأسي ثم اتجهت للباب بسرعة قبل أن يطلب شيئًا آخر..

لقد أدركت تمامًا الآن أنني صرت أعمل تحت إمرة شخص مختل عقليًّا..

مختل عقليًّا تمامًا..

«ليلى»

- «إنتِ عارفة إنك وحشتيني بجد؟»

قلتها وأنا أعني بها فعلًا، لم أرها منذ ما يزيد عن الشهرين لكننا كعادتنا ما أن نلتقي حتى نشعر أننا رأينا بعضنا البعض أمس فقط، أو هكذا ما أشعر به، وإن كنت واثقة تمامًا أنها تُكن لي نفس الشعور..

فهكذا هي (مايا).. الصديقة الحقيقية الوحيدة في حياتي البائسة..

- «إنتِ كمان وحشتيني يا (ليلى)، بقالنا كتير ماشفناش بعض، يلا، إحكيلي على كل حاجة، إنتِ عارفاني بحب أسمع حكاياتك»

وهذه كانت الميزة الأخرى في (مايا)، أو هي أفضل ميزاتها على الإطلاق.. (مايا) تستمع فعلًا لما أقول، تستمع بكيانها كله، لم أعرف لماذا كنت أشعر بالراحة دائمًا عندما كنت أتكلم معها، إلا بعد أن بدأت أقرأ في علم النفس.. تنظر في عينيّ دائمًا ولا تفارقهما، تومئ برأسها، تبتسم، تقطب، تتسع عيناها في دهشة، تضيق لتحاول الفهم، يتغير الانطباع على وجهها وفي عينيها مع ما أقول، كما لو كنًّا نتدرب على كيفية رسم الانطباعات على الوجوه أثناء الكلام..

الخلاصة أنني أحبها وكفى، كصديقة فقط، إن كان

رأسك قد ذهب لاتجاه آخر..

والأجمل من ذلك أنها تعرف كل شــيء عني.. لكنها للأسف ذهبـت لتعمـل في أحد الفنادق في (شــرم الشــيخ) بعد تخرجها ، فهي تكبرني بعامين، لذا لا أراها إلا قليلًا ، ولذلك كان وجود (حسين) مهمًّا في حياتي في هذا الوقت..

- «هحكيلك بس واحنا بنشرب الـ **American Coffee** بتاعتنا زي زمان»

وطوال ما يزيد عن الســاعة ظللت أخبرها بكل شيء، كأن فيضانًا خرج من روحي بعد أن فاضت ليستقبله صدرها الرحب..

عدلت من نظارتها الطبية والتي -مع حاجبيها الرفيعين- تزيد من غموض عينيها الخضراوين، ثم أزاحت شعرها الأسود الناعم ذو الخصلات الكستنائية عن عينيها وقالت:

- «بصــي يـا (ليلـى)، إنتِ محتاجـة اللي ترتبطي بيـه ده يبقى شــخصية قوية، إنتِ تباني للي مايعرفكيش إنك قوية ومسيطرة و**strong independent** وكل الهبـل ده، بـس انـتِ ضعيفـة يـا (ليلى)، وماينفعش تتسندي على حد ضعيف برضو»

لا أفهم ما تقول، أنا أخبرها عن (أدهم) فتخبرني أنني بحاجة إلى شخص قوي؟ وما هو إذَن إن لم يكن قوي؟ قلت:

- «أنـا مـش عارفـة انتِ بتقولي كـدا ليه، أنـا حكيتلك هو عمل إيه معايا»

- «(ليلـى)، إنـتِ مفتقـدة راجـل فـي حياتـك، ومعتقدش إن (ياسمين) عارفة تملى الفراغ ده مع كل اللي هي بتعمله»

قالتها بصوتٍ عال نسبيًّا، يبدو أنها رأت الحزن في عينيّ لأنها مدت يدها وأمسكت يدي وضغطتها في رفقٍ في يدها وقالت وهي تمسح بيدها على شعري:

- «(ليلى)، إنتِ رقيقة وجميلة، بس ضعيفة، إنتِ عديتي بحجات كتير أنا عارفاها كويس، أنا بس مش عايزاكي تتسرعي، إنتِ مش حمل حاجة تانية تحصلك، ممكن بس تعرفي (أدهم) ده أكتر شوية وبعدين تقرري؟»

نظرت في عينيها.. كم كنت أفتقد إحساس الحنان هذا الذي لا يعطني إيَّاه إلا هي، كم أتمنى أن أذهب بعد التخرج إلى العمل معها، على الأقل ستصير بجانبي دائمًا.. أومأت برأسي وابتسمت وأنا أشعر بالدموع تتكون في عينيّ..

- «يا حبيبتي، إنتِ بتعيطي، تعالي، تعالي»

وسحبتني إليها برفق وضمتني إلى صدرها، وهنا، ومع هذا الحنان الغامر الذي كنت أتوق إليه كما لم أتوق إلى شيء آخر من قبل، وجدت دموعي التي لم تتهمر منذ فترة طويلة تسيل كالشلال على خدِّي..

لم أدرِ كم مرَّ من الوقت، كنت أشعر بيدها ترْبِتُ على ظهري وتمسح على شعري، أحسستُ أنني لا أريدها أن تتركني، أريد أن أظل هنا للأبد، بين أحضانها، ستحميني بكل تأكيد من العالم، من كل شيء..

هدأت أخيرًا ورفعت رأسي ونظرت إليها، وجدتها هي الأخرى عيناها ممتلئة بالدموع، مسحت دموعها بيدي وقلت:

- «حُضنك حلو»

ابتسـمَت، تذكرتُ شيئًا ما أشعرني بالقلق بعد أن كنت قد نسيت كل شيء في حضنها فقلت:

- «تفتكري (ياسـمين) حتعمل إيه لـو عرفت؟ دي قالتلي إنها ممكن تقتل عشاني»

أجفَلَـتْ، يبـدو أنها تفاجأت بما تسـمعه مني، نظـرَت للجهة الأخرى وبدا عليها التفكير، ثم التفتت إليَّ وقالت بهدوء وإن لم تستطع تمامًا إخفاء توترها:

- «سـيبي موضوع (ياسمين) دا دلوقتي، حنفكر فيه بعدين، ده لو اتأكدتي فعلًا إنتِ عايزة مين فيهم»

فتحـتُ فمـي لأقـول ما أشـعر بـه لكنني لـم أفعل.. أنـا غير متأكدة فعلًا من أي شيء.. قلت لها:

- «(مايـا)، إحنـا طالعيـن بكـرة القاهـرة، أنـا عارفـة إنك قاعـدة لغايـة يـوم الحد، أنـا عايزاكـي تطلعي معانـا، تتعرفي علـى (أدهـم)، عايزاكي تشـوفي كل اللي بحكيلـك عليه ده بعينيكي وتقوليلي رأيك»

بـدا عليها التردد، يبدو أنني سـأثقل عليهـا بطلبي هذا.. أعلم تمامًا أن (مايا) و(ياسـمين) ليسـا على وفاق مـع بعضهما البعض وكل منهمـا تتمنـى للأخـرى أن تذهـب إلـى الجحيـم.. لكنـي أريدها فعلًا أن تأتِ..

- «آآآ مـش عارفة يا (ليلى)، أنا بس آآآا أنا مش عايزة أشـوف (ياسمين)»

قلت على الفور:

- «إنـتِ مـش حتتعامـلـي معاهـا تقريبًـا ، أنـا وانـتِ حنفضـل قاعديـن مع بعض، هـي حتبقى بتفكر فـي الحفلة ومش حتبقى فايقـة أصـلًا ، وحخليكـي تتكلمـي مع (أدهم) عشـان تقوليلي رأيك فيه، ها؟ قولي موافقة، عشان خاطري، عشان خاطري»

مطت شفتيها وابتسمت ثم زفرت أخيرًا وقالت:

- «ماشي يا ست (ليلى)، عشان خاطرك»

ضممتها في سعادة ثم قلت لها في فرح:

- «حتبقى رحلة مش حتنسيها.. وحفكرك»

❖ ❖ ❖

«أدهم»

- «إحنا أول مرة نتكلم كل ده، مش كدا؟»

رفعَت كتفيها إلى أعلى وأخذت نفسًا عميقًا وهي تنظر إليَّ رافعة حاجبيها قليلًا.. وأومأَت برأسها دون أن ترد..

يا لي من معدوم الإحساس فعلًا.. كيف لم أفطن لهذا وكل ما في ملامحها وإيماءاتها ونظراتها يشي بالإعجاب، إن لم يكن بالحب؟..

لكني للأسف لم أشعر نحوها سوى بالشفقة، فقط الشفقة.. أنا أعرف تمامًا كيف يكون شعور أن تحب شخصًا ما ثم لا يعد هناك.. لا أعرف مَن قائل عبارة: «فاقد الشيء لا يعطيه»، أعتقد أن العكس تمامًا هو الصحيح، فاقد الشيء يعرف تمامًا مرارة فقده ويحاول جاهدًا ألا يكون سببًا في أن يشعر شخص آخر بهذا الفقد، لهذا السبب لا أريدها أن تشعر بما أشعر به الآن وأنا أتذكر كل ما مررت به.. أدرتُ عيني في المكان محاولًا تحاشي نظراتها حتى توقفت عيناي على ذلك البيانو الموضوع في الركن.. منذ أن وصلنا هنا وأنا ألقي عليه نظرة بين الحين والآخر، لا أستطيع رؤية هذا الجسد الأسود المهيب دون أن تتوقف عيناي عنده لبعض الوقت، بل إنني اخترت هذا الكافيه بالذات لأنني لا أعرف مكانًا آخر به بيانو ويقع على مقربة من الاستوديو في منطقة (كفر عبدو) كلها..

- «للدرجة دي بتحب البيانو؟»

التفت إليها فوجدتها تنظر هي الأخرى إلى البيانو، ابتسمت ولم أرد، ظلت هي تنظر إليه لبعض الوقت، ثم الْتفتَت إليَّ وقالت:

- «إنتَ عارف إننا كان عندنا بيانو قد ده تقريبًا في البيت وأنا صغيرة؟»

التفتُّ مرة أخرى للبيانو، ثم عدت ألتفت إليها وأنا أتعجب مما تقول.. بيانو بهذا الحجم لا يمكن أن يتواجد في بيتٍ عادي، لن يدخل من الباب من الأساس.. الأمر يحتاج إلى ڤيلا كبيرة نوعًا.. لم ألحظ عليها إطلاقًا ما يشي بأنها على قدر من الثراء، ملابسها عادية جدًّا، منمقة ومختارة بعناية إلا أنها بسيطة، كما أنني لم أرَ منها ما يدل على أنها من مدعيات الثراء.. الحقيقة أنني اكتشفت الآن أني لا أعرف عنها أي شيء على الإطلاق.. إلا أنني لا أريد أن أُبدي اهتمامًا زائدًا بها حتى لا تفهم اهتمامي هذا بشكلٍ خاطئ، يكفي أننا هنا الآن بمفردنا، في هذا الكافيه الرومانسي.. لكني ما أن سمعت أنه كان لديها بيانو في منزلها وأنا لدي شغف في أن أعرف تفاصيل أكثر.. قلت لها وأنا أستند بمرفقي على المنضدة وأسند رأسي على كفيَّ المضموتين:

- «(كارما) انتِ ماحكيتليش أي حاجة عنك، كل كلامنا كان عليَّا أنا، أنا معرفش باباكي بيشتغل إيه، مامتك، أنا معرفش حتى انتِ ساكنة فين لغاية دلوقتي، متخيلة؟»

ابتسمت وهي تنظر للبيانو مرة أخرى ثم قالت دون أن تنظر إليَّ:

- «إنتَ عارف، أنا بفكر في حاجة واحدة بس دلوقتي»

ثم التفتت إليَّ بعينين لامعتين وقالت في جَذَل:

- «إنك تعزفلي، عالبيانو ده»

رفعت حاجبيَّ لأعلي وتراجعت في مقعدي وقلت:

- «مش يا بنتي كنا لسا في البروڤة وسمعتيني وأنا بعزف تقريبًا أربع ساعات ورا بعض؟ إيه، ما زهقتيش؟»

مالت إلى الأمام وارتسمت ابتسامة عذبة على وجهها وقالت برقة:

- «أنا عمري ما بزهق وأنا بسمعك بتعزف، بالعكس ببقى مستمتعة جدًّا»

ظللنا نتبادل النظرات لوهلة.. لا تتمادي أرجوكِ، دعينا لا نضع لافتة لتلك العلاقة وقد كتب عليها مسمى لن يتحقق فنضطر إلى نزعه والابتعاد.. لا يوجد سوى حل واحد كي أتحاشى نظراتها تلك.. وأمام عينيها الجذلتين، قمت واقفًا واتجهت إلى البيانو، صفَّقت هي بكفيها بفرح طفولي، وصلت للبيانو ومددت يدي نحو سطحه الأملس وشعرت بقشعريرة غريبة وأنا أمرر يدي عليه حتى وصلت إلى المقعد فجلست، لم أنظر إليها، كنت كمن وجد نصفه الآخر ولم يعد في الكون كله من أحدٍ حولهما.. كورت يديَّ وبدأت أعزف..

وجدت أصابعي تعزف مقطوعة **A Night on the Bare Mountain** لـ **Modest Mussorgsky**، شعرت أنني أحلق بروحي فوق المكان، فوق الموجودين، هناك شيء ما ينساب من البيانو

إلى أصابعي، ثم يسري في جسدي كله حتى يلتحم بروحي، أنا ذلك الشـيء، أنا لست مادة، أنا شيء آخر، شيء أكثر رقي من المادة تلك التي تفنى أو تتعفن حسب مكوناتها، أنا...

ثم ارتعدت وتوقفت عن العزف فجأة عندنا لامست تلك اليد كتفي..

نظرت إلى يسـاري بعينين متسـعتين، فوجدت من يقف هناك ويبدو عليه الإحراج..

- «أنا آسـف يا باشا، بس الناس تقريبًا يعني... خايفة من اللي انتَ بتعزفه، اللّه ينور وكل حاجة، بس حضرتك بص وشوشـهم عاملة ازاي؟»

ظللـت أنظر لـه بنفس العينين المتسـعتين كما لـو كان قد أيقظني من حلم ما، ثم أدرت وجهي والْتفتُّ إلى الجالسين..

لم أدرِ إلا الآن أن الصمت قد عمَّ المكان تمامًا، الكل ينظر تجاهي، عيونهم هي خليط من عدم الفهم والتوتر والخوف، يبدو أننـي قد اندمجـت بالفعل فلـم ألحظ إنني كنـت أهتز وأغمض عيني وأتحرك بعصبية وأنا أعزف تلك المقطوعة، ألا تفهمون يا أغبياء، لا بد أن تُعزف هكذا، لا يمكنها أن تلامس روحك إلا لو انغمسـت فيها بكل جوارحك.. نظرت إلى (كارما) فوجدتها -على عكس كل الجالسين- تنظر لي بسعادة غامرة وهي تضم كفيهـا أمـام صدرها كطفلة عاد أبيها مـن الخارج وأحضر لها الحلـوى التي تعشـقها.. التفـت للنادل مرة أخرى وأومأت برأسـي وأنـا أقـوم من علـى الكرسـي وأتَّجهُ بسـرعة إلى حيـث تجلس (كارمـا)، لـم أدرِ أننـي عبوس الوجـه وأن حاجبـي مقطبين إلا

عندما وجدت النادل يقف بجانبي ويقول:

- «باشا، أنا آسف لو كنت ضايقتك، أنا شايف حضرتك مكشر، أنا بعتذر فعلًا، أنا بس آ...»

قاطعته بلهجة حادة:

- «الشيك بعد إذنك»

ابتلع ريقه وفرك كفيه أمام صدره وهو يقول:

- «يا فندم واللّه مش قصدي، ما ينفعش إن حضرتك تمشي وانتَ زعلان، ممكن حضرتك تكمل عزف لو...»

ثم قطع كلامه فجأة وبدا في عينيه التوتر وهو ينظر إلى عيني مباشرة، لا بد أن شيئًا ما في نظراتي أصابه بذلك؛ لأنه قال على الفور وهو يومئ برأسه في تهذيب مبالغ فيه:

- «حالًا يا فندم حجيب لحضرتك الشيك»

ثم ابتعد في خطواتٍ سريعة..

- «هو قالك إيه عشان يضايقك كده؟»

قالتها (كارما) بعصبية والغضب بادٍ على وجهها، ابتسمت لها ابتسامة واهنة نجحت بصعوبة في رسمها على وجهي، ثم نظرت للجهة الأخرى..

- «إنتَ عايز نمشي ليه؟ أنا مبسوطة يا (أدهم) وأنا معاك، ممكن تقولي إيه اللي مضايقك؟»

زفرتُ بعمق وقلت محاولًا إنهاء تساؤلاتها:

- «مافيش يا (كارما)، الناس ماعجبهاش بس اللي كنت

بعزفـه وهو قالي أعزف حاجـة تانية، هو كان ذوق الحقيقة، ما قالش حاجة تضايقني، أنا بس تعبان شـوية وعايز أمشــي فعلًا، كدا كدا عندنا سفر بكرا القاهرة»

مـدت يدهـا ووضعتها على يـدي، لم أبعـد يدي هـذه المرة، كنـت بحاجة فعلًا للمسـة احتواء تبدد تلك الغصـة التي تعتصر قلبي.. نظرَت هي في عينيَّ وقالت بصوتٍ خافت:

- «أنا مش هاممني إنهم ماعجبهمش اللي انتَ كنت بتعزفه، أنـا كنـت فعلًا مسـتمتعة وأنا بسـمعك بتعـزف، ودلوقتـي وأنا بسمعك بتتكلم، (أدهم) أنا كل حاجة انتَ بتعملها أنا بحبها»

قالتهـا وضغطت علـى يدي كأنمـا تريد لكفينـا أن يلتحما فيشعر كلٌّ منَّا بنبض الآخر..

- «إحم»

رفعـت عيني إلـى الصوت لأجـد النادل يقف في إحـراج ويمد يده إليَّ بالظرف الجلدي الذي يحوي بين شـقيه ورقة الحسـاب، تناولتـه منه فأسـرع مبتعـدًا، وضعت النقود بهدوء اسـتغربت أنا شـخصيًّا منـه ثم قمـت واقفًا وابتسـمت لـ(كـارمـا) التي اتجهت نحوي ووقفت تنظر لي بعينيها الرقيقتين..

وكما لو أننا قد اتفقنا مسـبقًا علـى ذلك، تعانق كفَّانا، ثم اتجهنـا سـويًّا إلى باب المكان ونحن نسـترق النظـر بين الحين والآخر إلى بعضنا البعض..

❖ ❖ ❖

«وليد»

نظرتُ إلى (إيهاب) الذي يجلس بجانبي بجوار الشباك ويبتسم ابتسامة بلهاء وهو يضع سماعاته في أذنيه وأنا ألعن حظي الذي لا يريد بتاتًا أن يتغير..

(أدهم) يجلس بجوار (كارما) أمامي على اليمين، أمامي بعدة مقاعد على اليسار تجلس (ليلى) بجوار (مايا) صديقتها التي اكتشفت عندما رأيتها أن النساء الجميلات يختفين ولا يظهرن إلا في مناسبات مثل تلك، انتشر باقي الفرقة في الأوتوبيس بدون ترتيب معين، (ياسمين) جلست وحدها في الأمام، كانت تبدو غاضبة من وجود (مايا)، كانت تنظر لها بغِلٍّ مبالغ فيه عندما رأتها وقد وصلت هي و(ليلى)، يبدو أنني على حقٍّ فعلًا في موضوع (ليلى) و(ياسمين) هذا، (ندى) تجلس خلف (ياسمين) بعدة مقاعد، أنا لا أعرفها لذا أعتقد أنني لن أستطيع أن أذهب إليها الآن وأقدم لها نفسي وأطلب الجلوس بجانبها، سأكون سخيفًا بعض الشيء، أليس كذلك؟

نظرت مرة أخرى لـ(إيهاب) ثم نظرت أمامي وهززت رأسي وأنا لا أعرف لماذا يحدث لي ما يحدث..

كان (أدهم) يضع السماعات في أذنيه ويبدو شاردًا، (كارما) تنظر له بين الحين والآخر ثم تدير رأسها للجهة الأخرى.. لن يكف عمَّا يفعله ذلك التَّعِس.. قام من مجلسه فجأة ثم اتجه إلى

حيث تجلس (ندى)، التفتَت إليه وابتسـمَت، أعطاها السماعات وقال لها شـيئًا ما لم أسـمعه عبر تلك المسـافة، أمسـكت هي بالسماعات، أخذ يعبث بهاتفه ثم نظر إليها وابتسم، نظرت هي بعيدًا ثم نظرت إليه ثانية ورفعت حاجبيها وابتسمت هي الأخرى.. يبدو أنه يُسـمِعها صوت مُغنٍّ ما راقَ له.. لم أرهم يتحدثون كثيرًا في البروفات لكنه دائمًا ما يفعل نفس الشـيء.. يسـمع مقطوعة تُعزَف بالكمان فيسمعها لعازف الكمان على سماعته تلك التي يحبها لسـبب لا أدريه، قطعة من الجيتار تعجبه فيسـمعها لعازفة الجيتار.. هو يرى دائمًا أنه لن يفهم ما سمعه إلا عازف نفس الآلة.. تمنيت أنا الآخر أن أجد ولو أغنية لعبد المطلب لأُسمعها لـ(ندى) لعلـي أجلـس بجوارها قليـلًا ونتبادل الحديث، لكن ليسـت لي الكاريزما الموسيقية التي يتمتع بها (أدهم) بحكم صيته وليس لدي حتى كاريزما غير موسيقية على العموم!..

فرغت أخيرًا من سماع الأغنية وكان يبدو عليها أنها أعجبتها فعلًا، تبادلا بعض الكلمات ثم تركها (أدهم) ليعود إلى مقعده، وهنا أمسكَت به (ليلى) من يده فتوقف والتفت إليها، لم يكونوا بعيدين جدًّا لذا كنت أسمع ما يقولون..

- «ماعرَّفتكش، (مايا)، أقرب صاحبة ليا في الدنيا كلها، ممكن تقول إنها صاحبتي الوحيدة»

حيَّاها (أدهم) بابتسامة فقالت (ليلى):

- «(أدهم)، أحسن بيانسيت في اسكندرية إذا ماكانش في مصر كلها يعني»

- «هاي إزيك يا (أدهم)»

ابتسم (أدهم) وقال:

- «ماتصدقيش (ليلى)، أنا بعزف على قدي جدًّا»

شعرت بالغيظ، ليس هذا وقت تواضعك السخيف أيها الأبله..

- «(ليلى)!»

الْتفتنا جميعًا إلى الصوت العال لـ(ياسمين) التي كانت تنظر لـ(ليلى) ثم قالت بلهجة آمرة:

- «تعالي عايزاكي»

تبادلَت النظرات مع (مايا) ثم ابتسمت لـ(أدهم) الذي أفسح لها الطريق واتجهت إلى مقدمة الأوتوبيس حيث (ياسمين)..

- «أقعد يا (أدهم)، عايزة أتكلم معاك شوية»

ابتسم (أدهم) وقطب حاجبيه في استغراب ثم جلس بجوار (مايا)..

- «(وليد)!»

التفتُّ إلى الصوت فوجدت (كارما) تنظر إليَّ ويبدو على وجهها أنها على وشك البكاء.. فليذهب (أدهم) و(مايا) إلى الجحيم الآن.. هززت رأسي وأنا أنظر لها متسائلًا فقالت بصوتٍ حزين:

- «ممكن تيجي تقعد جنبي؟»

صُعِقت في البداية من الطلب، ثم عدت سريعًا إلى رشدي وقلت لنفسي إنها بالتأكيد ستحدثني عن أفعال (أدهم) السخيفة مثله.. غادرت مقعدي وجلست بجوارها، ازداد الحزن في عينيها واغرورقت عيناها بالدموع ثم قالت:

- «إنتَ قاعد لوحدك ليه؟»

لم أحب في حياتي شعور أنني كنت مخطئًا مثلما شعرت في تلك اللحظة.. لكني، ولأنني لم أعتد أن تبتسم لي الحياة، قررت أن هناك خدعة ما لا أعرفها.. قلت:

- «لأ، أنا مش قاعد لوحدي، أنا جنبي (إيهاب)، وزي مانتِ شايفة هو قاعد بيسمع في السماعات وأنا عمال أكلم نفسي أهو»

ضحِكَت ثم أدارت وجهها ونظـرَت إلى أعلى وعضت على شفتها السفلى، كانت الدموع تملأ عينيها بالفعل، وإن كان مظهر وجهها الآن بعينيها بشفتيها التي تعضها زادها حُسنًا إلى حسنها.. ترددت قليلًا ثم رفعتُ يدي، ثم خفضتها، ثم قررت أنني لن أستطيع السيطرة على يدي أكثر من هذا فرفعتها ثانية ولمست ذقنها لأدير وجهها إليَّ، نظرَت لي فقلتُ بصوتٍ خافت:

- «ممكن ماتعيطيش؟ مافيش أي حد يستاهل دموعك دي»

نظرت مرة أخرى إلى أعلى ثم نظرت لي وقد ازدادت الدموع في عينيها ثم رسمت ابتسامة على وجهها وقالت وسط دموعها:

- «بجد؟»

ثم اختفت الابتسامة على وجهها وحلَّ محله بؤس جعل قلبي يدق، وانهمرت دموعها على وجهها ونظرت للناحية الأخرى كأنما تتحاشى أن تنظر في عينيّ، امتدت يدي رغمًا عنّي هذه المرة ومسحت على شعرها الأسود الناعم في رفق، التفتَت إليَّ ووجهها تغرقه الدموع، مددت يدي ومسحت دموعها من على وجنتيها، كنت أشعر بيدي ترتجف وأصابعي تلامس وجهها

الأملس، تلاقت أعيننا لثوانٍ ثم وجدتها تبتسم وتمد يدها وتمسك بيدي التي تسمح دموعها ثم تقربها أكثر من وجهها ثم أمالت وجهها ليستند على راحتي وقالت بصوتٍ خافت:

- «شكرًا يا (وليد)»

توقفت الدنيا من حولي تمامًا..

فجأة وجدت قلبي يخفق وأنا أشعر بشيء لم أشعر به من قبل..

ضعف الأنثى هذا..

ذلك الضعف الذي يجعلك تشعر بأهميتك، بوجودك، بأنك وهي تكملان بعضكما البعض، لسنا أقوياء على المطلق، لكننا نستمد قوتنا من ضعفهن، وبأسنا من حنانهن، هن الدنيا، هن كل شيء، ونحن نعيش فقط من أجل إسعادهن حتى نشعر بسعادتنا في أعينهن..

عدلت رأسها فجأة وخفضت يدها وتركت يدي في ارتباك، نظرت إليها في استغراب ثم الْتفَت إلى الجهة الأخرى فوجدت (أدهم) قد قام من مقعده بجانب (مايا) ويتجه إلينا.. قمت أنا الآخر من مقعدي وأنا أشعر بمزيج من الحِنق والسعادة والاكتئاب، ابتسم لي (أدهم) وأشار لي بيدٍه محيِّيًا ففعلت المثل وجلست في مقعدي مرة أخرى..

التفتُّ إلى (إيهاب) الذي ما زالت ابتسامته البلهاء مرتسمة على وجهه ثم نظرت أمامي وأنا أفكر..

لماذا أشعر أنني أحقد عليه الآن وهو جالس هكذا غير عابئ بكل ما يحدث حوله؟..

«وليد»

كانت حفلة رائعة فعلًا..

صفقت لهم كثيرًا جدًّا، الحضور كانوا متجاوبون معهم للغاية، (كارما) كانت بجانبي، لم نتبادل مع بعضنا الحديث تقريبًا، حاولت لكن ردودها كانت مقتضبة، لستُ أدري إن كان هذا من شيء فعلته أم لا، المهم أنني كففت عن المحاولة واكتفيت بأن تكون بجانبي فقط..

على الأقل لن أشعر بالوحدة..

الكثير من العناق والتهاني ثم ها نحن مرة أخرى في الحافلة..

لفتَ انتباهي أنه عندما صعدَت (كارما) إلى الحافلة لم تتحدث مع أحد، اتجهت إلى المقعد الأخير وجلست ثم أسندت رأسها إلى الزجاج وأغمضت عينيها.. لست أدري إن كانت نائمة فعلًا أم لا لكنها إشارة إلى الجميع أنها غير متاحة الآن، أو على الأقل لي، إن كنت بالأهمية من الأساس أن ترسل لي إشارة ما..

المهم أنني احترمت ميلها إلى العزلة وجلست -كما تعرفون- بجانب (إيهاب)..

بالطبع جلس (أدهم) بجانب (ليلى)، ليس احترامًا لعزلة (كارما) بالتأكيد، لا أعتقد أنه لو تحرك الأوتوبيس بدون (كارما) كان (أدهم) سيلاحظ من الأساس، لكن من أجل أن يجلس بجانب (ليلى)!.. ظننتُ هذا واضحًا..

(مايـا) نامت هي الأخـرى، جميع الفرقة تقريبًا كانوا نيامًا، لستُ أدري لكن يبدو أن الموسيقى مرهقة بشكل أو بآخر.. لاحظت أن (ياسمين) -التي جلست في نفس مكانها السابق- تلْتفِت بين الحين والآخر للوراء لتنظر إلى (ليلى) و(أدهم).. أردت في البداية أن أسأل (أدهم) عمَّا قالته له (مايا)، من باب الفضول ليس أكثر، ثم تراجعت عن الفكرة، فليفعل الجميع ما بدا لهم، فأنا بعد ما حدث مع (كارما) ليس لدي البال الرائق لأهتم بما حدث بين (أدهم) و(مايا)..

يبدو أنني نمت لفترة طويلة فعلًا، لأنني عندما أفقت وجدت الحافلة متوقفة والكل واقفًا يلتقط حقيبته من الأرفُف التي فوقنا.. لقد وصلنا..

لم تكن معي حقيبة، لذا ألقيت نظرة على (كارما) التي كانت تتجه للباب، هممت بقول شيء ما لها على غرار (حمدًا للّه على السلامة) ثم آثرت أن الصمت في بعض الأحيان قد يكون هو أفضل شيء يمكنك فعله..

هبطت من الحافلة وملأت صدري بالهواء.. كان يجب أن أعرف فقط عند استنشاقي لذلك الهواء المليء باليود، والذي يختلف اختلافًا جذريًا عن هواء القاهرة المعبأ بالعوادم، أننا قد وصلنا إلى الإسكندرية..

يا إلهي، كم أعشقها..

يبدو أنني أعشق كل ما ينتهي اسمه بتاء تأنيث، فلماذا لا أعشق القاهرة إذَن؟

بدأ الجميع في الكلام اللطيف الذي يعقب نهايات الرحلات، رأيت (مايا) تقترب من (أدهم) ثم أمام الجميع أمسكت بيده وقالت له وهي تسحبه بعيدًا:

- «عايزاك»

سارَ معها بعيدًا ثم توقفت أمامه وبدءا يتبادلان الحديث.. كان وجه (أدهم) يتغير من الابتسام إلى الاستغراب، ثم العبوس ثم الحنق، لا أعرف ماذا تقول له لكن يجب أن أعرف، فضولي هذه المرة أكبر من أي اعتبارات أخرى..

عادا سويًّا وإن كان بادٍ على (أدهم) الغضب المكتوم، لا أعرف إن كان أحدهم قد لاحظ هذا، أدرتُ عيني في وجوههم، لا أحد يعبأ بأحد، هذا جيد.. اتجهت (ليلى) إلى (مايا) التي كانت تقف بجواري تقريبًا وقالت:

- «(مايا)، يلا عشان أوصلك، أنا معايا العربية، وعشان تحكيلي أنا مش فاهمة»

نظرَت لي (مايا) لترى إن كنت قد سمعت ما قالته (ليلى) أم لا لكني تصنعت أنني أنظر إلى البحر بتركيز غير طبيعي كأنما قد رأيت لتوي تنينا يخرج منه..

- «لأ، أنا عايزة أتمشى شوية قبل ما أروح»

- «تتمشي دلوقتي؟ ما تيجي أوصلك يا بنتي»

ابتعدَت عنها بالفعل وهي تلوح لها بيدها.. تابعتها بنظري وهي تمشي على طريق البحر لعدة أمتار ثم تختفي في شارع جانبي..

درت للخلف فلم أجد أحدًا.. لا (أدهم)، لا (كارما)، حتى

أعضاء الفرقة، يبدو أنني سرحت في حديث (ليلى) و(مايا) فلم أنتبه أنهم قد غادروا بالفعل..

ولم يتبقَّ إلا (ليلى)..

تبادلتُ معها نظرة كانت تحمل الكثير من «هل تظن أنني سأوصلك أيها البائس؟»، ابتسمتُ لها ابتسامة سمجة فبادلتني هي بمثلها ثم ركبت سيارتها وانطلَقت وتركتني أبحث عن شيءٍ ما أعود به لبيتي البعيد في هذا الوقت..

نهاية جميلة لتلك الرحلة المشؤومة بالتأكيد.. أليس كذلك؟

❖ ❖ ❖

«سيف»

ظللت أنظر إليها وأنا أتساءل: لماذا لا يقابل المرء امرأة بمثل جمالها كل يوم؟..

ذلك الشعر الأسود الذي يتخلله خصلات كستنائية في تناسق غريب، والمسدل على جبينها المتعرق للأسف، وبشرتها الخمرية قليلًا، عيناها كانتا تحدقان للأعلى، عينان خضراوان لا بد وأنها قد سحرتا أعين كثير من الرجال من قبل، ثم ذلك الجسد الذي يدل أن صحابته قد قضت أوقاتًا طوال في النوادي الرياضية وإن كانت لا تحرم نفسها من الطعام تمامًا.. رأيت ذات مرة على انستاجرام عندما كنت أتابع إحدى القضايا المرتبطة ببعض الذين يطلقون على أنفسهم لفظة «influencer» فتاة وقد كتبت على صورتها «نحن نذهب إلى الچيم لنحصل على منحنيات، لا لنفقد الوزن»، ضحكت كثيرًا وقتها على ما آل إليه تفكير الفتيات، لكن يبدو أن هذه الفتاة أمامي كانت تطبق هذه المقولة بحذافيرها..

تأملت وجهها مرة أخرى وتساءلت.. لماذا تكُف النساء عن الاهتمام بمظهرهن بعد الزواج؟.. تشعر أحيانًا أن الفتيات -في مصر فقط تقريبًا- كن يخططن فقط حتى ليلة الزفاف ولا يعرفن أي شيء عمَّا يلي ذلك، ثم تتفاجأ بأن لديها مسؤوليات، بيت وأولاد وأحيانًا أب وأم يحتاجان إلى الرعاية هما أيضًا،

تأخذهـا الدوامـة فتتسـى أن لزوجهـا احتياجات هـو الآخر، في حيـن أنني زرت عـدة دول ورأيت المرأة الأجنبيـة تقدس الرياضة في الصباح حتى لو كانت حامل!، لكننا للأسـف نترك الجيد لدى الغرب ونتشبث فقط بكل ما هو سيء..

- «نفـس اللي حصل مع الجثة اللي فاتت تقريبًا يا باشـا، آثار طعنات في البطن وفي دم كتير ما بين الفخدين، بس ماكانش معاها آلة موسيقية زي البنت اللي فاتت»

تأملـت جسـد الفتاة مـرة أخرى.. مَـن يعرف؟ ربما لو عاشـت وتزوجـت لصـارت زوجـة مصريـة أصيلة هـي الأخرى ولتناسـت كونهـا curvy كمـا يقولون. لمحـت نظارة طبية مهشـمة ملقاة بجانب رأسـها فتخيلتهـا ترتديها فتبدو في عينـي الرجال أكثر ثقافة وفهمًا للحياة.. نحن تافهون حقًّا، أليس كذلك؟..

- «عرفتم هيَّا مين؟»

- «آه يا باشـا، اسـمها (مايا محمود فرغلـي)، خريجة تجارة وبتشـتغل في فندق (...) في شـرم الشـيخ، إحنا جبنا نمرتهم في بيت أهلها هنا في اسـكندرية وكلمناهم، والدها متوفي، أمها ردِّت علينـا، منهارة طبعًا، قالت إنها كانت في رحلة للقاهرة مع واحدة صاحبتها اسمها (ليلى)»

نظرتُ لـ(إبراهيم) في استغراب وقلت:

- «(ليلى)؟ (ليلى) اللي هي...»

- «أيوا يا باشـا، كانت في رحلة مع نفس الشـلة، إحنا أصلًا مراقبينهـم، هما كان عندهم حفلة في القاهرة وكانوا طالعين

بأوتوبيس، تقريبًا (مايا) دي كانت معاهم»

شعرت بالدم يصعد إلى رأسي.. هذه هي مشكلة العمل مع الأغبياء.

- «تقريبًا؟!»

بُهِت (إبراهيم) وقد فهم ما أعنيه وقال بسرعة:

- «سيادتك طلبت تعرف تحركاتهم، واحنا عرفنا إنهم طالعين القاهرة عشان الحفلة وفي ناس صحابهم طالعين معاهم، كده كده إحنا نسقنا مع مرور القاهرة عشان لو اتجاه الأوتوبيس اتغير و...»

صِحتُ فيه:

- «أتوبيس إيه وزفت إيه يا (ابراهيم)؟ ما دام في حد جديد ظهر معاهم تقولي يا (ابراهيم) على طول، وماكنتش تسيبهم يغيبوا عن نظرك، أمال مراقبة إيه يا (ابراهيم) اللي أنا مكلفك بيها؟ مش محتاجة أقولك كل حاجة يا بني آدم»

قطب (إبراهيم) حاجبيه وبدا عليه الحنق، لم أكترِث له، فهناك جثة ممددة على الأرض الآن بسبب تفكيره الأحمق، نظرت لكوب القهوة في يدي، كنت قد نسيته تمامًا وقد برد الآن، أخذت منه رشفة وما أن وصل السائل البارد إلى فمي حتى بصقته مرة أخرى في الكوب.. لا أعرف لماذا لم أعد أطيق أشياء معينة لم أكن أدري أني أكرهها..

- «أوامر معاليك يا باشا، سيادتك عايزنا نعمل إيه؟»

نظرت لكوب القهوة مرة أخرى ثم فكرت.. ولِم لا؟.. قربتها

لفمي وأخذت رشفة كبيرة.. ليسَت سيئة فعلًا.. التفتُّ لـ(إبراهيم) فوجدتـه ينظـر إليَّ كمـا لو كنـت مجذوبًا، أطلـت النظر إليه فعادت نظرته إلى طبيعتها، قلت:

- «مش حنعمل حاجة، حنستنى تقرير الطبيب الشرعي»

ثـم عـدت أنظر إلى الجثة.. لسـبب ما تخيلت أنـي أزيل خصلة الشعر تلك عن جبينها، قلت لـ(إبراهيم) دون أن ألتفت له:

- «ميـن عارف؟ مش ممكـن نلاقـي بصمات المرة دي أو آثار تحـت ضوافرهـا أو آثار اغتصـاب؟ إنتَ ماكلمتنيش عن سـلاح الجريمـة عشـان أكيد مش موجـود، فمافيش قدامنـا غير إننا نستنى التقرير»

لفـت انتباهـي فجـأة وأنـا أنظر إليهـا أنها تضع طـلاء أظافر أبيض ووردي بالتبادل على أناملها، تأملتها للحظة، الأذواق تتغير بسرعة هذه الأيام.. الْتفتُّ إلى (إبراهيم) وقلت:

- «وبمـا إن دي تاني حادثة قتل مـع واحدة كانت تعرف نفس الشلة دي فدول بقوا بتوعي خلاص»

قلتهـا وألقيـت نظرة طويلة علـى الفتاة أتأملها لمـرة أخيرة ثم درت واتجهـت للسـيارة وأنا أرتشـف من كوب القهـوة البارد في تلذُّذ.

❖ ❖ ❖

«حسين»

لا أدري إن كنت ستفهمني وأنا أقول لك أنني صرت أشعر بانقباض في صدري وأنا أدير المفتاح في قفل الباب وأتمنى أن تكون قد خلدَت إلى النوم كي لا أراها..

ماذا حدث لنا؟ كنت أحبها بجنون، ثم بهدوء، ثم تسرب الملل إلى علاقتنا.. لم أعد أنتظر وقت انتهاء جلساتي لأذهب إلى البيت لألقاها، بل صرتُ أشعر بالخواء عندما يرحل آخر مريض لأفكر: هل أنا مضطر فعلًا إلى أن أعود إلى البيت؟..

ما أسوأ شعور ألا تجد سببًا ما لتعود لمنزلك في حين تجد ألف سبب لأن تبقى خارجه، أشعر أحيانًا أنه صار قبرًا، هنا دفن الحب الذي كان يجلب لنا الدفء، ولم يبقَ إلا ذلك البرد القارص الذي يُشعرك بانعدام الحياة، لسبب ما يذكرني هذا دائمًا بالموت، نعم، فلم تعد الدماء تسري هنا في هذا البيت..

لم أجد فيمن قابلتهن من يشعرني بأني لم أدفن منذ فترة وأعيش بالقصور الذاتي، ذلك حتى رأيتها، و يا ليتني لم أفعل..

(ليلى)..

حتى تكرار الاسم في مخيلتي يجعلني أسمع لحن غريب، كأن اسمها نغم في حد ذاته..

نفضت أفكاري عن رأسي وأدرت المفتاح وأنا أتمنى فعلًا ألا أقابلها..

- «اتأخرت النهارده»

كانت واقفة تنتظرني، بابتسامة رقيقة على وجهها، وترتدي ذلك الفستان الأحمر القصير الذي أحببته يومًا ما..

الشَّغَف..

ما أن يذهب الشغف حتى تنتهي متعة الأشياء، وتصير كلها متماثلة، حتى الألوان، تصير حياتك فجأة كأنما قد انتقلت للعيش في تلك الفترة التي كنا نظن من الأفلام التي نشاهدها أن الحياة وقتها كانت فعلاً بالأبيض والأسود..

عدا (ليلى)..

هل رأيت تلك اللوحات التي يكون كل شيء فيها بالأبيض والأسود عدى لون واحد، الأحمر أو الأصفر؟ هكذا هي دنياي، أبيض وأسود..

وهكذا هي (ليلى)..

اللون الوحيد في لوحة حياتي..

حاولت قدر المستطاع أن أرسم على وجهي ابتسامة صافية تليق بابتسامتها لكني شعرت أنها بدت واهنة، خالية من المشاعر..

استجمعتُ كل ما أعرفه عن الثبات الانفعالي وقلت لها بلهجة هادئة:

- «ازيك يا (فاطمة)»
- «انتَ وحشتني»

شعرتُ بغصة في حلقي وأنا أسمعها تقولها بتلك الطريقة التي تحمل بين طياتها الرجاء والحزن، كأنما ترجو ما لن يتحقق، وتأْمَل فيما ليس بممكن.. قلت وأنا أتحاشى النظر إلى عينيها:

- «وانتِ كمان»
- «بجد؟!»

قالتها بصوت موشك على البكاء، لم أرد، وحتى لو أردت فلم أكن لأستطيع، فما بداخلي لن يُفهم بالكلمات، ولست في مزاج الآن للكذب لأجيب عمَّا تسأل هي عنه..

- «(حسين)، إحنا بقينا عاملين كده ليه؟»

قررت أن هذا هو الوقت الأمثل للانسحاب، اتجهت إلى غرفة مكتبي كأنما لا أسمعها من الأساس..

- «(حسين) ماتسيبنيش وتمشي وبصلي وأنا بكلمك!»

توقفتُ ثم نظرت إليها، كم تغيرت ملامحها عبر الزمن، ما زالت جميلة، لكني لم أعد أرى ذلك الجمال.. تلك المرأة الواقفة أمامي لم أعد أعرفها.. شعور غريب أن تشعر أنك تبيتُ كل ليلة بجانب شخص غريب عنك..

- «(حسين)، انتَ لسا بتحبني؟»

كدت أصرخ فيها أنه نعم، أحبك يا (ليلى)، لكنها ليست هي، ليست (ليلى) للأسف.. قلت لها وأنا أشعر بأن الغُصَّة في حلقي صارت تمنع حتى الهواء من الدخول لرئتيّ:

- «تصبحي على خير يا (فاطمة)»

وتركتها على وشك البكاء واتجهت أنا إلى غرفة مكتبي التي قررتُ أن أبيت فيها الليلة، لعلي أشعر ببعض الهواء..

فكل ما شعرت به عند وصولي للبيت هو أنني أختنق..

وأموت..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

- «هي (مايا) قالت لك إيه صحيح؟»

شعرت بمفاجأة السؤال.. هل أخبرها بالحقيقة؟ قلت وأنا أعبث بسلسلة مفاتحي متحاشيًا النظر إلى عينيها ومحاولاً ألا يبدو عليَّ الارتباك:

- «آآآ قالتلي خد بالك من (ليلى) آآآ عشان أنا بحبها وخايفة عليها»

ضحكَت باستغراب، رفعتُ عيني إليها وشعرت بنظراتها تلتهم وجهي، حاولتُ قدر المستطاع ألا يبدو عليَّ أي شيء، قالت هي أخيرًا:

- «غريبة، مع إن ملامح وشك وقتها كانت بتقول غير كده، عمومًا كده كده (مايا) حتقولي على كل حاجة و... إنتَ بتبص على رجليَّا كتير ليه كده؟ عاجبينك أوي يعني؟»

ضحكتُ واحمر وجهي وأنا أنظر في عينيها التي لا أفهم إن كان فيهما سعادة أم حزن، يا لجرأتها!.. قلت:

- «وإيه المشكلة؟»

ضحكَت هي مرة أخرى وقالت:

- «يعني، كنت بحسب لما حقعد أنا وراجل لواحدنا في مكان هادي ورومانسي كده حيبص في عينيا، مش لرجليا، إيه الرومانسية في الرجلين يعني أنا مش فاهمة؟»

اتسعَت ابتسامتي، لفتَ انتباهي أنها تقول «رجل» وليس «ولد» كما كانت تقول (مي)، يجب أن يكون مَن يستحق تلك الفتاة رجل فعلًا وليس ولدًا، شعرت بهاجس غريب بداخلي، هل أنا فعلًا أستحقها؟.. لكني أزحته عن رأسي وقلت لها محاولاً العودة إلى تلك اللحظة الرائعة:

- «مش عارفة حتفهميني ولا لأ»

وضعَت رسغيها على المنضدة ثم استندَت برأسها على قبضتيها المضمومتين أيضًا وقالت وهي ترفع حاجبًا واحدًا وتنظر إليّ:

- «جرِّبني»

فكرتُ فيما سأقوله لها ونظرت في عينيها الجميلتين واللتان أعلم تمامًا إنها ستفهمني فيما أقول.

- «انتِ عارفة إني بحب أقعد على البحر»

- «.....»

- «وأنا قاعد عالبحر بفضل أبصله، شوية وبتعود على شكله فببص عالرملة، شوية وبودِّي عيني في حتة تانية ألاقي شجرة بعيدة، صخرة شكلها حلو.. وبعدين برجع أبص عالبحر تاني.. هو ده بالضبط اللي بحس بيه وأنا معاكي.. كل حتة فيكي حلوة، بس مرة ببص عالبحر، ومرة عالرملة، ومرة عالشجرة»

أحمرَّت وجنتيها وظلت تنظر لي بعينين لامعتين ثم أزاحت خصلة شعر من على عينيها وتحسست وجنتيها وقالت وهي تبتسم في رقَّة:

- هو الجو بقى حر ولا اتهيألي؟»

لم أرد.. ظلَّت أعيننا تتحدث عنَّا، عيناها ساحرتان فعلًا،

كانت على حق عندما تساءلت لماذا أترك هذين العينين التي يمكن أن تقوم حروب من أجلهما وأنظر إلى أي شيء آخر..

وكعادة تلك اللحظات الرومانسية، رن جرس هاتفها ليخرجنا مما نحن فيه، هادم اللذات الآخر في هذا العصر.. أخرجت حقيبتها ونظرت في الهاتف ثم تغير وجهها ليحمل الكثير من الحنق والتوتر، ألقيت نظرة على شاشة الهاتف فوجدت اسم الطالب هو (ماما للأسف).. استعجبت من الاسم ونظرت إلى (ليلى) مرة أخرى التي كانت لا تزال تنظر إلى الهاتف دون أن ترد ثم قبلت المكالمة أخيرًا ووضعت الهاتف على أذنها..

تابعت وجهها وهي تستمع لأمها.. هل هي تكرهها فعلًا إلى درجة أن تضع مثل هذا الاسم لأمها على هاتفها؟ تذكرت أبي في تلك اللحظة، يبدو أن هناك الكثير من الأشياء المشتركة بيننا..

- «إيه؟ إزاي؟ لأ، لأ إنتِ بتضحكي عليَّا مش كده؟»

قالتها بصوت أقرب للصراخ وبدأت الدموع فعلًا تنساب على وجهها.. نظرت إليها باستغراب وأشرت إليها كي تخبرني عمَّا حدث، وضعت الهاتف ببطء على المنضدة ونظرت لي بعينين ملأهما الدموع وبوجه يحمل أعتى أمارات الأسى وقالت وسط بكائها:

- «(مايا) اتقتلت»

ثم ارتمَت في حضني وبكَت..

أحطتها بذراعي وأنا لا أعرف ماذا أقول لها..

لا أعرف فعلًا..

❖ ❖ ❖

«ياسمين»

انتظـرت علـى الباب فترة طويلة قبل أن أسـمع صوت خطوات قادمـة ثم انفتح الباب وظهرت (ليلى).. رمقتني بنظرة غريبة وهي تسـد فتحة الباب بجسـدها كما لو كانت تمنعني من الدخول.. نظرت إليها باستغراب وقلت بعصبية:

- «في إيه يا (ليلى)، مش عايزاني أدخل ولا إيه؟»

ظلـت تتطلع إلـيَّ بنفـس النظرة الغريبـة ثم أفسـحت المجال وفتحـت البـاب أكثـر دون أن تتكلـم، دخلت وأنـا أنظر داخل البيت كعادتي ثم قلت لها:

- «أمك مش هنا؟»

هـزت رأسـها دون أن تـرد، كدت أصيح فيهـا أن تكف عن تلك الطريقة السخيفة، ثم تذكرت لمَ أتيت من الأساس فمددت يدي ومسـحت على ذراعها، أجفلت قليلًا من لمسـة يدي، غريب هذا.. قلت وأنا أنظر في عينيها:

- «البقية في حياتك، معلش»

تغيـرت ملامـح وجههـا وبـدا عليهـا الغضـب الشـديد فجـأة وصاحت:

- «معلش؟ انتِ محسسـاني إن ضاع مني عشرين جنيه مش إن صاحبتي ماتت»

نظـرتُ لها فـي حنق.. لم تتحدث معي (ليلى) بتلك الطريقة من

قبـل، أعلـم ما تمر به لـكن لـم أعتد مثل هـذا التصرف الغريب منها.. قلت في عصبية:

- «في إيه يا (ليلى)؟»

- «فـي إنـك بتقولي معلش، مـا دام ماتعرفيـش تتكلمي في المواقف اللي زي دي بيقى ماتتكلميش»

هممـتُ بجذبها من شـعرها لأعيدها لمـا كانت عليه لكنها صاحت فجأة:

- «(ياسمين)، إنتِ اللي قتلتي (مايا)؟»

نظرتُ إليها في عدم تصديق وأنا لا أعرف كيف فكرت في مثل هذا الشيء..

- «إنتِ ازاي تقولي كده؟»

صاحت بعصبية أكبر:

- «عشـان انـتِ قلتيلـي إنك ممكـن تقتلي عشـان خاطري، (مايـا) ماكانتـش زيـي أنا وانـتِ، (مايـا) كانت حاجـة تانية، كانـت صاحبتـي بجد، (ياسـمين)، أنا لو عرفت إنـك انتِ اللي قتلتيها أنا ممكن أموتك، إنتِ فاهمة؟»

جذبتهـا هذه المرة من شـعرهـا فصرخـت، وقربت وجهها إليَّ وقلت بصوتٍ منخفض لكن بعصبية شديدة:

- «أنا قلتلك إني ممكن أعمل كدا فعلًا، بس مش مع (مايا).. أنا عارفة علاقتـك بـ(مايا) كويس، حتى لو أنا مابحبهاش، وده عشـان مش عايزة أي حد يخـدك مني، بس مش معنى كده إني أقتلها»

جذبتها بشـدة أكبر من شـعرها فصرخـت وانهمرت دموعها على خدها ، شـعرت بالراحة قليلًا وأنا أسـتعيد السـيطرة عليها وقلـت وأنا أقتـرب منها أكثر حتى شـعرت بعطرها يخترق أنفي ويصعد مباشرة إلى مخي:

- «ولـو دماغـك دي مـش حتتعدل حكسـرهالك، عارفة إني أقدر أعمل كده ولا لأ؟ ردي؟»

لـم تـرد وانسـابت دموعها كالشـلال مـن عينيهـا.. آه، كم أعشـقها ، أنا على اسـتعداد فعلًا لأفعل أي شـيء من أجلها ، أي شيء.. كيف أقول لها الآن ما فعلت؟ كيف ستسامحني؟ اقتربتُ منها أكثر حتى لامست أنفها أنفي وباعدت بين شفتيَّ قليلًا وأنا أهُم بأن أقبلها..

وفجأة سمعت صوت قفل الباب يفتح فابتعدت عنها في سرعة ونظرت إلى الباب وقلبي يدق في عنف..

فُتِح باب المنزل فعلًا ودخلت أم (ليلى).. توقفت وأدارت عينيها في وجوهنا.. هل لاحظت شيء؟ قطبت حاجبيها في النهاية وقالت وهي تقترب منَّا :

- «ازيك يا (ياسمين)، شفتي اللي حصل لـ(مايا)؟»

نظرت إلى (ليلى) التي كانت تنظر إلى أمها في كُرهٍ واضح، ثم اتجهتُ إلى أمها وعانقتها ، ثم قلت لها وأنا أنظر إلى (ليلى):

- «آه يا طنط عرفت، وعشـان كده أنا جيت النهارده عشـان أشوف (ليلى)»

رمقَت هي (ليلى) بنظرة جانبية ثم قالت وهي تنظر إليها :

- «خديهـا يـا (ياسـمين)، اخرجوا شـوية، هـي فـي البيت من ساعة اللي حصل»

التفـتُّ إلى (ليلى) فوجدتها تنظر إلـى أمها بمزيجٍ من الغضب والكره اللذان لم أرهما في عينيها من قبل.. أمسكتُ (ليلى) من ذراعها ودفعتها نحو غرفتها وقلت:

- «حخليها تلبس وحننزل مع بعض على طول دلوقتي»

واتجهنا إلى غرفتها وأنا أُمَنِّي نفسـي برؤية جسد (ليلى) الذي لم أره منذ فترة..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

جلست وحدي دون أن فعل أي شيء تقريبًا..

الناس يمرون من أمامي لكني لا أكاد أراهم.. أشعر الآن أني فقدت كل شيء.. (مايا) كانت كل شيء، ومن بعدها الدنيا بلا طعم.. بلا روح، (مايا) كانت روحي بشكل أو بآخر، وصرت الآن جثة، جثة تتحرك وتمشي وتأكل، لكن دون أن تشعر ودون أن تعرف لماذا عليها أن تفعل ذلك من الأساس..

هل قتلتها (ياسمين) فعلًا؟.. لا أعرف، لم أعد متأكدة من أي شيء.. (ياسمين) قوية، عنيفة، أحيانًا تجعلني أتألم عن قصد، لكن لا أعرف إن كانت فعلًا على استعداد للقتل أم لا، أعلم تمامًا أنها تحبني بجنون، لكن هل لدرجة القتل؟..

- «آنسة (ليلى)»

التفت إلى الصوت لأجد ذلك الرجل الذي يبدو في منتصف الأربعينات يقف أمامي، لا أذكر أنني رأيته في الجامعة من قبل كما أنه لا يبدو كأحد أساتذة الجامعة بشعره المنكوش وجسده النحيل وتلك البدلة السوداء غير المهندمة التي يرتديها.. شعرت ببعض التوتر من نظراته التي تدل على أن صاحبها مضطرب نفسي قلت له دون أن أقف:

- «حضرتك مين؟»

- «آآآ (سيف الأسيوطي)، مباحث»

قفـزتُ واقفة عندما سـمعت كلمة مباحث.. هل علموا شـيئًا عن مقتل (مايا)؟ سألته والتوتر يقطر من صوتي:

- «في حاجة عرفتوها عن (مايا)؟»

ظل ينظر إليَّ باستغراب ثم انفجر فجأة في الضحك، لم أفهم ماذا يحدث، شـعرت بالغضب، لماذا يضحك هذا المعتوه؟.. ظل يضحك لوهلة ثم قال أخيرًا:

- «ولو اكتشـفنا حاجة عن (مايا)، تفتكري حييجي ضابط مباحـث الكلية عشـان يقولـك مخصوص؟ يعني آآآ ماتمشـيش أعتقد»

ازداد غضبي وقلت له محاولة ألا أنفجر في وجهه:

- «ممكن أعرف حضرتك عايز إيه؟»

ظـل ينظر إليَّ دون أن يتحدث، كـانـت نظراته غريبة، كما لو كان يشـرد قليلًا ثم يعود ليرانـي، هممت بالانصراف لكنه قال فجأة:

- «عايـز أعرف اللي حصل بالضبط في الرحلة بتاعة القاهرة اللي كانت (مايا) معاكوا فيها»

ابتلعتُ ريقي وأنا أنظر إليه وبدأت قدمي تهتز رغمًا عني.. قلت له بعصبية:

- «حضرتك عايز تعرف إيه بالضبط»

ضحك مرة أخرى بدون مبرر كأن ما قلته هو نكتة طريفة، ثم قال أخيرًا بعدما فرغ من الضحك:

- «بصـي يـا (ليلـى)، أنـا كان ممكـن جـدًّا أبعـت أجيبك

القسـم، هنـاك بقى، كنتـي حتحكي براحة راحتـك، بس أنا مرتضتش، عشـان انتِ بنت ومايصحش، مش انتِ بنت برضو؟.. آآآ قصدي مش مايصحش برضو ولا إيه رأيك؟»

بدأت يدي اليمنى في الارتعاد قليلًا.. أمسكتها بيدي الأخرى دون أن تفـارق عينـاي عينيـه، ثم قلـت وأنا أشـعر بصوتي يخرج مرتعدًا:

- «آآآ حضرتك عايزني أحكي عن إيه بالضبط؟»

مطَّ شـفتيه ونظر يمينه ويسـاره كأنما يبحث عن شيءٍ ما ثم سـأل:

- «انتم عندكم كافيتيريا هنا؟»

فهمت ما يرمي إليه وقلت على الفور:

- «آه بس...»

- «إنـتِ حتعزميني على فنجان قهوة وحتقعدي تحكيلي كل اللـي انتِ شـفتيه في الرحلة، مـن أول ما صحيتـي يومها الصبح وفطرتي وكده لغاية ما قفلتي النور قبل ما تنامي»

شـعرت بقلبـي يهبط داخل صـدري وبأطرافي تبـرد قليلًا.. لا أحتـاج إلـى المزيد مـن القيل والقـال عني في الجامعـة.. يكفي تلـك الإشـاعات عني أنـا و(ياسـمين)، لا أحتـاج أن أضيف إليها جلوسـي فـي الكافتيريا من رجـل أربعيني.. إشـاعة أني أخطط كي أخطفه من زوجته أو أنه «شاقطني» ليست ببعيدة.. قلت وأنا أقبض على يدي التي صارت ترتجف ارتجافًا ملحوظًا الآن:

- «طيب آآآ إحنا ممكن نقعد في أي حتة برة الجامعة؟»

ظل يتطلع إليَّ لوهلة حتى ظننت أنه فقد القدرة على النطق ثم قال فجأة:

- «مـاآآآ فيـش مشـكلة، زي ماانتِ عايزة، بس بـرة بقى أنا اللي عازم، اتفقنا؟»

أومأت برأسي، كأني لي حق الاختيار من الأساس..

تلفَّتَ حوله مرة أخرى ثم قال:

- «يلا بينا عشان القعدة حتبقى طويلة شوية»

وسرت بجانبه وأنا أقبض بيدي على يدي التي ترتجف..

ولسبب ما شعرت أنه سيأخذني لمكان بعيد وأني لن أعود إلى هنا مرة أخرى..

لن أعود أبدًا..

❖ ❖ ❖

«حسين»

- «أنا آسف يا (ليلى)»

نظرَت لي بعينين ملأتهما الدموع وقالت:

- «أنا حاسة إني بقيت تايهة، مش عارفة أنا عايزة إيه، (مايا) كانت الوحيدة اللي بحس معاها بالراحة، أنا مش عارفة حاجة، عايزة (ياسمين)، و لا (أدهم) ولا عايزة أعيش أصلًا ولا لأ»

دموعها كانت تقتلني، تعودت ألا أتأثر بدموع مريضاتي اللاتي تعوَّدن أن يأتين إلى هنا ليبكين في أغلب الوقت، لكن ليست هي كمثيلاتها، ليس لها مثيل من بين النساء من الأساس.. هناك (ليلى) واحدة فقط، وهي الآن تبكي وأنا الذي أفنيت حياتي في الطب النفسي أشعر أنني عاجزٌ أمامها.. يقولون دائمًا أن أصعب الحالات المرضية هي التي يضطر فيها الطبيب أن يعالج أحد المقربين إليه.. أشعر أن (ليلى) أكثر قربًا من أي شخص آخر عرفته في حياتي، ولهذا أجد نفسي عاجزًا في أوقات كثيرة أمامها..

- «أنا شاكة إن (ياسمين) هي اللي قتلتها»

- «وليه حاسة بكدا؟»

حكت لي عمَّا قالته (ياسمين) لها مسبقًا.. ليس مبررًا جدًّا، أحيانًا نقول أشياء بعيدة تمامًا عن الواقع لنعبر عن حبنا، هممتُ بأن أخبرها بذلك لكنها قالت فجأة:

- «فـي ضابط جالي الكليـة، كان عايز يعرف تفاصيل عن الرحلة اللي طلعناها، هو أكيد شـاكك إن حد من اللي كانوا معانا في الرحلة هو اللي قتل (مايا)»

هممتُ بالرد مرة أخرى لكنها قالت:

- «دكتـور، أنا خايفـة.. خايفة من كل النـاس اللي حواليا، أول مرة أعرف إن الإحساس بالأمان ده أهم من الحب ومن الحنية ومن أي إحساس تاني»

كنت أريد أن أضمها إلى صدري، أن أخبرها أنني سأحميها من العالم أجمع، أن لا شـيء سيمسـها بسـوءٍ طالما أنـا بجانبها لكنني لم أفعل، لماذا؟ لأنني طبيب وهي مريضة.. ولأنني متزوج.. ذلك السور الذي يضرب بيني وبين أي علاقة قادمة.. لن تقبل فتاة أن تدخـل فـي علاقة مع رجل متزوج، حتى لـو كان ينوي الزواج منها بالفعل.. ستظل تنظر لنفسها أنها عشيقة وليست زوجة، هي خطفتـه مـن حياته، رغم أنها لا تعلم أنهـا، بوجودها إلى جانبه، تعيده إلى الحياة..

- «هـو أنـا ليـه حياتي كـده؟ ليه حاسـة إني دايمًـا حد عايز يمتلكني وأنا ماعنديش القرار؟»

عدلت من نظارتي وقلت:

- «إنتِ ممكن تسألي السؤال بطريقة تانية.. إنتِ عايزة تعرفي إنـتِ ليـه مش عارفة إذا كنتي عايزة مين فيهم فعلًا، (أدهم) ولا (ياسمين)»

لـم ترد، وإن كانت النظرة في عينيها تدل أنها توافقني فيما

أقـول، قلـت وأنا أشـعر بالراحة بعض الشـيء لعودتي لممارسـة مهنتي:

- «لأنك مش حاسة بأهميتك، كل واحد منهم عايزك عشان نفسـه من غير ما يسـأل نفسـه إذا كانت (ليلى) عايزاني ولا لأ.. حيـاة نـاس كتيـرة كان ممكـن تتغير لـو لقوا حد يحسسـهم بأهميتهـم.. همـا عايزينـك، محتاجينك، بس مـش عارفين انتِ محتاجة إيه»

ثم اعتدلت في مقعدي وأنا أقول:

- «أنـا مثـلًا بحـب الفراولة، وبحـب الأيس كريـم، بس لما بـروح أصطـاد باخد معايـا دود، دود من بتاع الصيـد ده، مع إني أكيد مابحبوش، بس السـمك بيحبـه.. نفس الحاجة، لو أنا في علاقة وعملت اللي أنا بحبه بغض النظر عن اللي معايا عايز إيه، وماعرفتـش إيه هـو الدود بتاعـه، حيهرب ويروح لسـنارة تانية، صياد تاني معاه الدود اللي بيحبه»

- «وأنا إيه الدود بتاعي؟»

قلت لها وأنا أشـعر أن الكلمات تنسـاب من قلبي إلى لسـاني مباشرة دون أن تمر على عقلي:

- «انـتِ عايـزة حـد يحسسـك إنـك أهم واحـدة فـي الدنيا، يحسسـك إنـه مـش لازم يعاملك وحش عشـان تحسـي إنه ضهر ليكي، إنه يعوضك عن أبوكِ اللي ماشفتيش معاه الأمان، وأمك اللـي كانـت المفروض تبقى حنينة عليـكِ، ويبقى صاحبك اللي تحكيله، وتفضفضي معـاه، من غير ماتخافي إنه يفهمك غلط

أو إنه يعايرك بالحاجة دي بعدين، إنه يبقى دنيتك اللي انتِ لسا ماعشتهاش»

ظهر الأسى على ملامحها واغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر إليَّ، ثم ارتسمت ابتسامة على وجهها وقالت بصوت باكٍ:

- «عرفت بقى أنا بجيلك ليه يا دكتور، عشان انتَ أكتر واحد في الدنيا فاهمني.. أنا بحبك أوي يا دكتور، انتَ حد مهم أوي في حياتي»

خفق قلبي في عنف، أنا أعلم أنها لا تقصد معنى الحب الذي أُكنُّه لها، لكن قلبي رقص لسماع تلك الكلمة رغم كل شيء.. قلت لها:

- «أنا عايز أتفق معاكي على اتفاق، بس توعديني إنك هتنفذيه»

ابتسمت دون أن تفارق دموعها عينيها، قلت:

- «عايزك تاخدي أجازة من (ياسمين) و(أدهم).. ماتشوفيهمش، ما تتصليش بيهم، ماترديش على مكالماتهم، خليكي كده أسبوع، وبعدها شوفي مين أكتر حد فيهم حيوحشك وهاتيه معاكي هنا الجلسة الجاية»

ضحكَت في استغراب وبدا عليها التفكير ثم أومأت برأسها ومسحت دموعها بيدها ثم قالت:

- «بس ممكن أعرف ليه؟»

قلت وأنا أشعر بالأسى من وصفي الدواء لها وهي دوائي:

- «عشان الوعد ممكن يقتل، لما توعدي حد بحاجة لازم

تكوني واثقة تمامًا إنك حتوفيها»

شردت ببصرها للحظات ثم التفتت لي وقالت:

- «بمناسبة القتل.. أنا حلمت حلم تاني»

نظرتُ إليها باهتمام وأنا أحاول إخفاء مشاعري، مسحت هي دموعها مرة أخرى بيدها وقالت وهي تحاول أن تتناسى مشاعرها السلبية هي الأخرى:

- «حلمت إني بقتل واحدة، بضربها بسكينة، مش فاكرة ملامح وشها بس كان في دم كتير، وأنا كنت خايفة»

صمتَت وظهر عليها أنها تحاول أن تتذكر ثم نظرت إليَّ ومطت شفتيها وقالت:

- «أنا في ذكرى غريبة عندي بحاجة شبه كدا حصلتلي وأنا صغيرة، أنا عارفة إننا اتكلمنا قبل كده في موضوع تفسير الأحلام ده، بس هو ممكن الحلم يبقى واصل للواقع؟»

نظرت إليها باستغراب.. أعتقد أن حلمها له علاقة بمقتل صديقتها، لكن كلامها المرة السابقة عن أنها تشعر بالندم عند تذكرها لـ(سارة)، ثم حلمها الآن أنها هي مَن تقتل.. هل من الممكن أن...؟ لا، ليست (ليلى)، لا يمكن أن تكون هي من قام بتلك الجرائم، لو كانت حالة فصام كنت سأعرف، بالتأكيد كنت سأعرف، أو لم أكن لأعرف؟ هل هي لهذه الدرجة تؤثر على ترتيب أفكاري وقدرتي التحليلية؟.. قلت لها وأنا أبتلع ريقي وقد صار الشرخ الذي تكوَّن في جدار ثقتي غائرًا:

- «الإنسان بيبقى فيه جزء منه مرتبط بالواقع، حتى وهو نايم.. الأم مثلًا، ممكن تبقى نايمة وفيه أصوات حواليها ودوشة، بس أول ما تسمع صوت عياط ابنها بتصحى، مع إنه ممكن مايبقاش أعلى من الأصوات التانية»

نظـرَت لـي في عـدم فهم، ثـم نظرت فـي سـاعتها والتقطت حقيبتها بسرعة وقالت وهي تقوم من مقعدها:

- «أنا لازم أمشـي معلش، في حاجة مهمة لازم أعملها قبل ما أروَّح.. دكتـور إنـتَ عارف إن دي أول مرة مـا أدخنش وأنا قاعدة معاك؟»

ابتسـمتُ ابتسـامة واهنـة فبادلتنـي هي بابتسـامة واسـعة ثم اتجهَـت إلـى البـاب فـي خطـوات سـريعة وتركتنـي غارقًـا في أفكاري السـوداء وأنا أتخيلها أمامي وفي يدها سكين وتقترب نحوي ببطء..

وتقتلني..

❖ ❖ ❖

«سيف»

أدرت عيني في العيادة الغاية في الأناقة وقلت له:

- «شكلك بتكسب كويس يا دكتور، لأ، العيادة آآآ ظريفة»

لم يرد، وظل ينظر إليَّ بهدوء، عدت أتأمل الديكور الراقي والحوائط المطلية باللون الأسود، حتى توقفت عينيَّ عند لوحة تصور مقطع في رأس بشري فقلت وأنا أشير إليها:

- «هي الرسمة دي بجد؟ يعني آآآ في واحد قطعتوا راسوا نصين ورسمتوها؟ واللّٰه الدكاترة دول رايقين أوي»

نظرت إليه فوجدته كما هو، بلا انطباعات على وجهه تقريبًا.. هو يريد أن أدخل في الموضوع إذَن ويكره المقدمات.. حسنًا، قلت له:

- «آآآ، مش عارف انتَ عارف ولا لأ يا دكتور، ها ها ها، حلوة مش عارف انتَ عارف دي.. آآآ إحنا بنحقق في قضية قتل، واحدة اسمها (سارة) وبعدها واحدة اسمها (مايا)، الاتنين يعرفوا نفس المجموعة اللي منها (ليلى) اللي بتتعالج عندك هنا، عارفها يا دكتور مش كده؟»

أومأ برأسه ببطء وقال بهدوء:

- «في واحدة بس اسمها (ليلى) بتيجي هنا فعلًا، بس مش عارف هي دي اللي قصد سيادتك عليها ولا لأ»

ابتسمتُ، هو يتذاكى إذَن، بالتأكيد حكت له كل شيء.. فلماذا تأتِ إليه من الأساس؟.. قلت:

- «آه هيَّ، أنا متأكد جدًّا، أنا عملت تحريات وعرفت إن...»

توقفت عندما رأيت الابتسامة على وجهه فسألته:

- «هـو آآآ في حاجة في اللي أنا بقولها بتضحك يا دكتور ولا إيه؟»

رفع يده معتذرًا وقال بنفس الابتسامة:

- «لأ، العفـو، أنـا آسـف، أنا بـس كنت قريـت بحث كده اتعمل في شركة تليفونات في نيويورك عن أكتر كلمة بتتقال في التليفون، طلعت كلمة «أنا»، لما سيادتك اتكلمت فكرتني بالبحـث ده عشـان قلت «أنـا» أكتر من مرة، ده غيـر طبعًا إنهم عشـان يعملوا بحـث زي ده لازم يتجسسـوا علـى التليفونات... ما علينـا، أنا آسـف، المهنة دي بتخلـي الواحد يربـط بين حاجات غريبة»

قلتُ:

- «وأنا فكرتك بيها عشان كلمة «أنا» ولا عشان بيتجسسوا على التليفونات؟»

ابتسم الطبيب ابتسامة صفراء ثم قال مغيرًا للموضوع:

- «أؤمرني يا (سيف) بك، أقدر أساعد سيادتك إزاي؟»

قلت له وقد بدأت أستمتع بتلك المبارزة التي بدأت بالفعل:

- «عايز أعرف (ليلى) حكتلك إيه عن موضوع القتل ده»

ارتسمت ابتسامة دبلوماسية على وجهه وقال:

- «(سيف) بك، إنتَ عارف إن أسرار المرضى دي حاجة مقدسة، ماينفعش أطلعها لحد»

قلت وأنا أعدِّل من قميصي وأنفض بعض الأشياء عن بنطالي:

- «بس احنا بوليس، اللي ماينفعش يطلع لغيرنا ينفع يطلعلنا عادي»

مط شفتيه وقال:

- «سيادتك سيد العارفين، الحاجات دي بتحتاج إذْن نيابة، وده بيطلع في أضيق الحدود»

هززت رأسي.. مباراة الشطرنج تلك ستكون جيدة فعلًا، وإن كان قد أعاق حركة البيدق بحركة ذكية من الفرس.. قلت وأنا أحرك بيدق آخر إلى الأمام:

- «تفتكر اللي بيقتل ده بيقتل ليه؟»

مط شفتيه وقطب حاجبيه وقال:

- «مافيش حد بيعمل حاجة من غير مبرر، بس لو عرفت الشخص ده عايز إيه فعلًا.. الدافع، الدافع الحقيقي، لو عرفته حتعرف هو قتل ليه»

سكتُّ ولم أرد.. مط شفتيه مرة أخرى ثم قال كأنما رأى أن إجابته غير كافية:

- «المجرم عادةً بيسعى إنه يوصل للأمان، بيصارع عشان يطلع من وضع هو حاسس فيه بالنقص لوضع أفضل، الطريق اللي الصراع ده بيوصله ليه بسبب طبيعته غير السوية مابيبقاش

سهل، وعشان المجرم ده ما لقاش طريق سهل لإنه يشعر بالرضا، حيلوم البيئة المحيطة أو الأشخاص المحيطين بيه وحيكرههم لأنهم بيمثلوا في عينيه المجتمع ككل»

لماذا أشعر أنه كان بإمكانه أن يقول ما قاله بطريقة أبسط؟.. لكن يبدو أن ذلك التعقيد الذي لا طائل منه والذي يميل إليه الأطباء النفسيين يجعلهم يشعرون أن بضاعتهم ليست مزجاة بشكل أو بآخر.. قلت:

- «وتفتكر في طريقة عشان نقنعهم ما يمشوش في الطريق ده أو مايحسوش بالكره ناحية اللي حواليهم؟»

فكر قليلًا ثم قال:

- «المجرم عادةً بيهتم بس بنفسه ووجهة نظره هو، ممكن لو...»

لم يكمل الجملة.. قلت له:

- «ممكن لو إيه؟»

قال وهو ينظر إليَّ دون أن يبدو عليه أنني أثير أعصابه مع أنني أعلم أنني أفعل:

- «إحنا لازم نوريلهم رؤيتهم، عقلهم، نصحيهم من الحلم اللي فضلوا يحلموه طول حياتهم، لازم نحررهم من التسمم، من تفسيرهم الخاص للعالم.. إحنا ممكن نغيرهم بس إذا فهموا نفسهم بشكل أفضل، ودي وظيفة الطب النفسي»

قلت وقد شعرت بمتعة لم أشعر بها منذ فترة طويلة:

- «هو الناس بيتحولوا لمجانين ليه؟»

لم يبدُ عليه السأم كما توقعت، بل قال بهدوء شديد وبطريقته السردية التي تجعلك تشعر كأنما تجلس بين يدي حكيم من حكماء الماضي:

- «لأنهم بيلاقوا في الخبل والجنان شعور بالأهمية ما قدروش يوصلوا له في الحياة الحقيقية، فبيخلقوا حياة افتراضية، بياخدوا فيها كل حاجة وبيحققوا اللي هما ما عرفوش يحققوه، في مرضى نفسيين فعلًا بيرتكبوا جرايم، بس الجرايم دي بتبقى نتيجة فشل تام لفهم الموقف اللي بيمر بيه، وبالتالي طريقة خطأ لعلاج الموقف ده»

كان يبدو أنه لن يتوقف عن الكلام، قال بالفعل:

- «القاتل ساعات بيتخيل عالم وأحداث تانية محصلتش غير في دماغه هو بس، ساعات كتير بيحس بصداع لأن دماغة مش قادرة تشيل العالم الكامل اللي هو خالقه جواها والصراعات اللي بتحصل في دماغه بس»

قلت له وقد وصل للنقطة التي كنت أريدها أخيرًا:

- «دكتور، حسألك مرة أخيرة بعد التفسير الجميل ده عن القاتل، اللي هو في الأصل المريض النفسي، شايف حد من المرضى بتوعك ممكن يرتكب جريمة زي دي؟»

ظل ينظر لي لوهلة ثم قال:

- «أنا معرفش تفاصيل كافية عن الجريمة دي عشان أقولك رأيي، بس عمومًا مافيش حد من المرضى اللي عندي ممكن يبقى بالخطورة إنه يقتل»

كنت أعلم تمامًا أنه يكذب وإن كنت غير متأكد تمامًا ما الذي يعرفه.. سأحتاج في مرحلة لاحقة إلى إذْن النيابة بالفعل كي آخذ كل ما لديه عن (ليلى)، لكني سأؤجل هذا إلى ما بعد».

قمت من مقعدي وعدلت من هندامي ثم مددت إليه يدي فوقف على الفور وتصافحنا.. ثم قلت له:

- «شكرًا يا دكتور، كان حوار ظريف»

ثم اتجهت للباب وأنا أعلم تمامًا أنني سأعود إلى هنا قريبًا جدًّا.

❖ ❖ ❖

«أدهم»

- «طيب فهموني حتخدوه على فين؟»
- «مطلوب في المديرية حضرتك، أنا بنفذ التعليمات»
- «طيب أفهم في إيه؟»

لم يرد العسكري عليها، بل جذبني من يدي أنا الذي كنت فاقدًا للنطق تقريبًا منذ أن طرق ذلك العسكري الباب وقال لأمي أنهم يريدونني في مديرية الأمن..

- «طيب حاجي معاكم»

لم يرد أيضًا على توسلاتها، اقتادني ونزلنا على السلم وأنا أكاد أرى العيون السحرية للأبواب يتحرك خلفها أعين جيراننا الفضوليون الذين يريدون بالطبع معرفة كُنه الجريمة التي ارتكبها ذلك الشخص الذي كان يبيت معهم في نفس البناية، وهم يحمدون الله في سرهم أنهم لم يكونوا هم إحدى ضحايا جرمه، بل ويتساءلون في شكٍّ عن كيفية عدم معرفتهم من قبل لوجود مجرمًا مثله بينهم!..

نزلنا أخيرًا ووصلنا لسيارة الشرطة المتوقفة أمام الباب، البواب يشاهدنا ويضرب كفًّا بكف، زوجته تمصمص شفتيها.. صعدتُ في المقصورة الخلفية وركب العسكري بجانبي وانطلقت السيارة تجوب شوارع الإسكندرية وأنا بداخلها أشعر أن دماغي تكاد تنفجر من الصداع، لم أتوتر، لم أبكِ، كنت

فقط أريد لهذا الصداع أن يذهب..

فتحتُ عيني لأجد سيارة أمي تتبعنا، لم أردها أن تفعل ذلك، يكفي ما سببته لها من إحراج لن ينطمس أبدًا، أبي هو مَن كان يستحق أن يكون متواجدًّا في هذا الوقت، لا، ليست فكرة صائبة، لم أكن لأستطيع أن أعود بعدها إلى المنزل لو كان لا يزال هنا بيننا..

وصلنا إلى مديرية الأمن أخيرًا قبل أن تصل سيارة أمي لحسن الحظ.. اقتادني العسكري إلى الداخل ومشينا في طرقة طويلة إلى يسار المدخل ثم توقفنا أمام نفس الحجرة التي أتيت إليها من قبل منذ عدة أيام وطرق عليها العسكري ثم انتظِر حتى أتى صوت من الداخل يطلب منه الدخول، ثم فتح الباب وهو يدفعني أمامه وألقى التحية العسكرية على الضابط الذي يجلس خلف المكتب بالداخل وقال بطريقة مهذبة:

- «(أدهم الكحكي) يا فندم»

أشار له الضابط -الذي لم يكن سوى (سيف) الذي أمضيت معه ما يقرب من أربع ساعات منذ أسبوع تقريبًا في نفس المكتب- بالانصراف، وأشار لي أن أقترب من مكتبه.. اقتربتُ منه في خطوات بطيئة وأنا أشعر برأسي تكاد تنفجر، ثم سمعنا فجأة أصوات خارج المكتب فالتفتُّ، صوت طرقات على الباب ثم عسكري آخر يدخل ويقول:

- «في واحدة ست برة يا فندم وبتقول إنها...»

- «عدِّيني لو سمحت، أنا عايزة أدخل للضابط»

ظهرت أمي على الباب والعسكري يحاول منعها من الدخول،

خفق قلبي بعنف وهممت بالاتجاه نحوها..

- «سيبها تدخل»

دخلت أمي والخوف والتوتر متجليًا على وجهها، أدارت عينيها في وجهينا ثم قالت:

- «ممكن أعرف في إيه؟»

ظل (سيف) ينظر لها طويلًا ولم يتكلم، بدا التوتر على وجهها أكثر من نظراته، ثم قال أخيرًا:

- «أهلًا يا مدام، أنا بس كنت آآآ عايز أتكلم مع (أدهم) شوية عن قضية قتل كده، واحدة اسمها (مايا) اتقتلت وكانت معاهم في الحفلة اللي كانوا فيها في القاهرة، وكنت عايز أعرف منه شوية حاجات، مش عارف حضرتك اتخضيتي ليه كده»

قالت أمي بصوت متهدج:

- «اتخضيت ليه؟ عايزين تتكلموا معاه تقوموا تاخدوه من البيت بالطريقة المهينة دي؟»

أمالَ (سيف) رأسه يمينًا ويسارًا ثم قال وهو ينظر للمكتب:

- إحنا آسفين يا فندم لو سببنالكم إحراج، إحنا حنوصله بعد ما نخلص لغاية البيت»

صاحت أمي:

- «آه، ماهو مش كفاية الفضيحة اللي عملتوهالنا فعايزين تزودوها بفضيحة تانية»

صاح (سيف) فجأة بصوتٍ عال:

- «بقول لحضرتك حبعت عربية توصله ويسلموا عليه ويشكروه قدام الناس كلها، عايزة رد اعتبار أكبر من كده

إيه أنا مش فاهم أنا يعني؟»

أجفلت ووضعت أصابعها أمام فمها، أغمض (سيف) عينيه كأنما يتألم ثم فتح عينيه وقال لها بتهذيب:

- «أنا آسف يا مدام، إحنا آسفين، بس دي قضية قتل»

قالت وهي على وشك البكاء:

- «هو ابني متهم فيها؟»

ظل ينظر إليها أيضًا لفترة طويلة ثم قال:

- «لا لا لا، آآآ احنا بنحقق مع كل اللي كانوا في الرحلة، دي حاجة روتينية مش أكتر، بس بما إن حضرتك معانا هنا دلوقتي، ممكن أعرف ليلة الحفلة، (أدهم) دخل البيت الساعة كام؟»

نظرت لي.. كنت أنا غارق في ذلك الصداع وأتابع ما يحدث بصعوبة بالغة، ظلت تنظر لي لوهلة وأنا لا أعرف ما أفعله ثم نظرت لـ(سيف) وقالت:

- «الساعة ١١:٠٠»

- «حضرتك متأكدة؟»

نظرت لي مرة أخرى ثم قالت دون أن تنظر لـ(سيف):

- «آه، أنا كلمته الساعة ١٠:٣٠ كانوا لسا واصلين، ووصل بعدها البيت الساعة ١١:٠٠، أنا آآآ متأكدة»

ابتسم (سيف)، ونظر للمكتب لوهلة ثم قال:

- «تمام، ممكن حضرتك تروحي دلوقتي وأنا حخلص كلام معاه وحخلي حد يوصله زي ما اتفقنا»

- «أنا عايزة استنى معاه»

قالتها أمي ثم رفعت أصابعها مرة أخرى إلى فمها.. نظر

(سيف) مرة أخرى للمكتب ثم رفع عينيه إليها وقال لها:

- «لو تحبي حضرتك ممكن تستنينا برة لغاية ما نخلص ويبقى يروح معاكي»

ظهر التردد على وجهها للحظة ونظرت لي مرة أخرى ثم اتجهت إلى الباب وغادرت وأغلق العسكري في الخارج الباب خلفها..

تابعتُها ببصري حتى غادرت ثم التفتُّ إلى (سيف) الذي كان ينظر إلى الباب بدوره، ظللت أتطلع إليه وأنا أدعو الله أن يخلصني من هذا الصداع، التفتَ إليَّ أخيرًا وابتسم ثم قال:

- «خليك حلو بقى ومتعاون عشان أسيبك تروح مع ماما.. ها، إحكيلي اللي حصل كده في الرحلة بتاعة القاهرة واحدة واحدة، بس حاول ما تنساش أي حاجة بس عشان أنا بزعل أوي لما حد ينسى حاجة وهو بيحكيلي»

أغمضت عيني في ألم ثم فتحتها فوجدته لا يزال ينظر إليَّ دون أن يبدو عليه أنه لاحظً أنني أشعر بألم من الأساس، أخذت نفسًا عميقًا ثم بدأت أحكي..

ما أتذكره على الأقل..

فليس من بين ما أتذكره ما يمكن أن يثير ريبته..

لكن ما لا أتذكره هو ما يخيفني..

للغاية..

ثم كيف أحكيه له من الأساس وأنا لا أتذكره؟..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

- «ممكن تفهمني إيه اللي بيحصل؟»

لم أرد عليها.. اتجهت إلى الحجرة في نهاية الصالة كأنما أنا غريق يريد فقط أن يصل إلى الشاطئ.. لحقت بي وأمسكتني من يدي فجأة وهي تديرني لأنظر إليها وقالت:

- «إستنى هنا، أنا بكلمك»

التفتُّ لها ولم أرد أيضًا.. قالت بصوتٍ هو مزيج غريب من الغضب والرجاء:

- «أنا أول مرة أكدب النهارده.. كدبت عشان خاطرك، كذبت عشان ماكانش ينفع أقول إنك رجعت الساعة ٣ الصبح وإن هدومك كانت مبهدلة، ماينفعش أقول إن أنا نفسي شكيت فيك من ساعة ما الضابط ده قالي إن في جريمة قتل حصلت يومها لواحدة تعرفها»

ظللت أنظر إليها ولم أرد.. كيف أقول لها أنني فعلًا لا أتذكر ما حدث يومها؟ كيف أقول أن هذا يحدث لي كثيرًا؟.. قررت منذ فترة طويلة ألا أخبر أحدًا بهذا الأمر.. لا أمي ولا غيرها، هذا الأمر خاص بي وحدي، أنا أعرف سببه وأعرف متى بدأ، وأعلم أنه سينتهي في وقتٍ ما.. حتمًا سينتهي.. اقتربَت مني أكثر وقالت وهي تنظر في عيني مباشرة:

- «(أدهم).. إنتَ قتلت البنت دي؟»

كنت أود أن أقول لها أنني لا أعرف فعلًا لكنني آثرت

الصمت.. جذبتُ ذراعي من يدها واتجهت ناحية الحجرة التي كنت أريد الذهاب إليها منذ أن وصلنا..

حجرة البيانو..

أزلتُ الغطاء عنه بعصبية، وجلست، لامست الأصابع البيضاء والسوداء بيدي وكورت يدي استعدادًا للعزف..

- «سيب الزفت ده وخليك معايا»

قالتها وهي تجذبني من يدي وتحاول أن تديرني لأنظر إليها لكني دفعت يدها ووضعت يدي مرة أخرى على البيانو..

وبدأت أعزف..

ثم سمعت صوت بكائها..

توقفت عن العزف والتفت لها.. كانت جالسة على الأرض تبكي بانهيار.. تبكي وكأن هذا آخر شيء تفعله في حياتها..

قمت من مقعدي واقتربت منها وجلست بجوارها وضممت ركبتي إلى صدري ولففت ذراعيَّ حولهما..

كنت أريد أن أضمها إلى صدري وهي تبكي لكني لم أفعل.. ولن أفعل..

فأنا لم أعد أستطيع أن أعطي حنانًا، لها هي بالذات.. فلم أتلقاه منها من الأساس..

سأظل فقط هكذا بجانبها حتى تهدأ، فهذا أقصى ما يمكنني فعله..

لكني لن أحكي لها أي شيء..

أي شيء على الإطلاق..

❖ ❖ ❖

«سيف»

اندفـع (إبراهيم) فجأة داخل المكتـب دون أن يطرق الباب.. كدت أن أنهره على ما فعل لكن التوتر البادي على وجهه جعلني أعلم أن هناك مصيبة وراءه.. قال بالفعل وهو يلهث:

- «طالبين سـيادتك عند مساعد الوزير.. الوزارة كلها مقلوبة يا فندم»

مسـاعد الوزير؟.. أنـا لا أذكر أنني قابلته إلا مـرة أو مرتين.. سألته في قلق لم أشعر به منذ فترة طويلة:

- «في إيه يا (ابراهيم)؟»

قال بسرعة والتوتر يقطر من كلماته:

- «مساعد الوزير، أخت مراته اتقتلت»

ثم صمتَ ليلتقط أنفاسه وقال:

- «بنفس الطريقة»

نظـرت إليه باسـتغراب.. عن أي طريقة يتحـدث؟.. قال دون أن أسـأله:

- «نفـس الطريقة اللي اتقتلوا بيها البنتين اللي فاتوا.. (سـارة) و(مايا)»

هذا ما كان ينقصنا فعلًا.. أن تتحول القضية إلى أولوية أولى للوزارة.. لم أفهم.. ما علاقة أخت زوجة مسـاعد الوزير بالفرقة أو

بكل ما يحدث؟

- «ممكن سيادتك تروحله دلوقتي وأنا حكون جهزت لسيادتك تقرير بكل اللي حصل أول ما ترجع»

قلت له:

- «أرجع؟ هو مش في مكتبه فوق؟»

ابتلع ريقه وقال:

- «لأ يا فندم، هو طالب سيادتك عنده في الڤيلا»

ابتلعت ريقي.. رغم أننا لم نتقابل إلا مرات قليلة إلا أن الوزارة كلها تتحدث عن طريقته الفظَّة في التعامل مع مرؤوسيه.. ستكون زيارة لطيفة بالتأكيد.. سيطلب قَطعًا تقريرًا مفصلًا عمَّا وصلنا إليه في الجريمتين السابقتين.. التقطت چاكت بدلتي من على المقعد وعدلت من قميصي ثم غادرت المكتب دون أن أقول أي شيء لـ(إبراهيم)..

وفي الطريق مررت على ذلك المحل الشهير الذي يبيع القهوة.. إن لم أحتاجها الآن فمتى أحتاجها إذَن؟.. أخذت رشفات سريعة وأنا أقود عبر شوارع الإسكندرية التي بدأت تزدحم في ذلك الوقت من الصباح ثم وصلت أخيرًا للطريق الدولي فضغطت دواسة الوقود بكل قوتي.. لم يمر الكثير حتى وصلت لمنطقة الـ(كينج ماريوت) حيث تقبع ڤيلا مساعد الوزير، وها أنا أصل أمام الڤيلا التي توقفت أمامها عدة سيارات سوداء فخمة.. ترجلت واتجهت للباب وأنا أحاول استجماع أفكاري قدر المستطاع.. ڤيلا فخمة فعلًا.. لا أدري إن كنت سأبتاع واحدة مثلها عندما

أصل لنفس منصبه أم لا ، فلم يعد شـيء يشـعرني بالمتعة ، حتى رؤيتي لها ولكل هذه السيارات لم يثير في داخلي أي رغبة..

تأملـت المفتاح الفخم الموضوع بجانـب الباب وضغطت عليه فانطلقـت موسـيقى عالية بـدلًا من الجرس.. سـمعت خطوات ثم فتـح الباب وظهرت فتاة ذات ملامح آسـيوية ، يبدو أنها الخادمة.. قلت لها «رضوان باشـا» فهزت رأسـها وفتحت لي الباب.. لم أحتج لأن أتأمـل مـا بداخل الڤيلا لأني رأيت جمْعًا من الرجال والنسـاء يرتدون ملابس سـوداء وسـمعتُ أصوات بكاء النسـاء.. ثم رأيته بينهم يربت على كتف امرأة خمسينية تبكي في حرقة..

(رضوان الأنصاري)..

مسـاعد وزير الداخلية والابن الأكبر لوزير الداخلية الأسـبق (مدحت الأنصاري)..

نظر لي وأشـار لي بيده أن أتقدم ، اتجهت إليه ثم وقفت أمامه وأديت له التحية العسكرية ثم قلت:

- «(سيف الأسيوطي)، البقاء لله يا فندم، تحت أمر معاليك»

تطلـع لـي بنظـرة كارهـة لا أدري سـببها ثـم قـال بطريقتـه المتعالية التي سمعت عنها :

- «العـزا بتاعـك إنـك تجيـب القاتـل ده.. أنـا مـش حقدمـه للمحاكمة ، أنا حاقتله بنفسي»

قلت له :

- «تمام معاليك، اعتبر سيادتك إن الموضوع تم»

قال بنفس الطريقة :

- «أنا عايز أعرف إحنا وصلنا لفين في الحادثتين اللي فاتوا؟!»

ابتلعت ريقي.. كنت أتوقع مثل هذا السؤال، قلت له:

- «تمـام معاليـك.. إحنـا حصرنا المشـتبه فيهم فـي مجموعة أفراد ومسألة وقت وحنحط إيدينا على الـ...»

صاح مقاطعًا إيَّاي بصوتٍ جهوري:

- «يعني إيه مجموعة أفراد، أنا عايز اسـم شخص، اسم اللي قتل ده عايزه عندي امبارح مش النهارده»

ابتلعت ريقي مرَّةً أخرى ثم قلت له:

- «إحنـا آسـفين معاليـك، القاتل ماسـابش بصمات وسـلاح الجريمة مش موجود، بس أنا بوعد جنابك إن الموضوع حيخلص في أقرب فرصة»

صاح مرة أخرى:

- «قدامك ٢٤ ساعة من دلوقتي وتقولي اسم القاتل، وعايزك كل ٤ سـاعات تديني تمام وصلتوا لأيه.. سـيبوا كل حاجة تانية معاكم وإدوا للموضوع ده الأولوية الأولى، انتَ فاهم ولا لأ؟»

أومأتُ برأسي فأشار لي بالانصراف.. رفعتُ يدي إليه بالتحية العسكرية مرة أخرى وغادرت في خطوات سريعة..

اتجهت لسيارتي وأنا أعلم أن الأيام القادمة ستكون أطول ما يكون..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

- «(ليلى)، دي المرة الخمستاشر اللي يكلمك وماترديش»

التفتُّ إلى (سالي) وأومأت برأسي ثم عدت أطالع الكتاب مرة أخرى..

لن أرد على (أدهم)، لن أرد على (ياسمين)، سأنفذ نصيحة (حسين) وليكن ما يكون.. صرت أثق به إلى حد كبير وسأرى من سأشتاق إليه في النهاية..

- «ما أنا مش مديرة أعمالِك بروح أمك، خلي التليفون جنبك بقى واعمليه silent ولا أي زفت على دماغك»

لم أرد أيضًا، أنا أعلم أن (سالي) تريد أن تبقي معها الهاتف كي تحصي المرات التي اتصل فيها كلٌّ من (أدهم) و(ياسمين)، ولن تصمت حتى «تجلس على الأساس» كما يقولون..

- «طب لو أمك اتصلت أرد؟»

أشعلت سيجارة ونفخت دخانها في الهواء فوق رأسي وقلت:

- «مش حتتصل.. هي مش فارقة معاها أبات في البيت ولا برا، هي أصلًا حتفرح إني مش موجودة في البيت.. بتحب تقعد لوحدها من غيري، بتجيب رجالة من ورايا شكلها».

ضحكت (سالي) حتى دمعت عيناها وقالت:

- «طب ربنا يوفقها والله، يا بختها.. ممكن تفهميني إنتِ

بتعملي كده ليه؟»

لم أرد أيضًا فاقتربت مني وقالت بعصبية:

- «(ليلى)، إنتِ مش عايزة تقوليلي ليه؟ هو أنا عمري سيحتلك على حاجة؟ حتى موضوع (سارة) اللي ماحدش يعرفه غيري عمري قلت عليه لـ...»

قفزتُ من على الفراش واندفعت نحوها وصحت بغضب:

- «مش عايزاكي تتكلمي عن الموضوع ده تاني، إنتِ فاهمة؟»

تراجعت وقالت وقد بدا عليها أنني أخفتها فعلًا:

- «أنا أكيد مش حاتكلم مع أي حد يا (ليلى)، أنا عارفة إنك كنتِ بتحبيها بجد وهي ماكانتش يعني آآآ ماكانتش زيك»

صرخت فيها:

- «قلتلك ماتتكلميش في الموضوع ده تاني»

تراجعت أكثر وقالت بصوتٍ مهزوز:

- «(ليلى)، بس، إنتِ بتخوفيني»

ظللت أنظر إليها بغضب.. لا ينقصني شعورًا بالذنب كي تذكرني هي بما حدث مع (سارة).. جلست على الفراش ودفنت رأسي بين يدي.. لحظات وشعرت بيدها تمسح على ذراعي لم أرفع رأسي في البداية، لم أردها أن تلحظ أنني أبكي.. أحاطت هي كتفي بذراعها وضمتني إليها.. لم أستطع التحكم في نفسي أكثر من هذا، تعالَى صوت بكائي، لا أدري كم مر من الوقت، شعرت بها تمسح على شعري وتهدئني بكلمات لم

أسـمعها لكنها أشـعرتني بالراحة.. رفعت رأسي أخيرًا فوجدتها تنظر إليَّ وعلى وجهها ابتسامة رقيقة وقالت بصوت منخفض:

- «(ليلى)، لو عايزة تتكلمي أنا سامعاكي»

تـرددت في أن أحكي لها.. لم أسـتطع أن أحكي لـ(حسـين) رغـم ثقتي فيه.. شـيء مـا منعني، يـا إلهي، كم أشـعر بثقل ما حدث على صدري، ثقيلةٌ هي الأسـرار.. لماذا لا يستطيع الإنسان أن يأخـذ معـه ما يعرفـه إلى قبره؟.. شـيء ما يدفعنـا إلى البوح، كان الأسـرار لا تريـد أن تدفـن هـي الأخـرى.. ولِـمَ تُدفَن وهي غيـر فانية مثلنا؟.. لكَم أتمنى أن أموت وأسـتريح من كل هذا.. سأحكي لها، ولتذهب الأسرار إلى الجحيم..

- «أنـا حاسـة بالذنـب يا (سـالي).. حاسـة إني السـبب في إن (سارة) اتقتلت»

وضعت يدها على صدرها وبهت وجهها.. قلت:

- «(سـالي)، أنا قلتلك إني قلتلهـا إني بحبها وهي قالتلي مش حينفع عشـان هي مش بتتشـد للبنات زيي.. بس أنا ماقلتلكيش اللي هي قالتهولي بعد كده»

ضيقـت حدقتيهـا وأومـأت برأسـها.. تلـك الفتـاة تعلم كيف تستمع هي الأخرى.. قلت:

- «هـي حكـت لـي إنهـا بتحب واحـد.. قالـت لي إني شـفته قبـل كده بس ماقالتليـش هو مين.. وقالتلي إنها بتتعذب عشـان هـي بقت بتخاف منـه.. وإنه بقى غريب، وبيتصـرف بطريقة هي مـش فاهماهـا، وقالتلي إنها قررت تسـيبه مع إنهـا بتحبه قوي،

إنتِ عارفة إني اتعرفت على (سـارة) فـي الحفلات أيام ماكانت بتعزف مع الشلـة القديمـة بتاعتنا.. ممكن يكون حد فيهم ولاو لأ ،مش عارفة»

ثم أخذت نفسًا عميقًا في محاولة للسيطرة على مشاعري وقلت:

- «بعدهـا علـى طـول اتقتلـت.. أنـا كنـت الأول شـاكة في (ياسـمين)، بس لما افتكرت الموضـوع ده اتأكدت إنه أكيد هـو اللـي قتلها.. أكيد ماعجبوش إنها تسـيبه كده، فجأة، من اللي هي حكيتهولي أنا فهمت إنه أكيد مريض، ماحدش يخلي بنت قوية زي (سارة) تخاف إلا لو كان مريض، إنتِ فاهماني؟»

كان وجه (سالي) قد تحول إلى الأبيض الآن وقالت بخوف:

- «طب انتِ لازم تقولي لحد.. كده اللي قتل (سـارة) ممكن يكون حد حوالينا واحنا ما نعرفش»

قلت وأنا على وشك البكاء مرة أخرى:

- «أقـول لميـن وأقـول له إيـه؟ إني كنـت بحب واحـدة وهي قالتلي لأ عشـان بتحب واحد وحتسـيبه عشان مجنون فقتلها؟ ولا أقولهم إني كنت بحبها وهي مابتحبش البنات زيي فيشكوا فيا إني أنا اللي قتلتها؟»

ثم تذكرت شيء فجأة.. يا لغبائي.. قلت وأنا أفكر:

- «(سارة) كانت في (طب).. هي أصغر من (أدهم)، ممكن أسـأله إذا كان يعرفهـا أو يحـاول يعرفلنا هـي كانت مصاحبة مين»

- «يعني حتردي عليه؟»

تذكـرت أنني لم أرد على مكالماتـه.. يا إلهي، ماذا أفعل؟.. أحاطتني هي بذراعها وقالت:

- «(ليلى)، إنتِ مالكيش ذنب في اللي حصل لـ(سـارة).. هي ماقالتلكيـش هـو ميـن وانـتِ عندك حق إنـك لو قلتـي حتعملي لنفسك مشكلة وممكن ماحدش يوصل لحاجة.. ممكن يكون مـا حـدش كان يعرف اللي ما بينهم.. بصـي، لما تقرري حتردي على (أدهم) ولا لأ ابقي اسـأليه، بس مش بشـكل مباشر، مين عارف»

أضاءت كلمتها شـيء ما في عقلي.. (أدهم) في نفس الكلية مع (سارة)، (أدهم) يلعب الموسيقى أيضًا.. هل من الممكن أن..

- «مالِك؟»

أفقتُ من أفكاري ونظرت إليها باستغراب لوهلة ثم قلت:

- «آآآ لأ، مافيش.. بفكر في اللي انتِ قلتيهولي.. عندك حق، لمـا (أدهم) يتكلـم تاني حقوله إني عايزة أشـوفه وحسـأله في وسط الكلام»

كان عقلي الآن يعمل بسـرعة جبارة، فما أشـك فيه الآن إما أن يكون وهمًا وإما أنني هذه المرة قد أحببتُ شخصًا مختلفًا.. أحببتُ قاتل..

❖ ❖ ❖

«حسين»

- «كنت متأكد إن سيادتك حتشرفني تاني»

قلتها وأنا أبتسم محاولًا ألَّا يبدو على وجهي ما يعتمل بداخلي، فوجه الضابط (سيف) لا يحمل الكثير من الاضطراب النفسي واللا مبالاة التي كان يحملها في المرة القادمة، بل كانت عيناه أكثر تركيزًا وأقل حركة.. يبدو أن الأمر خطير فعلًا هذه المرة، قال:

- «(ريهام محمود علواني).. حضرتك تعرف حد بالاسم ده؟»

مطيت شفتي وقلت:

- «مش عارف حضراتكم ليه فاهمين إن في ناس ممكن تيجي هنا وتقول أنا اسمي كذا وشغال في الحتة الفلانية وعندي مرض نفسي.. نادر جدًّا أما حد بييجي هنا ويقول اسمه الحقيقي»

أخرج شيئًا ما من الملف الموضوع أمامه على مكتبي وناوله لي.. كانت صورة.. صورة لفتاة تذكرتها بالطبع، فأنا لا أنسى مرضاي قط.. قلت له:

- «عارفها، جاتلي هنا مرة واحدة، قالتلي إن اسمها..»

مد يده فجأة وسحب مني الصورة ووضعها في الملف مرة أخرى ثم قال:

- «إحنا عرفنا إنها فعلًا جتلك مرة احدة.. وعايز أعرف إيه

اللي قالتهولك بالحرف»

قلت بعصبية وقد بدأ هذا الضابط يثير أعصابي فعلًا:

- «يا (سيف) بك، أنا قلت لسيادتك قبل كده إن موضوع سرية المرضى ده م...»

صاحَ مقاطعًا إيَّاي:

- «البنت دي تبقى أخت مرات مساعد وزير الداخلية، يعني الموضوع أكبر مني ومنك بكتير»

ابتلعت ريقي وقلت وأنا أشعر بالتوتر يسري في جسدي:

- «أنا آسف يا (سيف) بك، بس لازم إذْن النيابة»

بدا لوهلة أنه سينفجر فيّ، جحظَت عيناه وازداد توتر زاوية فمه وانقبضت قبضته حتى ابيضت أطرافه، لكنه لم يفعل.. هذا الرجل لديه من الثبات الانفعالي ما يحسده عليه الكثير، رغم أنني متيقن تمامًا أن لديه مشكلة نفسية عضال.. نظر للمكتب لفترة طويلة ثم رفع عينيه إليَّ وقال:

- «أنا ححتاج مساعدتك يا دكتور.. أنا عايز أفهم القاتل ده بيقتل ليه.. أنا كونت نظرية مبدأية بس ححتاج رأي خبير زيك.. وعشان أعرف رأيك حاضطر إني أقولك على تفاصيل في القضية مش من المفروض إن حد برا الداخلية يعرفها دلوقتي، في already تعتيم إعلامي عن الموضوع كله.. وأعتقد إن دي مش أول مرة حد ياخد رأيك في حاجة زي كده ومش محتاج أقولك إن الكلام اللي حقولهولك ده مايطلعش لحد تاني»

أومأت برأسي وبدأت أهدأ قليلًا.. سأقدم له كل ما يريد من

المساعدة، المهم أن ننتهي من هذا الأمر سريعًا.. قال:

- «دي تالت واحدة تتقتل بنفس الطريقة.. طعنات في البطن وفي المهبل.. دي أول مرة أقابل حاجة زي دي، وعايز أعرف رأيك في موضوع الطعنات اللي في المهبل دي»

فكرت قليلًا وأنا أتصور الجريمة البشعة ثم قلت:

- «الجزء ده من جسم المرأة بيرمز للأنوثة، اللي يطعن واحدة في المكان ده بيقتل الأنثى اللي جواها قبل ما يقتلها.. هو كارهها كأنثى وبما إن آآآ...»

توقفت أفكاري كلها فجأة..

توقفت كلها واتجهت إلى ذلك الزمن البعيد عندما كنت لا أزال أخطو أولى خطواتي في مجال الطب النفسي..

كيف نسيت هذه الحالة؟..

- «في حاجة يا دكتور؟»

التفتُّ إليه فجأة كأنما قد أفقت لتوِّي من حلم ما.. لن أخبره بالطبع، قلت:

- «آآآ لأ، افتكرت حاجة كدا برا الموضوع»

نظر لي في شكٍّ لوهلة فقلت وأنا أحاول ألا يبدو عليَّ شرود الذهن:

- «أنا آسف، وبما إن القاتل ده بيكره فيها أنوثتها لدرجة إنه يطعنها بسكينة في رمز أنوثتها ويقتلها، فده مالوش إلا حل من اتنين.. يا إما واحد بيكره الستات كره مرضي بسبب حاجة عملتها فيه واحدة ست، بالذات في مرحلة الطفولة، يا إما واحدة بتكره..»

وتوقفت مرة أخرى عن الكلام وأنا أشعر بالذكريات كأنما ترتطم برأسي من الداخل في عدة مواضع، كما لو كانت تبحث في يأس عن منفذ للخروج فلا تستطيع:

أفقتُ من ذكرياتي ونظرت له فوجدته ينظر لي والشك في عينيه يشتعل.. ابتعلت ريقي وقلت:

- «يا إما واحدة بتكره أمها أكتر ما بتكره أي حاجة تانية، لدرجة إنها كرهت بسببها كل الستات»

ظلت نظراته كما هي مثبتتان على عينيَّ حتى بدأ التوتر يسري في جسدي، إلى جانب عقلي الذي لا يريد أن يمهلني بعض الوقت حتى أفرغ من هذه الجلسة مما زاد من اضطرابي.. قال هو فجأة:

- «دكتور أنا حسألك مرة أخيرة.. في حاجة تعرفها ممكن توصلنا للقاتل؟»

ابتلعتُ ريقي مرة أخرى وقلت بصوت مختنق:

- «لأ»

- «دكتور (حسين)، مش ملاحظ إنه غريب شوية إن كل حالات القتل دي الخيوط بتاعتها بتتجمع عندك؟»

تراجعت في مقعدي.. ماذا يقصد؟ قام فجأة من مقعدة وأمسك بالملف من على المكتب وقال:

- «حجيلك المرة الجاية ومعايا إذْن النيابة يا دكتور»

ثم اتجه إلى الباب في خطوات سريعة..

وما أن خرج حتى فتحت الكمبيوتر الخاص بي وبدأت أبحث

وقلبـي يتواثب داخل صدري.. اسـتغرقت وقـت طويل حتى وصلت فـي النهايـة إلى الملف الـذي كنت أبحث عنه.. اسـتمريت فيما أفعلـه حتى وجدت الرقم الذي أردتـه وخطيته في ورقة أمامي ثم أغلقت الكمبيوتر.. وأمسكت الورقة في يدي وأنا أفكر..

سـأقوم غـدًا بتلـك الزيـارة التـي أجلتهـا لما يقرب من عشـر سنوات كاملة..

سأقوم بها وأنا أدعو الله أن تكون شكوكي في غير محلها..

فمعنـى مـا أفكر فيه الآن أن تلك القضيـة القديمة قد عادت للظهور مرة أخرى..

وكم يثير هذا خوفي..

كيف بعد كل هذه السنوات؟..

كيف؟..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

استنشقت الهواء شبه النقي في ذلك الصباح.. النادي لم يمتلئ بعدُ بالبشــر، هذا جيد، فلا أريد أن أرى مخلوقًا الآن.. أغمضت عيني وتركت الهواء البارد يرتطم بوجهي..

- «إزيك يا (أدهم)»

عرفت صوتها على الفور.. فتحت عيني والتفتُّ إلى الصوت..

وهــا هــي أمامــي، جميلــة مثل الصبــاح البكــر.. خائنــة مثل مثيلاتها من العاهرات..

(مَي)..

نظــرتُ إليهــا طويــلًا.. لم يخفــق قلبــي مثلما كنــت أتوقع أن يحــدث إذا ما رأيتها.. وها أنا أتســاءل: كيــف أحببت هذه الفتاة من الأســاس؟.. ظللــت أنظر إليهــا وكرهي إليها يــزداد مع كل لحظــة تمر.. قطبت حاجبيها وقالــت بصوت رأيت في وقت ما من قبل أنه رقيق:

- «أنا ماشفتكش بقالي كتير»

قلت لها وأنا أشعر أن قبضتاي تتقبضان رغمًا عني:

- «عايزة إيه؟»

بدا الأســى على وجهها وقالت وكأنها على وشك البكاء وإن كنت لم أعد أصدق انفعالاتها:

- «أنــا عارفــة إنَّك أكيــد بتقول عليًّــا إن أنا زبالــة ، بس انتَ ماتعرفش اللي حصل.. ماما هي اللي...»

قلت مقاطعًا إيَّاها وقد بدأ الغضب يظهر في صوتي:

- «مــش عايــز أســمع حاجــة ، إنــتِ و(كريــم) لايقيــن علــى بعض، وأمك كمان، شــوية مُدعين.. إنتم مش أكتر من كده.. ماكانــش ينفعش غير إنكم تكملــوا مع بعض، أنا اللي كنت غلطــان من الأول لمــا افتكرت إنك ممكن تطلعــي حاجة تانية غيــر أمــك، والحمد لله إني شــفتكم يومها وعرفــت من الحمار اللــي انــتِ مخطوبالــه بدل مــا كانت تيجــي منك انــتِ.. كانت حتبقى صعبة عليا قوي»

رأيــت الدمــوع تمــلأ عينيهــا.. كان مــن الممكن في وقــت ما ألا أسامح نفسي لأنني أنا سبب هذه الدموع، لكنني الآن أشعر براحة لم أشــعر بها منذ فترة طويلة.. دائمًا ما يحدث موقفًا ما، وأفشــل في قول مــا أريد، ثــم أتذكر الموقــف بعدها وأعيده في ســري وقد تصرفت بطريقة أخرى، طريقة مُثلَى، فقط ليهدأ عقلي الباطن قليلًا.. وها أنا ذا، الآن، ولأول مرة، أتصرف مثلما كنت أريد بالضبط..

ولأول مرة أيضًا سأفعل ما أردت أن أفعله منذ أن وقعت عيناي عليهــا منــذ دقائق قليلــة.. القيتُ نظرة محتقرة عليهــا ثم تركتها ورحلت..

وللمرة الأولى أيضًا أرى أن العالم ليس بهذا السوء مثلما كنت أظن منذ قليل..

❖ ❖ ❖

«سيف»

- «معاليه مستني حضرتك، ممكن سيادتك تدخل دلوقتي»

التفتُّ إلى مدير مكتبه وأومأت برأسي ثم قمت واقفًا وأنا أعدل من ياقة قميصي بحركة لا إرادية وتقدمت تجاه مكتبه وطرقت الباب ثم انتظرت حتى سمعت صوته الجهوري يطلب مني الدخول ثم فتحت الباب ودخلت وأغلقته خلفي في رفق..

لم أدخل هذا المكتب من منذ أن تولى هو منصبه.. كان يجلس خلف المكتب الضخم الذي يحتل جزء كبير من منتصف الحجرة الفسيحة، حوائط الغرفة مجلدة كلها بالخشب بندقي اللون، وكانت الستائر مُسدلة على النوافذ فأعطت -مع إضاءة الأباجورة الضخمة الموضوعة في الركن- جوًّا من الرهبة غير المحببة، لا أعرف إن كان يقصد بالفعل خلق هذا التأثير الذي يتركه مرأى الغرفة للوهلة الأولى في نفوس من يدخلها، لكنه نجح بالتأكيد في إثارة الرهبة في نفسي، أنا الذي كنت أعتقد منذ أيام أنني قد فقدت القدرة على الإحساس من الأساس..

كان ينظر في ملف ضخم موضوع أمامه.. أشار لي بيده أن أقترب دون أن ينظر إليَّ.. تقدمت نحو المكتب ثم توقفت على مسافة متر واحد منه ورفعت يدي بالتحية العسكرية.. قال هو بصوته المهيب:

- «ها، وصلت لأيه؟»

رفعـت عيني أتأمل البراويز العديدة المعلقة خلفه والتي تحوي بداخلها شهادات التقدير التي حصل عليها خلال فترة خدمته في الداخلية ثم عدت أنظر إليه.. لست أدري لماذا لدي اعتقاد أن أي رجل يصل لسـن الأربعيـن دون أن يتدلى كرشـه أمامه لهو رجل جدير بالدراسة.. كنت أتأمل ملامحه الوسيمة برغم عمره الذي قارب على الخامسـة والخمسين، شـعره الأشيب المصفف جيدًا وقوامه المتناسق الذي لا أعرف كيف يحافظ عليه.. أنا أجد في الطعـام متعة حقيقية، إن لم يكن المتعـة الوحيدة المتبقية لدي فـي الحيـاة، لذا أنـا واثق تمامًا أن من يتخلى عـن لذة الطعام من أجـل أن يبقى رشـيقًا؛ يمكنـه أن يفعل أي شـيء آخر.. تنحنحت لأسلك حنجرتي ثم قلت محاولًا اختيار كلماتي:

- «إحنا عرفنا سـيادتك إن المرحومـة كانت بتروح لدكتور نفساني»

رفع عينيه عن الملف الذي أمامه وقطب حاجبيه وقال:

- «دكتور نفساني؟»

قلت:

- «أيـوا معاليـك، هـي راحـت لـه مرة واحـدة بـس.. أنا رحت للدكتـور ده بنفسـي وحاولـت أعـرف منـه تفاصيـل أكتر عن الزيارة دي، بس هو رفض وطلب إذْن النيابة عشان يدينا الشرايط اللي عليها تسجيل الجلسة، ممكن جدًّا يا فندم تكون قالت له حاجـة تنفعنـا في القبض علـى القاتل.. معاليك عـارف إن البنات في السن ده بيروحوا للدكاترة النفسيين غالبًا عشان يفضفضوا

بحاجات ماينفعش يقولوها لحد تاني، خصوصًا إنها استخدمت اسم مستعار وماقالتش اسمها الحقيقي للدكتور»

شرد ببصره قليلًا ثم نظر إليَّ وقال:

- «ماشي يا (سيف)، سيب اسم الدكتور وعنوانه برَّه وأنا حتأكد بنفسي إن التصريح ده حيكون معاك بكره.. في أخبار تانية؟»

قلت له:

- «إحنا في انتظار تقرير الطب الشرعي معاليك.. المفروض يطلع خلال ساعتين بالكتير.. ممكن يكون المرة دي في أي آثار سابها القاتل»

قال على الفور:

- «والجريمتين اللي قبل كده؟»

هززت رأسي وأنا أشعر أنه سيلومني على عدم إحراز تقدم وقلت:

- «لسا معاليك، إحنا استجوبنا كل الناس اللي قريبين من القتيلة الأولى والتانية ولغاية دلوقتي لسا ماحطيناش إيدينا على حاجة صلبة»

ظل ينظر لي بنفس النظرة المتعالية التي تحمل الكثير من الكره غير المبرر ثم قال لي وهو ينظر في الأوراق الموضوعة على مكتبه مرة أخرى:

- «ماشي، روح دلوقتي وبلغني أول بأول وصلت لإيه»

رفعت يدي بالتحية العسكرية ثم اتجهت إلى الباب وغادرت وأنا أفكر في القضية التي إما ستتسبب في أن أجد قاتل الثلاث فتيات في ما يقل عن ٢٤ ساعة أو أن يتوقف مستقبلي في الوزارة عند هذا الحد..

«ياسمين»

- «وأنا عايزة ماكياتو، يبقى كده أميريكانو بلاك وماكياتو»

هزَّ النادل رأسه في أدب وذهب لإحضار ما طلبناه، التفتُّ إلى (أدهم) الجالس أمامي ناظرًا إليَّ وفي عينيه الكثير من التساؤلات.. ابتسمت له ابتسامة حاولتُ قدر المستطاع ألا تبدو صفراء وقلت:

- «دي أول مرة نخرج مع بعض، يعني، حسيت إني محتاجة أتكلم مع حد شوية، الباند بقى واخد كل وقتي تقريبًا لدرجة إني ساعات بحس إني ماعنديش وقت أفكر حتى»

ظل ينظر لي دون أن يتكلم.. قلت له:

- «إنتَ عارف إن (ليلى) مابتردش على مكالماتي خالص بقالها يومين؟ أنا كلمتها في البيت مامتها قالتلي إنها بايتة عند واحدة صاحبتها، أعرفها بس ماليش كلام معاها قوي، مش عارفة أعمل إيه»

لم يرد أيضًا، بدأت أشعر بقدمي تهتز واختفت الابتسامة عن وجهي، أمسكت بعلبة سجائري وأخرجت سيجارة وأشعلتها بأصابع مرتجفة ثم أخذت نفسًا وحبسته داخل صدري لثوانٍ ثم زفرته وقلت له:

- «(أدهم) إنتَ بتحب (ليلى)؟»

ظل ينظر لي طويلًا حتى ظننتُ أنه لن يرد ثم قال أخيرًا:

- «لأ»

نظرت إليه باستغراب.. لم أتوقع مثل هذه الإجابة الصريحة، أخذ يعبث بمفاتيحه الموضوعة على المنضدة وقال:

- «أنا مش عايز (ليلى)، مش عايز اللي تحسسني إني مش فاهم هي عايزاني ولا مش عايزاني، أنا تعبت من العلاقات اللي بالشكل ده، تعبت إني أفضل أفكر كل يوم حتسيبني امتى.. أنا مش عايز أحس الإحساس ده تاني»

لسبب لا أدريه شعرت أنه صادق فيما يقول عن خوفه من أن يتعذب مرة أخرى، لكنني صرت أعلم تمامًا أيضًا من كلماته أنه يحبها.. آه من ضعف الحب هذا.. لو عادت إليه (ليلى) الآن سيرحب على الفور، بل وسيرقص قلبه طربًا لعودتها.. قال وهو يشرد ببصره بعيدًا:

- «(مايا) كان عندها حق في اللي هي قالتهولي.. أنا و(ليلى) فعلًا ما ننفعش لبعض، هي غيري في كل حاجة، وأنا مش حقدر أسعدها ولا حبقى سعيد معاها»

كنت أعلم تمامًا أن (مايا) قالت له هذا، لكني لن أخبره بالطبع..

قلت وأنا أحوِّل دفَّة الحديث:

- «(أدهم)، أنا طلبت إني أقابلك النهارده عشان كنت عايزة أتكلم معاك شوية.. (أدهم) إنتَ بقيت أهم حد في الفرقة دلوقتي ويهمني إن كل شيء يبقى واضح عندك، بالذات من ناحيتي أنا و(ليلى)»

أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة وزفرته للجهة الأخرى كي لا يضايقه الدخان ثم نظرت له وقلت:

- «أنا و(ليلى) في إشاعات كتير بتطلع علينا، إننا يعني، lesbians، بس الإشاعات دي مش صح، أنا و(ليلى) صحاب مش أكتر، كل الحكاية إني بخاف عليها أوي عشان هي صاحبتي، وعشان عارفة إنها كتير بتاخد قرارات غلط وتندم عليها بعد كدا»

سحبت نفسًا آخر من السيجارة ووقلت وأنا أراقب وجهه الذي صار جامدًا وإن كنتُ أشعر أنه بداخله يشتعل، وقلت:

- «وزي ما هي صاحبتي وبخاف عليها، زي ما انتَ بقى ليك معزَّة كبيرة أوي عندي، ده غير إني زي ما قلت لك إنك بقيت أهم واحد في الفرقة، وأكيد يهمني إن أهم واحد ده يبقى مستقر نفسيًّا ومايدخلش في علاقة فاشلة، أو بمعنى أصح أنا واثقة إنها حتفشل لأنكم غير بعض تمامًا، فالعلاقة دي تخليك تسيب الباند بسبب إنك مش عايز تشوف (ليلى) تاني مثلًا»

قطب حاجبيه ونظر للجهة الأخرى.. ثم عاد ينظر إليَّ بعينين ملأهما الحزن، هممت بقول شيء ما إلا أن جرس هاتفه الموضوع على المنضدة رنَّ في تلك اللحظة، وقعت عيني على شاشة الهاتف ولمحت اسم (ليلى).. أمسك هو بهاتفه على الفور وقلبه على الناحية الأخرى وأسكت الجرس، بدا عليه التفكير لحظات ثم قال لي وهو ينهض:

- «ثواني وحرجعلك»

ثم اتجه إلى باب الكافيه وهو يضع الهاتف على أذنه..

شعرت بالدم يصعد إلى رأسي.. كان معي حق إذَن، كل الكلام الذي قاله عن أنه سأم من الأسى والعذاب الذي يعانيه في الحب، ومحاولتي تلك في إقناعه أنه و(ليلى) لن يمكنهما التفاهم سويًّا، كل هذا ذهب مع أول محاولة من (ليلى)..

يبدو أنني سأحتاج هذه المرة إلى شيء أكبر مما فعلته في المرة السابقة..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

- «أنـا مـش فاهـم أي حاجـة، انـتِ ماكنتيـش بتـردي على تليفوناتـي، وكلمتينـي فجـأة قلتيلـي عايزة أشـوفك، ودلوقتي رايحين على مكان مش عايزة تقوليلي هو فين.. ممكن تفهميني في إيه؟»

قالها (أدهم) بعصبية وهو جالس بجواري في سـيارتي.. كنت أنـوي أن أقـول له بالفعل على وجهتنا قبـل وصولنا لكن يبدو أنه لن يصبر حتى أرتب ما سأقوله له في رأسي.. لم أتدرب على قول شيء كعادتي، سأقول ما تفتق إليه ذهني الآن وليكن ما يكن.

- «(أدهـم)، أنا في حاجة ماقلتلكـش عليها.. أنا بروح بقالي فترة لدكتور نفساني»

رمقتـه بنظرة جانبية فوجـدت عيناه مثبتتان علـى وجهي وهو عاقد الحاجبين.. نظرت للطريق مرة أخرى وأكملت:

- «أنا حكيت له عليك يا (أدهم)، وهو قال لي عايز يشوفك»

ظـلَّ صامتًا.. نظرت إليه مرة أخرى فوجدته ينظر عبر النافذة على يمينه، قلت له:

- «إنتَ مابتردش ليه؟»

ظل صامتًا لفترة أطول ثم قال بهدوء:

- «إنـتِ ماطلبتيـش رأيـي، إنـتِ **already** رايحـة للدكتـور دلوقتي»

أتفهم تمامًا غضبه مما أفعل لكن ما لدي من الشكوك يجعلني أتصرف بهذه الطريقة، من الجائز جدًا أنه كان سيرفض الذهاب إلى الطبيب لو كنت قلت له قبل هذا.. مددت يدي ووضعتها على رسغه فأزاح يدي والتفت لي وقال بعصبية:

- «(ليلى) أنا معنديش أي مشكلة مع إنك تروحي لدكتور نفساني، أنا نفسي كنت بروح لدكتور نفساني، بس عندي ميت مشكلة مع إنك تمشيني كده زي الخروف مش عارف حاجة، تظهري وتختفي زي ما انتِ عايزة، أنا عملتلك إيه عشان كل ده؟»

سألته عمَّا أهمني في كل ما قاله:

- «إنتَ كنت بتروح لدكتور نفساني ليه؟»

قال بعصبية شديدة:

- «ده اللي انتِ سمعتيه من كل اللي قلتهولك؟ ده أنا ماسألتكيش انتِ بتروحي ليه لما قلتيلي إنك بتروحيله!»

أعلم تمامًا أن لديه حق في ما قاله.. فكرت لوهلة ثم قلت:

- «أنا حكيت له عنك عشان أنا مش فاهمة نفسي، مش فاهمة أنا حاسة ناحيتك بإيه؟ إنتَ عارف، في أغنية لـ(نانسي عجرم) فيها حتة بتفكرني بيك دايمًا، (نفسي أعرف بس إيه يربطني بيك)»

قال على الفور:

- «(حاجة أكبر من الغرام شدتني ليك)، عارف الأغنية، بس انتِ أكيد تقصدي النُّص الأول بس، مش كده؟»

لم أرد، ولم يتكلم هو مرة أخرى.. ظللنا صامتَين حتى وصلنا إلى العيادة فأوقفت سيارتي.. تبادلنا نظرة سريعة ثم هبطنا من السيارة واتجهنا إلى البناية التي تقع فيها العيادة..

كنت أريد بشدة أن أسأله الآن عن (سارة) وما إذا كان يعرف مَن الذي كانت على علاقة به، لكني آثرت أن أؤجل هذا السؤال لما بعد الزيارة.. أريد أن أرى ملامح وجهه عندما يتلقى السؤال، أريد أن أعرف بعينيَّ إن كان يكذب وهو يرد أم لا..

فلننهي هذه الزيارة أولاً ثم سأنهي هذا الموضوع..

وللأبد..

❖ ❖ ❖

«حسين»

ظللت أنظر إليهما وأنا أشعر أنني قد شِختُ فعلًا..

شاب وفتاة في مقتبل العمر، كل منهما يُكنُّ مشاعر إلى الآخر.. لعنتُ نفسي في سري على الفكرة التي قلتها لـ(ليلى).. ما كان يجب أن أضع نفسي بينهما بأي شكل وتحت أي سبب.. لن أضمن تمامًا أن يكون رأيي محايدًا وأنا أتمنى أن تنتهي هذه العلاقة الآن وأظفر أنا بـ(ليلى)..

ألهذا الحد قد يصل الحب؟..

حاولت ألا يبدو على ملامحي ما أشعر به ورسمت على وجهي ابتسامة يعلم الله كيف نجحت في وضعها على وجهي من الأساس وقلت:

- «(ليلى) لو تحبي تسيبينا أنا و(أدهم) شوية وتستنينا في الـcatering room.. أول أوضه على اليمين، في ماكينة قهوة هناك، أنا عارفك بتحبي القهوة»

أومأت برأسها وتبادلت نظرة معه ثم اتجهت إلى الغرفة الأخرى..

التفت (أدهم) إليَّ وعلى وجهه بدت تساؤلات لا حصر لها.. لم أمنحه وقتًا أطول للتفكير.. التقطتُ ورقة بيضاء في حجم اليد من أمامي وخطيت فيها شيئًا سريعًا ثم وضعتها أمامه وقلت:

- «قبل ما نبتدي، أنا عايزك يا (أدهم) تكتب هنا ثلاث حاجات ترد بيها على السؤال اللي في الورقة دي، اكتب اللي

فكـرت فيه وحط الورقة مقلوبة قدامك، وبعد ما نخلص كلام مـع بعض عايزك تبص عليهم تاني، ولو لسـا مقتنع باللي كتبته إدي الورقة دي لـ(ليلى) أول ما تدخل»

مد يده وأمسك بالورقة وقرأ ما فيها ثم رفع عينيه إليَّ وفيهما تجلَّت أمارات عدم الفهم.. بالتأكيد لا يفهم ما أقصده، سيعرف كل شـيء فـي حينـه.. تـردد للحظـة ثم مـد يـده والتقـط القلم الموضـوع أمامـه وبـدأ يكتب دون حتـى أن يفكـر.. هـذا جيد.. أريـد ما يراه الآن لدرجة أن يكتبه دون تردد.. انتهى من الكتابة بالفعل ووضع الورقة مقلوبة أمامه.. ابتسمت له ثم قلت:

- «كلمني شوية عن (ليلى)»

كان يبدو عليه أنه سـلَّم أنه قد أتى هنا ليتكلم، حتى لو لم يُرِد ذلك، قال:

- «مشكلتي مع (ليلى) إنها...»

قاطعته قائلًا:

- «لـو بـدأت الـكلام بكلمـة مشـكلتي معاهـا يبقى مش حنوصل لحاجة»

قال بعصبية شديدة:

- «أنا عايز أعرف أنا بعمل إيه هنا بالضبط، لو كانت (ليلى) قالتلي من الأول إني حاجي معاها هنا ماكنتش رضيت، ممكن تفهمني بقى إيه اللي بيحصل بدل ما امشي دلوقتي حالًا»

انتظرت قليلًا لأعطيه فرصة للهدوء، ثم قلت:

- «أنـا طلبت مـن (ليلى) إنها تجيبك معاها الجلسـة دي عشـان

هي حكت لي حاجات كتير تخليني أخاف إن يحصلها انتكاسة لـو دخلـت فـي علاقة غلـط في الوقـت ده، أنـا عارف إنـك أكيد حتبقى عايز الخير ليها عشان كده فيه حاجات لازم نتكلم عليها النهارده، ولو معترض، مافيش مشكلة ممكن تمشي، بس خليك متأكد إنك ماساعدتهاش عشان تعدي المرحلة اللي هي فيها دي»

ظـل ينظـر لي لوهلـة، تركته تمامًا حتـى أومأ برأسـه.. تراجعت في كرسيِّي وقد أعلن بإيماءته تلك أنني صرت المتحكم في الجلسة قلت:

- «الإمكانيات بتتطور مع التشجيع، وبتقل تمامًا مع النقض.. الحب قدرة، إمكانية ممكن برضو تزيد وتقل مع المدح.. عشان كـده فـي المرحلة اللي (ليلى) مش قادرة تاخـد قرار إذا كانت تحـب ولا لأ، لازم يبقـى تقبلك ليها طالع من قلبك، ولازم كمان تبقى سخي أوي في مدحك ليها، فاهمني يا (أدهم)؟»

قال بعصبية:

- «دي كدبت عليًّا وخلِّت واحدة صاحبتها ترد عليا في التليفون وتقول لي إنها عملت عملية في عينيها ومش عارفة ترد عليا»

- «حتـى لـو عملـت غلطات في الوقـت ده، ما تلفتـش نظرها لغلطاتهـا بشـكل مباشـر، خليهـا تحافـظ على شـكلها قدام نفسـها، هـي دلوقتي بتـدور في كل حتة عشـان تفهم نفسـها، شـجعها على كده واستحملها، حاول تديها سمعة كويسة قدام نفسها، قولها مثلًا: (ليلى) اللي بيعجبني فيها إنها دايمًا صادقة، عمرهـا مـا بتضحك عليا، خليها تبقى نفسـها تكون زي ما انتَ بتقول، إتكلم على عيوبك انتَ الأول قبل ما تتكلم على عيوبها،

حتتقبل منك بعد كده، وحتتغير»

- «ماحدش بيتغير»

قلت على الفور:

- «أنا موافقك، بس انتَ مش بتحاول تغيرها، يمكن أنا خاني التعبير، إنتَ بتدور جواها على حاجة حلوة متغطية، موجودة فيها بس متغطية»

كنت أحاول أن أجعله يهتم بها ويظهر لها هذا الاهتمام.. هذا ما تحتاجه هي الآن.. هناك مقولة قديمة أنك تستطيع أن تصنع صداقات في شهرين عن طريق اهتمامك بالناس أكثر مما يمكنك أن تصنعه في عامين بمحاولة جعل الناس تهتم بك!.. يؤلمني أنِّي أحاول أنْ أجعلها سعيدة مع شخص آخر، لكني أحاول جاهدًا أن أجعل (حسين) الطبيب هو مَن يتواجد في هذه اللحظة.. رأيت وجهه يلين قليلًا وبصره يشرد، قلت:

- «دي الطريقة الوحيدة في التعامل مع (ليلى)»

نظرتُ في ساعتي، كدت أن أنسى ذلك الموعد، يجب أن أتحرك الآن.. قلت:

- «أنا كنت عايز أتكلم معاك أكتر من كده، إحنا اتكلمنا عن (ليلى) بس وماتكلمناش عنك، المرة الجاية عايزك تيجي معاها برضو، بس عايز أقعد معاك أكتر من كده.. ودلوقتي، ممكن تقلب الورقة وتبص فيها تاني، وتقولي لسا موافق عاللي كتبته فيها ولا لأ؟»

أومأ برأسه دون أن يقلب الورقة.. ناديت على (ليلى) فظهرت

علـى باب الغرفة وتقدمت نحونا وفي يدها كوب ورقي تفوح منه رائحة القهوة، ابتسمتُ لها وقلت:

- «أنـا كنـت طلبـت من (أدهـم) إنـه يكتب ثـلاث حاجات عايزهـا تتغير فيكي قبل ما نتكلـم، وإنه يبص عليها تاني بعد ما اتكلمنا ويشـوف هو لسـا موافق عليهـا ولا غير كلامه.. هو ماغيـرش كلامه، ممكـن تديهـا الورقة، مش عايـزك تقولي كتبت فيها إيه، عايزها هي اللي تقراها»

وأشـرت للورقة فالتقطها هو وناولها إيَّاها بابتسامة.. خطفتها منـه علـى الفور وقرأتهـا واللهفة ظاهرة في عينيها، ثم ابتسـمت واحمرَّت وجنتيها قليلًا لأول مرة منذ أن رأيتها ونظرَت إليه.. لم أرَ في عينيها هذه السعادة من قبل.. قالت وهي تنظر إليه:

- «ولا حاجة، أنا بحبها زي ما هيَّ»

خفق قلبي.. فلتسـعدها إذَن أيها التَّعِس أو لأقتلنك إن لم تنجح فـي إبقاء تلك الابتسـامة في عينيها.. قلت لهمـا وأنا ألتقط بعض الأشياء من على المكتب:

- «أنـا حانزل بعديكم على طول عشـان عندي مشـوار مهم.. مستنيكم انتم الاتنين المرة الجاية.. خدوا بالكم من بعض»

تبادلوا النظرات ثم غادرا سويًّا وتركاني وحدي..

ولأول مرة منذ فترة طويلة جدًّا أجد عينيَّ تدمعان..

لماذا أشعر أنني لن أراها مرة أخرى؟..

❖ ❖ ❖

«سيف»

ظللت أنظر إليه، مغلق العينين كان، رأسه على المكتب، صحت:

- «طبعًا مش حتقول لي مين اللي عمل كده، صح؟ وما رضيتش تقولي (ليلى) أو (ريهام) أخت مرات اللوا (رضوان) قالولك إيه، المفروض أعرف من مين؟ ها، من مين؟»

رفعتُ عيني فوجدت الجميع أعينهم مثبتة على وجهي، أدرت عينيَّ في وجوههم فعاد كل منهم لما كان يفعله، كلهم عدا (إبراهيم) الذي قطب حاجبيه وقال:

- «(سيف) باشا، مش شايف سيادتك إنه حيبقى صعب شوية يرد عليك؟»

ظللت أنظر إلى (إبراهيم) ثم عدت أنظر مرة أخرى إلى (حسين) ذلك الطبيب النفسي.. أحيانًا أشعر أن (إبراهيم) على حق..

فكيف سيرد عليَّ الطبيب ورأسه موضوع على المكتب بينما جسده ممدَّدًا بجوار المكتب على الأرض؟!..

- «إحنا قلبنا العيادة سيادتك.. مافيش أي أثر لأي شرايط تسجيل، سيديهات، مافيش أي ورق أو مذكرات، الكمبيوتر مش موجود، مافيش أي بيانات تمامًا»

أشرتُ إلى المكتب بجوار رأس الطبيب وقلت:

- « طيب هو ساب الكيبورد والماوس، كتر خيره والله»

بدَت العصبية على صوت (إبراهيم) وهو يقول:

- «إحنـا في الأول قلنا إننا حطينـا إيدينا على نمط بيتكرر، واحـد مختل وبيقتل السـتات بطريقة شـبه ثابتـة، لكن دلوقتي راجل اللي اتقتل، وراسه مقطوعة، صحيح في طعنات برضو في البطـن بس النمط اتغير، كدا ممكـن يكون في قاتل تاني أو حد بيحاول يوهمنا إن في قاتل تاني»

قلت وأنا أشعر أنني أكاد أجن:

- «النمط ماتغيرش ولا حاجة، ومافيش قاتل تاني.. (حسـين) حلقـة وصل فـي كل جرايم القتل اللي فاتت، فيما عدا (سـارة) اللـي فـي الأول.. (ليلى) و(ريهـام) كانوا بييجوا هنـا، الموضوع مش حيخرج برا حد من العيال دول برضو»

- «(سيف) باشا»

التفتنـا إلى أحد رجـال البحث الجنائي الذي وقف ممسـكًا فـي يده بورقة صغيرة موضوعة في إحدى الأغلفة البلاسـتيكية الخاصة بجمع الأدلة ومدها ناحيتي وقال:

- «الورقـة دي لقيناهـا تحـت المكتـب.. دي الورقـة الوحيدة تقريبًا اللي لسـا فـي المكتب.. ممكن القاتـل يكون ماخدش بالـه منها، قلت أكيد سـيادتك عايز تبـص عليها قبل ما نحطها مع باقي الأدلة التانية»

نظـرت لـه في غيظ.. كأنمـا يوجد أدلة أخرى من الأسـاس.. التقطـت الكيس البلاسـتيكي من يده واقتـرب (إبراهيم) مني

ليرى ما بها..

كانت ورقة ملاحظات قابلة للصق، sticky note عادية، وقد خط عليها الآتي:

٢٠٠٨-أ ح د-٢٣٦٤

تأملت الورقة محاولًا فهْم فحواها ثم ناولتها لـ(إبراهيم) الذي نظر فيها هو الآخر ثم رفع عينيه إليَّ وبدا عليه عدم الفهم.. قلت:

- «عايزين نتأكد الأول إذا كان ده خط الدكتور، وبعد كده نشوف ممكن الكود ده يكون له علاقة بملف معين عنده، لو الملفات بتاعته كانت لسا هنا كنا ممكن عرفنا، وممكن مايكونش حاجة ليها علاقة بالقضية عمومًا بس أدينا بننفخ في الزبادي»

وقلت وأنا ألقي نظرة أخيرة على جسد (حسين) المسجَّى بلا رأس أمام المكتب:

- «وكالعادة، لو لقيت المرة دي أي بصمات ولا أي زفت سابه القاتل بلغني فورًا»

ثم التفتُّ إلى رأس الطبيب مرة أخرى وقلت:

- «غبي»

ثم أمام عيونهم التي باتت متأكدة من أنني مختلًّا عقليًّا تمامًا، اتجهت للباب لأغادر عيادة الطبيب..

- «(سيف) باشا»

توقفت قبل وصولي للباب مباشرة والتفتُّ لمصدر الصوت.. كان رجل آخر من رجال المعمل الجنائي، اقترب مني في

خطوات سريعة وقال:

- «النوتة دي لقيناها في جيب البالطو بتاع الدكتور»

مددت يدي بسرعة لألتقطها، لكنه سحبَها فجأة فرمقته بنظرةٍ صارمة وهممتُ بأن أصب عليه جامَ غضبي، إلا أنه قال بسرعة وهو يبحث في جيب وِزرة العمل المصنوعة من البلاستيك المرن التي تغطي جسده كله:

- «معلش، سيادتك بس لازم تلبس جوانتي عشان البصمات، سيادتك حتبص فيها وهي مش محطوطة في كيس من بتوع الأدلة»

ثم أخرج من جيبه قفاز مطاطي ناولني إياه، ارتديته بسرعة وأنا أنظر إليه فأشاح بوجهه وهو يتحاشى نظراتي، ثم جذبتُ النوتة من يده بعصبية وبدأت أقرأ ما بها..

ظللتُ أقرأ وأتصفح حتى وصلت لنهايتها، رفعت عيني عن النوتة أخيرًا وشردت لبعض الوقت وأنا أفكر فيما كتب فيها ثم التفتُ إلى رجل المعمل الجنائي وقلت له وأنا أضغط على حروف كلماتي وأشعر بعينيَّ تكادان تغادران محجرهما من فرطِ الجحوظ:

- «النوتة دي، تخلصوا شغل عليها، بصمات بقى والحاجات بتاعتكم دي، وتجيبهالي على طول، ماتحطهاش مع الأدلة قال يعني في أدلة أصلًا، فاهمني؟.. النهارده تبقى عندي»

أومأ الرجل برأسه وبدا التوتر جليًّا على وجهه، ثم ابتعد ليكمل ما يفعله..

ظللت واقفًا أفكر مرة أخرى فيما كُتب في النوتة ، ثم خلعت القفازين من يديَّ وألقيت بهما في سلة مهملات وجدتها بجواري ، ثـم اتجهـت للباب وغـادرت العيادة فـي هدوء لا يعكـس أبدًا ما يعتمل بداخلي..

❖ ❖ ❖

«سيف»

سأقبض عليهم جميعًا وأضعهم في الحجز حتى يعترفوا، بل وسأجعل (جابر) يعرفهم «بطريقته» أن الاعتراف أحيانًا قد يخلصهم من الكثير من الأشياء التي لا قِبَل لهم بها.. سأوصي عليهم أيضًا في الزنزانة حتى يتم عمل «تحية» تليق بمكانتهم كأطباء في المستقبل، وليروني كيف سيتناسون ما حدث معهم فيما تبقى لهم من العمر..

كنت أجلس مستندًا برأسي على يديَّ واضعًا رسغيَّ على المكتب، ومتخيلًا أمامي كل مَن كان في تلك الرحلة المشؤومة وهم يبكون ويترجونني أن آخذ اعترافاتهم حتى أخلصهم مما هم فيه حين سمعتُ طرقات على الباب، رفعت رأسي وانتظرت قليلًا ثم أذنت للطارق بالدخول فانفتح الباب واندفع (إبراهيم) إلى الداخل حاملًا في يدهِ ورقة، رفعت عيني إلى وجهه فوجدت قطرات العرق على جبينه وفمه مفتوح قليلًا وعينيه زائغتان بعض الشيء.. هي مصيبة جديدة إذَن، لم يعطني هو فرصة للاستنتاج وقال بطريقة سريعة وهو يمد يده إليَّ بالورقة:

- «تقرير الطبيب الشرعي وصل بتاع (ريهام) أخت مرات (رضوان) بك»

ظللت أتابع عينيه المثبتتان على الورقة ثم مددت يدي لألتقطها وأنا أتصور مئات الاحتمالات لما يمكن أن يحمله التقرير،

أخذت نفسًا عميقًا ثم نظرت في التقرير..

لم يأخذ الأمر مني أكثر من دقيقة لأمد يدي وأخطف الچاكت المعلَّق على ظهر الكرسي وأندفع خارج المكتب..

الطرقة، السلم، باب السيارة، ثم ها أنا ألتهم الشارع التهامًا، كاسرًا في طريقي كل ما يمكن كسره من قواعد المرور..

وها أنا ذا أخيرًا أمام الباب..

اندفعت إلى داخل المشرحة حتى وصلتُ إلى باب حجرة التشريح ففتحتها لأجد (حلمي) الطبيب الشرعي عاكفًا على تشريح جثة لرجل يبدو أنه رأى أيامًا أفضل، رفع رأسه إليَّ ثم أزال الغطاء عن فمه وأنفه وبدا في عينيه نظرة غضبي، يبدو أنه لم يعجبه أن أقتحم المكان هكذا، همَّ بقول شيء ما لكنه توقف عندما وجدني أندفع نحوه وتبدلت النظرة في عينيه لتحل محلها الخوف، وقفت على مسافة النصف متر منه ورفعت التقرير أمام وجهه ثم قلت بعصبية شديدة:

- «إيه اللي مكتوب في التقرير ده؟»

نقل بصره بيني وبين التقرير، ثم خلع القفازات الطبية من يديه وألقاها في النفايات، وأمسك بالتقرير وألقى نظرة عليه في توتر ثم رفع عينيه إليَّ وقال بصوتٍ مهزوز:

- «أنا كنت عارف إن سيادتك حتيجي أول ما يوصلك التقرير ده، بس ماكنتش...»

قاطعته صائحًا:

- «مش حنقعد نرغي، اشرح لي اللي مكتوب ده»

بدا في عينيه الغضب وعدل من وضع عويناته فوق أنفه ثم مط شفتيه في استياء وقال:

- «أنا عارف إن الموضوع غريب بس مايستدعيش الطريقة اللي حضرتك بتكلمني بيها دي.. الجثتين اللي أنا شرحتهم قبل كدا والجثة دي الطعنات اللي فيها قريبة جدًّا من بعض، بس في مابينهم اختلافات جذرية»

صحتُ بغضبٍ هادر:

- «أنا مش بقولك إقرالي التقرير، أنا بقولك اشرحلي إيه الاختلافات دي بعد إذْن جنابك أهو عشان ما تقولش إني بكلمك بطريقة وِحشة»

ظل ينظر لي للحظات بخوفٍ ثم ابتلع ريقه وعدل من منظاره مرة أخرى على أنفه وقال:

- «بالنسبة للطعنات اللي في البطن فتقريبًا مافيش غير فرق طفيف في عمق الطعنة، ودَه يدل إن القوة اللي استخدمت المرة دي أكبر، أو بمعنى أصح القاتل أقوى المرة دي، الحاجة التانية هي الطعنات اللي في المهبل.. في الجثتين الأولانيين الطعنات تمت قبل الوفاة، بعد الطعن اللي في البطن على طول، وده يدل برضو إن القاتل فاهم تشريح إلى حدٍّ ما وعارف إن الطعنات دي مش حتبقى مميتة في لحظتها وإن القتيلة الأولى والتانية كانوا حيحسوا بكل طعنة.. الطعنات اللي في المهبل في الجثة الأخيرة تمت بعد الوفاة، ده لأن الطعنات اللي في الجزع كانت أعمق في الكبد وأقوى وأدَّت لنزيف مفاجئ ووفاة شبه لحظية، وعشان

كده الطعنات اللي بعد كده كانت بعد وفاة الجثة»

صحتُ فيه:

- «ودَه معناه إيه يا دكتور؟»

جفَّف العرق الذي بدأ يتكون على جبينه وقال:

- «معناه إن في قاتل تاني بيحاول يوهمنا إنه هو هو نفس القاتل في الحالتين اللي في الأول.. أنا منكرش إن الطعنات قريبة جدًّا من اتجاه الطعنات في الحالتين الأولانيين، بس لولا قوة الطعنة كانت مختلفة ماكناش عرفنا إن...»

اقتربتُ منه بشكل أكبر فتراجع للخلف وتوقف عن الكلام فصِحتُ فيه:

- «معناه إن بما إن الاختلافات اللي مابينهم طفيفة ففي حد كان عارف اتجاه وشكل ومكان الطعنات يا دكتور، ماحدش كان حيعرف يعمل كدا إلا إذا اطَّلع على التقرير، وده معناه إن تقرير التشريح اتسرب.. قول لي بقى انتَ ادِّيت التقرير ده لمين»

ظلِّ ينظر لي بنفس نظرة الخوف في عينيه ثم قال فجأة بغضب:

- «أنا مسمحلكش إنك تقولي حاجة زي كدا أنا...»

أمسكته فجأة من ياقته ودفعته حتى ارتطمت رأسه بالحائط.. ظهر الرعب في عينيه وأنا أنظر فيهما على مسافة شديدة القرب من وجهه فقال بصوتٍ مهزوز تمامًا:

- «آآآ أنا لو كنت سرَّبت التقرير زي ما بتقول ماكنتش قلت إن في اختلاف، كنت كتمت المعلومة وقلت إن هو نفس القاتل، كدا كدا ماحدش كان حيعرف ولا يراجع ورايا»

كان ما يقوله منطقيًا.. برغم من أن شـكي لا يزال في محله من وجهة نظري على الأقل، وإلا فمن أين أتى هذا القاتل الجديد بتفاصيـل الطعنـات؟.. إلا أنه هو -على الأقل- كان يمكن فعلاً أن يخفي كل هذا، ولن يعرف أحد..

تركت ياقته وتراجعت للوراء، أخذ هو يعدِّل من ياقة قميصه فقلت له وأنا أحاول البحث عن تفسير ما:

- «فـي حـد تانـي بيبـص علـى التقاريـر دي قبـل مـا تبعتهـا المديرية؟»

نظر لي في غضبٍ وهو لا يزال يعدل من هندامه وقال بعصبية:

- «لأ، حتـى المسـاعد بتاعي مالـوش دعوة بالتقريـر النهائي، أنا بطلب منه حاجات معينة يعملها وبس، إنتَ بنفسك عارف إن أنا بقالي ٢٥ سـنة فـي الشـغلانة دي وعمر ما معلومة واحـدة طلعت من عندي، وأعتقد إننا اشتغلنا مع بعض كتير أوي عشان تشك فيَّا من الأساس.. إنتَ محتاج تهدى شوية، من الواضح إن الشغل خلَّاك مابقيتش طبيعي»

لا أحتـاج إليـه ليخبرنـي أننـي لسـت طبيعيًا.. ليـس هذا وقت التفكيـر في ذلك.. إن لم يكن هو من سـرَّب التقرير فمن فعل؟ بالتأكيد شخص ما قد اطَّلع عليها قبلي وقبل (إبراهيم).. أعتقد أن وقـت مغادرتـي قد حان، وسـأطلب مـن (إبراهيـم) أن يأتيني بأسماء من استلم تلك التقارير في المديرية حتى وصلت إليّ..

وبخطواتٍ سـريعة، غادرت المشـرحة تـاركًا الطبيب خلفي يلعن اليوم الذي اختار فيه هذا العمل..

❖ ❖ ❖

«وليد»

سرتُ بجانب (أدهم) في الشارع في طريقنا إلى المقهى وأنا أستمتع بصمته إلى أقصى درجة.. لا أريده أن يسأل ولن أحترم نفسي كثيرًا إذا كذبت عليه إذا سأل.. لم أخبره أننا بصددِ أن نقابل شخص ما ، أحد أصدقائي القدامى الذين كفُّوا أن يكونوا كذلك، والذي قابلته مصادفة ليلة أمس.. لن أخبره بالطبع ما حكاه لي، سأدعه هو مَن يخبره بنفسه وسأدعو اللّه أن يمر الأمر كما خططت..

وصلنا أخيرًا إلى ذلك المقهى في سموحة ، والذي يضع كراسيه بجانب الرصيف في منتصف الشارع، وطلبنا كوبين من القهوة بالحليب وجلسنا صامتين نشاهد السيارات التي تمر بأعجوبة دون أن تدهسنا ونحن نسد الطريق بهذا الشكل الذي يميز المقهى!

لم يمضِ الكثير ووجدت صديقي الذي أنتظره يقف أمامنا ويشير للنادل ليحضر كرسيًّا وهو يعبث بيده الأخرى في السلسلة الفضية السميكة التي تحيط برقبته وتظهر من قميصه ذو الأزرار المفتوحة حتى منتصف البطن.. وما أن أحضر النادل الكرسي حتى جلس وطلب كوبًا من الشاي وقال وهو ينقل بصره بيني وبين (أدهم) الذي كان ينظر إليه في تساؤل:

- «منورين!»

قمت بتعريف كلٍّ منهما على الآخر، وأخذنا ما يقرب من الربع ساعة في كلام عام عن أحوال البلد وأشهر ما تناقلته السوشيال ميديا، ثم قلت لـ(أدهم):

- «اسكت، مش المعلم إمبارح كان بيحكيلي على بنت كده يعرفها معاه في الكلية، الباشا في تجارة، ويعجبك في موضوع البنات، مش خيبة زي حالتنا»

ظهرت ابتسامة واثقة على وجه صديقي ونظر لي (أدهم) في عدم فهم فركلته في ساقه أملًا في أن يفهم أن المطلوب منه أن يسمع لما يقوله دون أن يسأل أسئلة غبية، ثم قلت لصديقي بحماس:

- «كنا بنتكلم أنا وأخوك (أدهم) إمبارح وكنت عمَّال أقول له إنه عادي إنه ياخد مقلب في واحدة شايفها كويسة وهو بيقول لي إنه سهل إنك تعرف لو واحدة بتشتغلك وبتبينلك شخصية غير شخصيتها.. أخوك (أدهم) كان عايز يخطب (ليلى)، وانتَ عارف، ده جواز يا معلم ولو لبس حيلبس **forever**، انتَ كنت حكيتلي على الموقف اللي حصل مابينكم امبارح بالصدفة، فأنا عايزك، بأمانة، تقول لـ(أدهم) رأيك في (ليلى)، مش عيب، لأنك ممكن تنقذ أخوك من إنه يلبس اسود»

كان وجه (أدهم) يتغير خلال كلامي ووضع يديه على مسند كرسيه كأنما يستعد للرحيل.. وضعت يدي على رسغه وأومأت له كي يهدأ قليلًا ويستمع..

أمس، عندما سمعت ما سمعت من صديقي هذا، كنت قد

اتفقت معه بشــكل ما على هذه الجلســة وهو يعرف دوره جيدًا ، بل ونجحت إلى حد كبير في إقناعه بعِظَم دوره وبكيف أن اللّه قد وضعه في طريقي أمس كي ينقذ (أدهم) من زيجةٍ سيئة..
تراجع (أدهم) في كرسيِّه وإن كانتا قبضتيه قد انقبضا بشدة وظلت ساقه التي تهتز ترج المقعد الذي أجلس أنا عليه، مدَّ صديقي يده ليعبث في سلسلته الفضية مرة أخرى ومط شفتيه وهو ينظر لنا ثم قال:

- «بص يا باشا ، (ليلى) و(ياسمين) صاحبتها دول معايا في الكلية ، الكلية كلها حضرتك بتقول عليهم شمال ، بالمعيدين، بالدكاترة، بالطلاب، ببتوع الكافيتيريا ، بالأمن ، يعني، ما شاء اللّه، ممكن تقول في إجماع على كده»

وصل الشاي الذي طلبه صديقي فأخذ يمزح مع النادل لوهلة بسبب خسارة نادي الزمالك حتى احمرَّ وجه النادل وابتعد في عصبية، ثم أخذ رشفة من الشاي وقال وعينَي (أدهم) مثبتتان على وجهه:

- «الناس كلهم تقريبًا عارفين إن (ليلى) و(ياسمين) بيظبطوا بعض، يعني، انتَ فاهمني، (ياسمين) ما شاء اللّه مكملة على المود ده ومابتغيروش، البت المسترجلة اللي مالهاش في الرجالة، تقريبًا هي الدَّكر اللي في العلاقة المهببة دي، بس (ليلى) ماتعرفلهاش بقى»

وحَكَّ جانب رقبته بيده الأخرى وشرد ببصره كأنما يتذكر ثم قال:

- «(ليلى) بتحب العيال الشمال، اللي بيهزروا بسفالة شوية ،

وبتقـول علـى العيـال المحترميـن اللـي معانـا إنهم عيـال طرية ، وبتمـوت في الهزار بالإيدين ، ححكيلـك كده موقف حصل ما بينا أول امبارح»

❖ ❖ ❖

قلت لها وأنا أنظر إليها من الخلف:

- «البنطلون ده حياكل من... مشّيها منك ، حياكل منك حتة»

التفتَت إليَّ بوجهها فقط فتموج شـعرها القصير وابتسمت في شقاوة وقالت بدلال:

- «أقلعه؟»

- «يا ريت»

ظهر غضب طفولي على وجهها وقالت:

- «لأ ، المفـروض ماتقولـش كدا ، المفروض تقـول لأآآآآ ، زي مسرحية الواد سيد الشغال»

«أكدب يعني؟»

عبثت بلسـانها داخل فمها وابتسـمت في سـخرية وقالت وهي تضع يدها في جيدها :

- «إنتَ سافل على فكـرة»

ابتسمت بسخرية ، ثم اقتربت منها وأحط وسطها بيدي وقربت وجهي من وجهها ثم قلت:

- «بمـا إني سـافل بقى ، مـا تقوليلي كدا انـتِ بتحلوي ليه يا بت انتِ؟»

مطت شفتيها وابتسمت وقالت دون أن تبتعد:

- «نخف لمس شوية من هنا ورايح، ها؟»

ظللنا هكذا لثوانٍ، ثم دارت لتفلت يدي من حولها وقالت وهي تبتعد:

- «وحاول متبصش عليا وأنا ماشية، شايفاك»

❖ ❖ ❖

أخذ صديقي رشفة أخرى من كوب الشاي وقال ببساطة دون أن يشعر بتأثير ما قاله:

- «بس يا سيدي، يعني، حاجات بقى كدا طول الوقت»

التفتُّ إلى (أدهم) فوجدت أن وجهه قد صار بلون الدم، وإن ظل صامتًا، نظر صديقي في ساعته ثم شرب ما بقي في كوب الشاي على دفعة واحدة وقام واقفًا وقال:

- «أنا خالع بقى، واحد صاحبنا مستنيني ومعاه ستافة عالية قوي، باشا، أنا آسف، بس لما تخلع في البدري بدري كدا أحسن ما تلبس واحدة لا مؤاخذة لا سمح اللّه، واحمد ربنا إني كنت بحكي لـ(وليد) بالصدفة امبارح وقطع عليها، ابن حرام برضو الواد ده مايغركش إنه دكتور وكدا»

ابتعد في خطواتٍ سريعة فالتفتُّ إلى (أدهم) الذي كان لا يزال على نفس وضعيته، كنت أعلم أن الموقف بالغ الصعوبة لكني أعرف (أدهم) تمامًا وأعلم أنه لم يكن ليصدق إلا إذا حكى له أحدهم ما رآه بنفسه.. قلت:

- «بص يا (أدهم) أنا...»

رفع رأسه فجأة وفي عينيه نظرة أخافتني.. نظرة تحمل غضب الدنيا كلها ، لم أكمل ما كنت أنوي أن أقول.. قال هو بصوتٍ خافت وبنبرة بطيئة لا تنتمي لتلك النظرة في عينيه:

- «أنا ساعات بتخيل إني بقتل كل الستات اللي أعرفهم عشان العالم يستريح من الشر اللي فيهم ده»

بهتُّ لسماعي لما قاله وابتلعت ريقي وأنا أنظر إليه وقد عجز لساني عن الرد.. تغلبت على نفسي أخيرًا وهممت بقول شيء ما يلطف ما يشعر به ، لكنه قام واقفًا فجأة وابتعد في خطواتٍ سريعة..

فكرت أن أذهب خلفه لكني آثرت أن أبقى ، فهو في أمسِّ الحاجة الآن لأن يكون بمفرده حتى يطوي تلك الصفحة الأخرى التي لم تبتعد كثيرًا عمَّا سبقتها..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

لم أمشِ منذ فترة كبيرة مثلما مشـيت الليلة، كانت ساقاي تسـوقاني كأنما صارت لهمـا إرادة خاصة بهما، لـم يعُد لعقلي سـيطرة علـى خطواتي تقريبًا، ولـم أرد حتى أن أسـيطر عليها، فلتذهـب بـي حيـث تذهـب، فلـم يعـد لأي شـيء معنـى، حتـى الأماكن..

يبـدو أننـي صـرت كالحمـار الـذي يعلـم كيف يعـود لبيت صاحبـه إذا تركه وذهـب، لا أدري كم مرَّ مـن الوقت ووجدت أننـي قـد وصلت إلـى البيت، أنـا فعلًا لا أسـتحق أكثر من هذا التوصيـف.. حمار.. فتحـت الباب واتجهت إلى تلـك الحجرة التي آمـل أن أجـد فيهـا الملاذ الذي أتمنـاه.. ولم تمر ثـوانٍ قليلة حتى بدأتُ أعزف بالفعل.. يبدو أنني قد غرقت في تلك المعزوفة حتى أننـي لـم ألحظ أنها تجلس بجانبي.. لأول مـرة منذ أن وعيت على الدنيا تقريبًا أجدها تجلس بجانبي وأنا أعزف..

أمي..

مدَّت يدها ووضعتها على رسـغي فتوقفت عن العزف، لكني لـم ألتفـت إليهـا، ظللـت أنظر إلـى الأصابـع البيضاء والسـوداء التـي لم تكـف عن احتوائي منذ زمن طويل.. لـم أرَ حتى الآن آلة موسـيقية تخدع صاحبها وتسـمعه نغمات لم يعزفها هو.. لا يوجد هنا كره أو عنف.. قالت هي بصوتٍ منخفض:

- «ولـو إنـك مـش حتوافقني لـو قلت لك بس أنا كان نفسـي أبوك يبقى موجود دلوقتي»

لـم أرد، وإن كنـت أوافقهـا تمامًـا فـي أنني غيـر راضٍ عمَّا تقول.. أكملَت هي:

- «أنا عارفة إنه كان قاسي، عليا، وعليك، أنا فاهمة إن انتَ مابتحبوش عشان هو اللي خلاك تدخل طب، وحاول إنه يكرهك فـي البيانو ده، أنا مش حنكر برضو إنـي كنت موافقاه، وإني عمري ما حبيت البتاع ده برضو، كنا شـايفينك حاجة كبيرة، وماكناش عايزينك تبقى غير الحاجة دي»

ظلت عيناي مثبتتان على الجسد الأبنوسي اللامع.. ما زالت لا تفهم أي شـيء، مع درجتها العلميـة المرموقة ما زالت لا تفهم أي شـيء.. حقًّا، هناك فرق كبير بيـن العلم والثقافة، وفرق أكبر بيـن أن تفهم وأن تشـعر.. وشـتَّان بين الاثنيـن، تمنيت أن تصمت الآن وتذهب إلى غرفتها، لكنها لم تفعل للأسف..

- «أنا لسا فاكرة يوم ما مات، يومها بالليل انتَ فضلت تعزف المقطوعـة اللي كنـت بتعزفها يـوم ما قلتلي إنـك رجعت تعزف تاني، فضلت تعزفها مرة واتنين وتلاتة لغاية ما أنا ماستحملتش، دخلت قلتلك كفاية وزعقت وصرخت، أنا عارفة إنك ما بتنساش يـا (أدهـم)، وعارفـة إنك لسـا زعلان منـي لغاية دلوقتي عشـان الموضوع ده».

وكيـف لـي أن أنسـى؟.. كانـت وفاتـه صدمـة بالنسـبة لي بالطبـع.. ذلـك الدكتاتـور المرعـب الـذي يسـيطر علـى كل

مَـن حولـه، ثم فجـأة لم يعد هنـاك.. انتهى.. شـعرت وقتها بنفس إحسـاس الحجر الذي ظلَّ مربوطًا طـوال الوقت في خيط في يد أحدهم يديره بسرعة فيبقى على مسافة ثابتة منه، ثم انقطع هذا الخيط فجأة.. شعرت وقتها بكل ما قيل لي من قبل عن القصور الذاتي.. سـأتجه فـي أي اتجاهٍ كان، لكن بعيـدًا عن المركز الـذي كنت أدور حوله.. ولكنها خاطئة في أنني ما زلت غاضب منها لهذا السبب، ما زالت لا تفهم..

- «أنا آسـفة يا (أدهم)، أنا آسفة إني كنت قاسية أنا كمان عليـك يومها وسـيبتك وانـتَ كنـت محتاجني جنبـك، بس انتَ أكيد فاهم أنا كنت حاسة بإيه وقتها»

وكان هـذا أقصى مـا يمكنني تحملـه.. التفـتُّ إليها، يبدو أن عينيَّ كانتا تشـتعلان غضبًا؛ لأنها تراجعت قليلًا إلى الخلف وبدا في عينيها الخوف.. قلت أنا وقد شعرت أنني قد صمتُّ وقتًا أطول مما ينبغي:

- «كنـت محتاجك جنبي يومها؟.. أنـا كنت محتاجك جنبي طول عمري، كنـت محتاجك تقفي قصاده، كنت محتاج آجي أسـتخبى فـي حضنـك، لكن لأ، ليـه أعمـل دور الأم اللي كل الأمهـات بتعمله؟.. لازم أبقى مختلفـة، لازم الدكتورة ماما تبقى مش زي الأمهات التانية»

ظلَّـت تنظر لي ولم ترد، وإن كان الأسـى قد بدا متجليًّا على وجههـا.. شـعرت بغضبي يـزداد من ذلـك الانطباع علـى وجهها.. أليس متأخرًا قليلًا أن تشـعري بالأسى الآن؟.. قلت وقد قررت ألَّا أتوقف عن الحديث:

- «إنتِ فاكرة يوم ما القط مات؟»

رفعَت يدها وغطت فمها بأصابعها وتضاعف الخوف في عينيها.. كم أتمنى أن تكون لديَّ ذاكرة مثلها لا تبقى فيها الذكريات أكثر مما تبقى لدى السَّمَك.. ذلك التصالح النفسي في أنَّ ما مرَّ قد مرَّ ولن يفيد في شيء.. كم أحسدها.. أكملت وقد قررت أن أذكرها بكل ما حدث:

- «كان عندي قد إيه وقتها؟ ست سنين؟ سبع سنين؟ صحيت يومها لقيت القط اللي كان عندي نايم ومابيتحركش، قعدت أهز فيه عشان يقوم، وفجأة الباب يتفتح ويدخل بابا ويبص للقط ويبصلي ويقولي «إنتَ اللي موِّته»، ويشدني من شعري ويضربني، وأنا أقول له أنا ما عملتلوش حاجة، أنا ما قربتلوش، أنا كنت بهزه بس عشان يقوم من النوم، مارضيش يسمعني وأخدني لغاية الأوضة اللي احنا فيها دلوقتي دي وقفل عليا الباب.. فاكرة؟»

ظلت أصابعها على فمها وانهمرت دموعها على خدها، لماذا لم أعد أشعر بأي شيء نحوها؟..

- «قعدت أخبط على الباب عشان يفتحلي، أنا كنت عارف إنك سامعة كل حاجة ومارضيتيش تفتحيلي، خفتي منه مش كده؟

ازدادت نظرة الأسى في عينيها ولم ترد، أكملتُ أنا وقد سرَّني أن أرى دموعها:

- « أنا ماكنتش فاهم يعني إيه موت ساعتها، فضلت أعيط، وأفكر، وصدقت ساعتها إني أنا اللي موِّت القط فعلًا وفضلت

أتأسف وأقول إني مش حعمل كدا تاني.. مش فاكر قعدت قد إيه، بس لما ابتديت أتلفت في الأوضة وأدور على أي حد يبقى معايا عشان ماخافش، مالاقيتش غير البيانو بتاع جدو، اتشعبطت لغاية ما عرفت أطلع على الكرسي وفتحت الغطا وبانت لي الصوابع البيضا والسودة دي، ماكنتش عارف أعزف حاجة، بس صوته حسسني إني مش لوحدي، زي ما يكون في حد بيتكلم معايا، ومن يومها وهو الوحيد اللي بحس إنه بيفهمني.. متخيلة؟ الجماد ده بيحس أكتر منكم»

علا صوت بكائها، لا، لن أتوقف الآن، انتظرت تلك اللحظة طوال عمري كله.. قلت:

- «فتحلي بعدها بكتير، كنت قاعد على البيانو، شدني من على الكرسي وقال لي إني لو طلعت دكتور حاقدر أخلي اللي حصل للقط ده ما يحصلش تاني، كنت حعرف أخلي القط يصحى، قعد يكلمني عن قد إيه إنك تبقى دكتور دي حاجة كبيرة وعظيمة، زيه، أنا ماكنتش عايز أبقى زيه، ماكنتش عايز أبقى ماعنديش قلب كده، بس ما كنتش عايز حد يموت تاني ومعرفش أعمل حاجة»

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتخيل أحداث ذلك اليوم كأنها تحدث أمامي الآن وقلت:

- «يوم ما مات حسيت إن كل اللي أنا عملته غلط، مات وماعرفتش أعمل حاجة، ماعرفتش أخليه مايموتش، حسيت بنفس يوم القط، دخلت استخبيت في الأوضة دي وفضلت أعزف، لغاية ما انتِ جيتي زعقتي وقلتي لي كفاية وإنِّك مش قادرة

تستحملي اللي أنا بعزفه.. انتِ اللي مش قادرة تستحملي، مش كده؟»

كان صوت بكائها يغسلني من الداخل، أنا آخذ حقي أخيرًا بعد كل تلك السنوات.. أكملت:

- «وأنا جوه الأوضة هنا يومها فضلت أفكر إذا كنت فعلًا أنا اللي موِّت القط ولا لأ، لغاية دلوقتي في حاجات بتحصلي وأنا مش عارف إذا كنت ماعملتهاش فعلًا ولا زي يوم القط لما مات، أنا اللي عملتها بس مش فاكر، زي (مايا) كده، أنا مش عارف إذا كنت أنا اللي قتلتها فعلًا ولا لأ»

رفعت عينان مذعورتان إليَّ.. يا للمتعة التي أشعر بها الآن.. لا بد وأنها تتساءل في داخلها الآن إن كانت تجلس في مكان واحد مع قاتل بالفعل، قاتل قتل القط وتلك الفتاة على الأقل، ولا يذكر إن كان فعل هذا بالفعل أم لا، قلت:

- «أنا يومها ماكنتش عايز أروح، ركنت العربية عند البيت وفضلت أمشي وأمشي وأنا حاسس بصداع رهيب، بعدها فقت لقيت نفسي مرمي على الأرض ومتبهدل، معرفش أنا عملت إيه، معرفش وقعت ولا اتكعبلت ولا دخت، معرفش حاجة، جيت على البيت عرفت بعدها إن هي ماتت»

كنت أشعر بضربات قلبي الآن، أنا فعلًا لا أذكر أي شيء، ولا أعرف إن كنت قد فعلت هذا فعلًا أم لا.. ثم ماذا عن (سارة)؟ هل قتلتها هي الأخرى؟ سألتها:

- «تفتكري أنا اللي قتلتها فعلًا زي ما قتلت القط؟»

أجهشت بالبكاء في تلك اللحظة وعلا صوت نحيبها ، ثم اندَفَعَت فجأة خارج الغرفة واتجهت لغرفتها.. تابعتها ببصري حتى اختفت ثم قمت من مقعدي واتجهت إلى باب الغرفة فأغلقته، ثم عدت وجلست أمام البيانو..

وبدأت أعزف مرة أخرى..

❖ ❖ ❖

«إبراهيم»

كنت شاردًا تمامًا وأنا أقرأ الموجود بالملف للمرة الرابعة تقريبًا فلم ألحظ إلا وأنا بداخل حجرة مكتب (سيف) بالفعل.. أجفلت وتراجعت للوراء، وجدته ينظر لي بلا مشاعر على وجهه كعادته، قلت بارتباك:

- «أنا آسف يا فندم، أنا بس كنت عايز أبلغ حضرتك باللي وصلت له فما أخدتش بالي إلا وانا...»

أشار لي بسأم أن أتقدم نحو المكتب فقطعت ما كنت أقوله واتجهت نحوه ووضعت الملف على مكتبه فنظر إليه ولم يقترب منه ثم رفع عينيه إليَّ وهو يمط شفتيه في تساؤل كأنني بالتأكيد لن أقدم له الجديد، فأشرت إلى الملف وقلت:

- «الرقم اللي كان مكتوب على الورقة اللي لاقيناها في مكتب الدكتور، أنا دورت ورا الرقم ووصلت إنه رقم ملف في الأحداث»

ضيَّق حدقتيه وظل ينظر إليَّ، يبدو أنني قد أثرت اهتمامه بشكلٍ أو بآخر.. أكملت:

- «الملف ده من سنة ٢٠٠٨، يعني بقاله عشر سنين دلوقتي، دي قضية قديمة، حادثة زي كدا كانت المفروض تبقى معروفة في كل مكان بس من الواضح إن وقتها اتعمل تعتيم إعلامي عليها.. بنت هي، طفلة قتلت أمها، واتحطت في الأحداث

وقتهـا ، أبوها كان رجـل أعمال كبير وقـدر بعلاقاته إنه يثبت إنها عندها مرض نفسـي ، طلعت من الأحداث ودخلت مستشـفى أمراض نفسـية خاص وبعد كده خرجت ، وكلمتهم وعرفت إنه سـفَّرها بره عشان تتعالج في إنجلترا وصفَّى هو كل أعماله هنا وسافر معاها ، وأخبارهم اتقطعت تمامًا من ساعتها»

كان شارد الذهن تمامًا ، لست في مزاج الآن لأن يسألني عن شـيء مما قلتـه للتو أو أن يطلب مني أن أعيـد ما قصصته عليه ، لكنه قال دون أن يتغير الشرود على وجهه ودون أن ينظر إليَّ:

- «اسمها إيه البنت دي؟»

مـددت يـدي إلـى الملف الموضـوع على مكتبـه ونظرت فيه سريعًا ثم قلت:

- «اسمها (أروى) سيادتك ، أ...»

انتفض وقاطعني صائحًا :

- «(أروى)؟!»

ثم اتسـعَت عيناه بشـدة وهو يشـرد ببصره ، ثم مـدَّ يده فجأة وفتـح درج مكتبه وأخرج منها نوتة صغيرة ألقاها على المكتب تجاهي ، نظرت إليها في عدم فهم ثم التقطتها وبدأتُ أتصفحها..

إنهـا تلك النوتـة التي وجدها رجال المعمـل الجنائي في جيب (حسين)..

لم تحن الفرصة كي أتحدث مع (سـيف) عمَّا وجده مكتوبًا فيها ، وها هي الآن بين يديّ..

يبـدو أن هـذه كلمـات حسـين ، ملاحظاته التـي كتبها عن

مريضة تسمى (أروى)..

(أروى)؟!..

رفعت عيني إلى (سيف) لوهلة ثم عدت أكمل القراءة..

التهمت عيناي كل ما كُتِب حتى توقفت عند تلك الصفحة، والتي كتب فيها: «(أروى) بدأت تثق بي، كان حدْسي صحيحًا، اسمها الحقيقي (ليلى)»..

رفعتُ عيني مرة أخرى إلى (سيف) وقلت:

- «(ليلى)؟!»

أومأ برأسه فعقدت حاجبي وأنا أفكر، ثم قلت:

- «بس أكيد في حاجة غلط، (أروى) اللي قتلت أمها دي تبقى (أورى سعد الدين إدريس)، أبوها يبقى...»

ارتفع حاجباه وقال مقاطعًا إياي:

- «(سعد الدين إدريس) بتاع الأسمنت؟، تصدق عمري ما سألت نفسي هو اختفى فين؟ وعمري ما سمعت عن القضية دي من الأساس، الموضوع ده حصل في القاهرة صح؟»

أومأت برأسي، ثم قلت وأنا أفكر في هذا الكم من المعلومات الذي صار يناقض بعضه:

- «بس أنا واثق إن (ليلى) ما تبقاش هي بنت (سعد الدين)، إحنا عملنا تحريات عنها وعرفنا مين أبوها وأمها زي ما سيادتك عارف.. أنا مش فاهم حاجة»

أغمض عينيه بقوة وبدا الألم على وجهه وأمسك جانب رأسه

بيده، وقال:

- «مين عارف يا (ابراهيم)؟ مش ممكن بنتهم واتبنوها مثلًا بعد اللي حصل؟.. محتاجين نعرف معلومات أكتر يا (ابراهيم)، أنا لما اتكلمت مع (حسين) كان قالي إن اللي قتل ده ممكن يكون واحدة بتكره أمها، فموضوع إننا لقينا واحدة قتلت أمها دي تبقى القضية متركِّبة عليها»

ظل مغمضًا عينيه في ألم فقلت:

- «سيادتك تعبان ولا حاجة؟»

فتح عينيه ونظر إليَّ بنظرة زجاجية، ثم قال بصوتٍ خافت:

- «آآآ لأ، صداع بس بيجيلي بقالي فترة، المهم، عايزك تكلم القاهرة وتجيبلي ملف القضية دي على طول، آآآ انتَ قلتلي كان عندها كام سنة ساعة ما القضية دي حصلت؟»

قلت:

- «١٠ سنين يا فندم»

أمسك برأسه مرة أخرى ثم قال:

- «يعني دلوقتي عندها عشرين سنة يا (ابراهيم)، يعني نفس عمر (ليلى) تقريبًا.. بس برضو هو مش المفروض إن (سعد الدين) وبنته لسا برا مصر؟ (إبراهيم)، حاول تعرفلنا هي كانت بتتعالج في مستشفى إيه في إنجلترا، ممكن عن طريق المستشفى نعرف هما عايشين فين أو وصلوا لإيه دلوقتي، مين عارف، جايز المعلومة دي هي اللي تحللنا القضية»

قالها وأغمض عينيه وظل ممسكًا برأسه فأيقنت أنه الوقت

المناسب للرحيل، فاتجهت للباب دون أن أقول شيئًا ، وغادرت وأنا أفكر في كمٍّ المعلومات الذي بين يدينا الآن، وفي كم المعلومات الذي يجب علينا الحصول عليه..

ودعوت اللّٰه في سري ألَّا تحدث جريمة قتل أخرى في تلك القضية التي صارت كالكابوس..

❖ ❖ ❖

«ياسمين»

- «إنتِ متأكدة إنك عايزة تلعبي اللعبة دي؟»

قلتها ونظرت لـ(ليلى) التي كانت تجلس أمامي على الفراش وهي تثني تحتها ساقيها وتنظر لي في ثبات ثم قالت:

- «آه، أنا خلاص، عايزة أعرف إذا كنت اتعلمت فعلًا ولا لأ»

تأملت ملامحها الجامدة التي يظهر فيها الحزن بالرغم من تظاهرها بالثبات وقلت:

- «أنا بقالي فترة بشوف معاكي كتب علم نفس، فرصة عشان أعرف انتِ بتقري على الفاضي ولا طلعتي بحاجة من الهبل ده»

شردَت ببصرها وقالت:

- «اللي أنا كنت بتعلم منه خلاص، يعني لو متعلمتش حاجة يبقى مش حتعلم تاني»

عمَّن تتحدث؟ لا أفهم.. سألتها:

- «هو مين ده اللي كنتي بتتعلمي منه؟»

نظرت لي وفي عينيها نفس النظرة الشاردة ثم ابتسمت في محاولة منها لإخفاء ما بداخلها على ما أعتقد ثم قالت:

- «نبتدي؟»

أومأت برأسي مع أني واثقة أن ما نحن بصدد أن نفعله لن يوصلنا لشيء.. أخذت هي نفسًا عميقًا ثم قالت:

- «أنا سألت نفسي كتير إيه اللي خلاني كده، أنا وانتِ.. وصلَت في الآخر إن الموضوع مش حيخرج برا البيت.. (ياسمين)، إنتِ يمكن ماكلمتيش عن أمك الله يرحمها تقريبًا، إنتِ قلتيلي إنها ماتت وانتِ صغيرة، وانتِ عندك عشر سنين تقريبًا وقتها، بس عمرك ما حكيتي عنها ولا قلتيلي ماتت إزاي، بس أنا قدرت أكوِّن فكرة عنها، ممكن أقولهالك؟»

خفق قلبي عند ذكرها لوالدتي، وأومأت برأسي كي تكمل حديثها، فقالت:

- «مافيش ست مش مقتنعة بوظيفتها كأم وشايفاها أقل من الوظايف التانية ودفن لطموحها وأحلامها حتعرف تبقى أم.. مش حتقدر تفهم ولادها، وترعاهم، وتبقى حنينة عليهم، مش حتعرف تخليهم يحسوا بأهميتهم، ولو الطفلة اللي عندها دي بنت، الطفلة دي حتكره إنها اتولدت ست من أول ما تبتدي تدرك اللي حواليها، وإحساسها بكُره نفسها كأنثى حيزيد مع الوقت طول ما هي شايفة أمها قدامها حاسة بكده»

تسمرت عيناي على عينيها.. هل فعلًا لم أحكِ لها شيئًا عن أمي؟.. لقد بدأت (ليلى) تخيفني بالفعل.. ابتلعت ريقي وظللت أنظر إليها، لا بد أنها فهمت أنها قد أصابت وترًا حسَّاسًا؛ لأن شبح ابتسامة ظهر على ملامحها وقالت بنفس الطريقة السردية التي تجعلك تريد أن تسمع المزيد، والتي لم أسمعها تتحدث بها من قبل:

- «ومع ازدياد الشعور بالنقص عند الطفلة دي وإحساسها بإنها كائن أقل في المجتمع، حتبتدي تتمنى إنها كانت ولد، وحتحاول تقلد الولاد في كل حاجة، الحرية اللي المجتمع

الشـرقي بتاعنـا بيديهـا للـولاد ويسـحبها مـن البنـات بمنتهـى الأريحية، حتشـرب سـجاير، مخدرات، خمرا، حتشـتم بصوت عالـي، حتلبس لبس شـبههم، ومع الوقت، ومـع نظرات الناس، حتعرف إن عندها أسـلحة مش عند الولاد، حتعرف إنها ممكن تتفـوق عليهـم حتـى، فحتبتـدي تبيـن الأنثـى اللي جواهـا، بس بطريقة رجالي، كأنها بتتباهى بإمكانياتها الجسدية وسطهم، وحتبقى مشـغولة طول الوقت إزاي تثبت إنها متفوقة بشـخصيتها وإمكانياتهـا، والولاد بالنسـبة لهـا حيكونوا منافسـين، مش نـوع تانـي هي بتحاول تبهـره باختلافها كأنثـى.. وأول حاجة في المنافسة دي إنها تبقى مسيطرة، على كل اللي حواليها، بس لو سـيطرت على أنثى حتبقى عملت زي الرجالة بالضبط، وبالتالي حتبقى فعلًا شبهم، أو أحسن منهم كمان»

كان قلبي يخفق بعنف فعلًا.. لم أسـمع هذا التفسـير من قبل ولم أفكر حتى فيه..

(ليلى)..

من أنتِ؟..

كيف لم أرَ هذا فيكِ من قبل؟..

أكانت تراني بهذا الوضوح كل هذا الوقت؟..

وأنـا، اللعينـة البائسـة، كنـت أتطلـع لقُبلـة منها أو للمسـه لجسدها..

كيف لم أعرفك كما عرفتيني أنتِ؟..

ظللت أتأملها، لفترة طويلة في الواقع، لم تتحدث هي وبادلتني

النظرات.. قلت لها بصوتٍ متحشرج:

- «أنا...»

ولم أستطع إكمال الجملة، فقط لم أستطع.. وكأنما كان هذا إشارة لها كي تكمل قالت:

- «أبوكِ كان عصبي، عصبي قوي، أنا ماشفتوش برضو، غريبة إن كل أهلك ماتوا قبل ما أقابلك، هو كان عايز يسيطر على أمك وعليكِ، وده بوَّظ الدنيا أكتر وزوِّد من إحساس أمك وإحساسك بكُره الأنثى اللي جواكي»

شردت ببصري وأنا أحاول أن أتذكَّر وجه أبي.. من أسوأ الأحاسيس في العالم محاولة تذكر وجه شخص، قد يستحضره عقلك الباطن في كل وقت، إلا عندما تريد ذلك..

- «إنتِ فاكراه؟»

أخرجني سؤالها من أفكاري، نظرت لها لوهلة كأنما أرى في وجهها شيئًا غريبًا ثم عدت وقلت لها وأنا أشرد ببصري محاوِلةً تَذَكُّر ما حدث وقتها:

- «قفشني مرة مع واحدة، كنَّا مع بعض في أوضتي، في البيت عندنا، كنا بنبوس بعض، مرمط بيَّا البيت، ضربني على وشي، وشتمني وفضل يشدني من شعري ويقولي إني سافلة، فضلت كذا يوم بعدها مش عارفة أتكلم»

ثم نظرت لها وقلت:

- «الحالة دي اتكررت كذا مرة بعدها، كان لو حد زعق لي أو اتعصب عليَّا، وده ماحصلش من زمان قوي عشان الناس بقت

بتعملي ألف حساب، كانت بيجيلي حالة كدا مابعرفش أتكلم، بحس إن لساني في حد ماسكه، زي ما حصلي في اليوم ده»

قالت على الفور دون أن تعطيني مزيد من الوقت لأفكر:

- «(ياسمين)، إنتِ بتحلمي؟»

لستُ أدري لماذا تجسَّد أمامي ذلك الحلم فجأة كأنما قد حلمت به للتَّو، شردت ببصري مرة أخرى وأنا أصفه كأنما أصف شيئًا يحدث أمامي الآن:

- «أنا بحلم إني بتخانق مع أبويا وبحاول أقتله، بس هو بيقتلني في الآخر، كل مرة بيقتلني، بيقرب مني وبيغرز سكينة في قلبي، أنا كنت عايزة أقتله أنا، بس ماقدرتش، في كل مرة مابقدرش.. بقوم من النوم كل مرة قبل ما السكينة توصل لصدري، بس ببقى حاسة بألم زي ما يكون غرز السكينة في قلبي فعلًا»

قلتها وأنا أتحسس موضع قلبي كأنما أشعر بالسكين في صدري بالفعل.. ثم قلت لها وأنا أشعر بالألم يعتصرني:

- «أنا عايزة أقتلهم كلهم يا (ليلى).. عايزة أقتل كل واحد أهانِّي أو غِلط فيَّا، كل واحد أو واحدة بصولي وخلوني أحس إني أقل منهم.. أحس بالنقص.. أي حد خلاني أحس باللي أنا حسَّاه دلوقتي ده..»

ثم نظرت لها وقلت وأنا أغالب دموعي من أن تنهمر، برغم أنني حتى لا أتذكر متى كانت آخر مرة بكيت فيها:

- «أنا لغاية دلوقتي بتخيل الرجالة على إنهم كائنات مستبدة، طواغيت، أنا مانكرش إني بحاول أقلدهم من غير ما أقصد،

أنا فعلًا بكره إني ست، عشان كده بحاول دايمًا مابقاش ست عادية على الأقل»

أخذت نفسًا عميقًا في محاولة للسيطرة على مشاعري.. لقد فتحت تلك اللعينة بابًا كنت أظن أنه أغلق من فترة طويلة، لكن يبدو أن بعض الأشياء لا يمكن محوها من الذاكرة، أبدًا..

- «أنا كل مرة كنت ببقى مع واحدة كنت ببقى راضية تمامًا إني كدا بأذي أبويا.. أبويا عدو، حياتي كلها تتلخص في محاولاتي إني أحاربه وأثبت له إني أنا اللي انتصرت.. (ليلى) أنا ما بعرفش أنام»

نظرت لي بحنان وابتسمت وفي عينيها تكونت الدموع.. لقد أيقظتها من نومها عشرات المرات من أجل أن نذهب سويًّا لنجلس على البحر أو حتى لنجلس فقط في السيارة، حتى لو لم نتحدث.. لم أكن أطيق أن أبقى بمفردي حتى لا تنفرد بي الأفكار وتذهب بعقلي، ولم ترفض هي ولو مرة.. هي من بقي بجانبي برغم كل شيء، بالرغم من طريقتي السخيفة ومحاولاتي الدائمة لإثبات أنني أسيطر عليها.. اقتربت منها وأنا أتأمل عينيها اللتين ملأتهما الدموع تمامًا وبدأت بالهبوط على خديها، مددت يدي ومسحت دموعها وأزلت خصلة من الشعر غطَّت جانب وجهها وقلت لها بصوتٍ خافِت:

- «وانتِ استحملتي كل ده، وقبلتيني زي ما أنا، وعمر ما حد عمل كدا غيرك يا (ليلى).. (ليلى)، أنا بحبك، بحبك بجد»

قلتها واقتربت منها حتى باتت عيناها أمامي تمامًا.. ثم قبَّلتها..

شعرت بنبض قلبي وقلبها يختلطان، هل يجب أن يتزامن قلبَي

المتحابيْن حتى لتشعر أن نبضيهما يخرج من قلبٍ واحد فقط؟ أعتقد أن هذا ما يجب أن يحدث، أو هذا ما شعرت به في تلك اللحظة على الأقل، أن قلبيْنا هما مَن يقبِّل أحدهما الآخر، لا شفاهنا..

تراجعت أخيرًا وأنا أشعر أنني لا أريد أن أبتعد عنها ولو لبضع مليمترات، فتحت عيني ونظرت في عينيها، يا إلهي، كيف أخبركِ بما قلته لـ(مايا)؟ كيف أقول لكِ أن كل هذا كان من أجل أن أحتفظَ بكِ، كنت أعلم أنكِ لا تستمعين لأحدٍ سواها، نعم، قلت أشياءً ليست فيه، كنتُ قد عرفت علاقته بـ(سارة)، أخبرتها أنه من الممكن أن يكون قد قتلها، أخبرتها أنه غير متَّزِن نفسيًّا، أخبرتها أنه قد يشكل خطرًا على حياتك، أنا أعلم أنها تحبك، تلك اللعينة كانت تحبك، لكنَّها تسرعت، تسرعت وأخبرته بدلًا من أن تخبِرُكِ، نظراته وهي تحدثه بعد أن رجعنا من الرحلة وشَت بكلِّ شيء..

كان يجب أن تموت فعلًا..

قالت هي بابتسامة:

- «إنتِ عارفة إن اللي عندنا ده اسمه Post-traumatic stress disorder؟»

- «نعم يا روح أمك؟»

انفجـرَت هي في الضحك ولم ترد، ثم ابتعدت عنِّي واتجهت إلى دولاب ملابسها وقالت وهي تبحث بيديها في الداخل:

- «يلا نخرج، أنا عايزة نعمل أي حاجة جديدة، عايزة أحس إني غيرت جو، سافرت»

ثـم قالت وهي تمسـك بقطعتيـن من الملابس لتـرى إذا كان لونيهما يتماشى مع بعضهما البعض:

- «مـش كنتـي فضلتي برا مصـر؟ كان زماني سـافرت لك علـى الأقـل وفضلـت معاكي هنـاك.. إنتِ كـده بقالـك قد إيه راجعة مصر؟»

اختفت الابتسـامة عـن وجهي.. لماذا تريد اليـوم أن تذكرني بكل شيء؟ قلت:

- «خمس سنين»

التفتَت إليَّ وقالت:

- «واحنا بقالنا مع بعض تقريبًا خمس سـنين، يعني من ساعة ما رجعتي صح؟»

أمسـكت بعلبة سجائري وأخرجت سـيجارة أشعلتها بعصبية وقلت وأنا أتجه لباب الشرفة:

- «حستناكي في البلكونة»

كنت أتخيل نظراتها المثبتة عليّ وأنا أتجه للشرفة، بالتأكيد تتعجـب من رد فعلي الغريب، لكني لم أعبأ بها ودخلت الشـرفة تاركة الهواء البارد يلفح وجهي وجسـدي لعله يستطيع أن يخبت نار الذكريات تلك التي أوقدتها هي..

وتقول أنها صارت خبيرة في علم النفس وتعلم ما لم أخبرها به حتى.. فلتحاولي معرفة ما حدث معي إذَن دون أن أحكيه..

لن تفهم.. مع كل ما رأيت منها لن تفهم؟

لأنه ببساطة لا أحد يفهم أن القتل أحيانًا قد يكون مبررًا..

«سيف»

ذلك الصداع..

رأسـي يوشك على الانفجار.. لا أذكر أنني قد شعرت بصداع مثله طوال حياتي، لن أذهب إلى طبيب، أنا أعلم تمامًا أن السبب ليـس عضويًّـا ، تصرفاتـي في الفترة السـابقة تشـي بـأن حالتي النفسـية ليسـت علـى مـا يرام، ولـن يفدنـي في شـيء أن يعرف أحدهم أني أذهب إلى طبيب نفسي..

لسـت أدري لـمَ تذكَّـرت (حسـين)، كان سـيصير الرجـل المناسب لدراسة حالتي تلك، فقط لو أنه استطاع أن يبقي رأسه فوق جسده لفترة أطول، لكنه لم يفعل للأسف.

سـمعتُ طرقـات ثم انفتح الباب وظهـر (إبراهيم) على عتبته، أجفل للحظة عندما انتبه أنه دخل دون أن أطلب منه، لكنني لم أكتـرث، فقد صارت هذه الحجرة تعامل معاملة المرحاض منذ فترة، أشرت إليه بالاقتراب فتقدم نحوي ووضع ملفًا ضخمًا على المكتب أمامي ثم قال:

- «دا ملف القضية بتاعة بنت (سـعد الدين إدريس) اللي قتلت أمها»

نظرتُ للملف الموضوع على المكتب، ماذا فعلت هذه التَّعِسة حتى تستحق ملفًا بهذه الضخامة؟ سألته وأنا أتأمل الملف:

- «عِرفت تجيب معلومات عنهم في انجلترا»

بدت الخيبة على وجه (إبراهيم) وقال:

- «كل اللي عرفت أوصل له إن (سعد الدين) كان معاه جنسية إنجليزية، وإنه عرف يدخَّلها مصحَّة هناك، وفعلًا فضلت فيها فترة وبعدين خرجت، واختفى كل أثر ليها هناك.. أنا وصلت لاسم المصحة وكلمتهم بس رافضين إنهم يطلعوا أي معلومات عن المريضة، حاسسهم متعنتين زيادة، أعتقد حنحتاج تدخُّل وزارة الخارجية عشان نعرف ناخد المعلومات اللي احنا عايزينها»

فاتني موضوع الخارجية هذا.. ليس الموضوع ببساطة الحصول على إذْن نيابة مثلما كان الأمر مع (حسين).. أرجو من الله ألا يطير رأس أحدهم في إنجلترا قبل أن نحصل على المعلومة هذه المرة.. قلت:

- «أنا حكلم (رضوان) باشا في الموضوع ده.. كدا كدا حطلع أقابله عشان أقول له على آخر المستجدات، اللي هي ولا حاجة لغاية دلوقتي، غير موضوع البنت دي اللي مش عارفين لسا إيه علاقته بموضوع أخت مراته و(ليلى).. عملت إيه صحيح في موضوع (ليلى)؟.. سألت زي ما قلتلك؟»

أومأ برأسه وإن بقيا حاجباه مقطبان وقال:

- «أنا جبت تاريخها وتاريخ عيليتها كله، حتى صورها وهي صغيرة، هي عايشة مع أمها، وأبوها طلَّق أمها واتجوز واحدة تانية ونقل حياته القاهرة، ومابيشفش مراته القديمة ولا بنته تقريبًا، كأنه ما صدق يخلص منهم، مستواهم المادي كويس، أبوها

كان تاجر، وأمها وارثة شوية فلوس معقولين، كل ده عادي، الغريب بقى اللي لقيته إن (ليلى) و(أروى) بنت سعد الدين كانوا في نفس المدرسة مع بعض لغاية ما موضوع القتل ده حصل»

قطبت حاجبي وأنا أستمع هذه المعلومة الجديدة.. الإسكندرية «غرفة وصالة» كما يقولون، لكن ليس لهذه الدرجة، كمّ المصادفات في هذه القضية وعدد من يعرفون بعضهم البعض يثير غيظي..

- «كدا يا (ابراهيم) حنحتاج نتكلم تاني مع (ليلى)، تفتكر تكون لسا على صلة ببنت (سعد الدين) لغاية دلوقتي؟»

لم يرد، ولن يرد.. قلت له وأنا أقلب الأمور في رأسي للمرة المِئَة:

- «ماشي يا (ابراهيم)، سيبلي الموضوع بتاع الخارجية ده حخلصهولك والملف ده أنا حسهر عليه في المكتب النهارده.. وعايزك تروح مدرسة البنتين دول وتعرف تفاصيل أكتر، لو لقيت حد فاكر، عايزين يبقى معانا معلومات أكتر من كدا قبل ما نتكلم مع (ليلى)»

أومأ برأسه واتجه للباب وتأملت أنا غلاف الملف لمرة ثانية..

(أروى سعد الدين إدريس)..

طلبت كوبًا كبيرًا من القهوة استعدادًا لتلك السهرة التي فرضتها على نفسي وأخذت نفسًا عميقًا ثم فتحت أول صفحة في الملف..

كان الملف مقسم إلى ثلاثة أجزاء.. تقارير طبية تصف ما

حـدث فـي القتل، محاضر التحقيقات، ثـم الجزء الأخير، الذي يأخـذ معظم حيـز الملـف، والـذي كان تفريغًا لحـوار الطبيب النفسي مع الطفلة، تسمَّرت عيناي على اسم الطبيب النفسي..

(حسين أحمد التهامي)..

رفعـت عينـي عن الملـف وعقلي يـدور بسـرعة جنونيـة.. إذَن فـ(حسين) كان هو الطبيب النفسي الذي استعانوا به في القضية وقتها، و(حسين) كان هو الطبيب النفسي الذي كانت تستعين به (ليلى) حتى مقتله..

لا يمكن ألَّا يكونا على علاقة ببعضهما البعض حتى الآن..

هـل كانـت (ليلى) همزة وصـل بينهما بينما هـي مختفية عن الأنظار؟..

أنـا لا أفهـم أي شـيء.. صحيـح أن (حسـين) مشـهور إلى حدٍّ كبيـر، ومـن الطبيعـي أن يخطـر علـى بـال أي شـخص يحتاج لاستشـارة طبيب نفسـي، خاصةً إذا كان من ميسـوري الحال، لأن مـا أعرفـه أن أجـره ليـس زهيدًا علـى الإطـلاق، إلا أنه من الغريـب والمريب فعلًا أن تلجأ إليه فتاتان كانتا زملاء في نفس المدرسـة، ثـم يُشـتبه الآن في أن إحداهما قـد قتلَتْه، وفي نفسِ الوقـت تسـتخدم إحداهما اسـم الأخـرى وهي تذهـب إليه كي تخفي شخصيتها الحقيقية..

أيُّ هراءٍ هذا؟..

خفضـت عينـي إلى الملـف مرة أخرى كي لا أجن، سـأؤجل الجزء الخاص بتفريغ الجلسـات النفسـية إلى النهاية، وسـأقاوم

تلك الرغبة بداخلي أن ألتهمها الآن..

التقاريـر الطبية تؤكد أن الوفاة نتجَت عن طريق طعنات بآلة حادة في الجزع أصابت الكبد وسـبَّبت نزيفًـا حادًّا أدَّى للوفاة، يقـول التقريـر أيضًا أن هناك عدة طعنـات بنفس الآلة الحادة في المهبل، تمَّت قبل الوفاة..

توقفتُ مرة أخرى عن القراءة..

هذا يفسر كل شيء..

ظل عقلي يعمل بسرعة كبيرة وأحداث الأيام السابقة تتجسد أمامي.. عدت للملف وتصفحت الأوراق بسرعة حتى وصلت للجزء الخاص بالتحقيقات، الجثة وجدوها في فراشها، يبدو أن الطفلة قـد فاجـأت أمها أثناء نومها.. أشـياء كثيرة عـن اتجاه الطعنات والسـلاح المستخدم وملابسات الحادث وشـهادة المحيطين بهم وقتها من جيران أو عائلة..

تصفحت مرة أخرى حتى وصلت إلى تفريغ جلسات الاستجواب مع (حسين)..

التاريخ: ١٢- أكتوبر- ٢٠٠٨

جلسة استجواب لأخذ رأي الطب النفسي في الحالة..

تفريغ التسجيل الصوتي للجلسة..

الطبيـب: «إزيـك يـا (أروى)، أنـا دكتور (حسـين)، صاحب بابا، عارفاني ولا لأ؟

أروى: بابا فين؟ هو ماجاش معاك ليه؟»

الطبيب: «إنتِ بتحبي بابا يا (أروى)؟»

أروى: «أيوا بحبه قوي»

الطبيب: «طيب، وماما؟»

أروى: «أنا بحب بابا، ومش عايزاها تاخده مني، هي عايزة تاخده منِّي»

الطبيب: «إنتِ ليه حاسة إنها عايزة تاخده منك؟»

أروى: «لما كانت بتقعد معاه، كانت بتقفل الباب في وشي، كنت بقعد أخبط على الأوضة وأعيَّط، بتقولي إنهم نايمين، بس أنا عارفة إنهم مش نايمين، كانت بتبقى لابسة حلو وحاطة روج، أنا عارفة إنها مش بتنام وهي لابسة كده، بتضحك عليا، كمان دايمًا كانت بتزعقلي لما أقعد على حِجره، وتقوله عايزاك لما تلاقيه بيتكلم معايا، هي مش عايزاني أكون معاه، وأنا عارفة إنه مش عايز كده وإنه بيحبني»

الطبيب: «عشان كده انتِ ضربتيها بالسكينة؟»

أروى: «كانت عايزة تاخده مني»

حسين: «إنتِ ضربتيها بالسكينة في بطنها وفي حتة تانية مش كده؟»

أروى: «أنا سألتها قبل كده وقالتلي إن الحتة دي هي الفرق ما بين الراجل والست، وأنا كنت مش عايزة السِّت اللي فيها»

حسين: «وليه ماكنتيش بتحبي إنها ست يا (أروى)؟»

أروى: «أنا كنت بعاقبها، كل ست بتبقى عايزة تاخد بابا، الست اللي كانت بتيجي لماما قالتلها كده، أنا سمعتها»

حسين: «مين الست اللي كانت بتيجي لماما دي؟ واحدة

صاحبتها؟»

أروى: «لأ، هـي كانـت ماما بتشـرب قهـوة، وبعديـن تديلها الفنجان بتاعها تبص فيه وتقولها هي شايفة إيه»

حسين: «كانت شكلها إيه الست دي؟»

أروى: «شـكلها غريب، بس حلـو، حاطة كحل في عينيها، ولابسـة طارحة حوالين راسـها، بس شـعرها طالع بـرا، وحاطة خاتـم فـي مناخيرهـا، أنـا أول مـرة أشـوف واحدة حاطـة خاتم في مناخيرها، سـمعت بابـا مرة وهو بيكلم مامـا وبيقولها إنتِ سـت راقية وغنيَّة، إزاي مصدقة اللـي الغجرية دي بتقوله؟ وازاي تجيبيها هنا البيت؟ وقالها إنه لو شافها تاني حيكرشها»

حسين: «إنتِ فاكرة هي كانت بتقولها إيه؟»

أروى: «كانـت بتقول لها إن في واحـدة حتاخده منها، واحدة أصغـر منهـا بكتير، هـي كانـت بتتكلم عني، هـي قالت لي كده بنفسها»

حسين: «هي كانت بتتكلم معاكي لوحدك؟»

أروى: «آه، كانت بتيجي تقعد معايا في الأوضة، بالليل، بعد مـا ماما تقفـل الباب عليها هـي وبابا وتسـيبني لوحدي، كانت بتكلمنـي عـن كل حاجة، عن بابا، كانـت بتحبني أكتر من ماما، ماكانتش بتسيبني خالص، حتى دلوقتي»

حسين: «حتى دلوقتي ازاي؟»

أروى: «هيا قاعدة أهي هناك جنب الشباك، بص، أهي»

حسين: «مافيش حد غيرنا في الأوضة»

أروي: «إنتَ ازاي مش شايفها؟ دي جميلة قوي، وبتخليني قوية

حسين: «بتخليكي قوية ازاي؟»

أروى: «بتخليني عندي عضلات كتير زي بابا، وعشان كده غلبت ماما، وضربتها بالسكينة، أنا بقيت أقوى منها، وبابا حيبقى معايا على طول»

توقفتُ عن القراءة..

وأنا أحسب أنني قد رأيت كل شيء..

هل من الممكن أن يصل ارتباط طفلة بأبيها أن تقتل أمها من أجل أن يكون لها وحدها؟ لا بد وأن ما تفعله أمها معها جعلها تشعر بذلك، ثم تلك المرأة الغجرية التي تراها.. القضية تزداد غموضًا، يمكن بوضوح تصوُّر ما يمكن أن تفعله تلك الفتاة الآن إذا ما تعلَّقت بشخصٍ ما، هي الآن في العشرين من العمر تقريبًا، وهو عمر معظم الفتيات في تلك الفرقة اللعينة، لكن من المفترض أنها في إنجلترا، فهل عادت؟ وإن عادت، لا يوجد من بينهم مَن اسمها (أروى)، فهل غيَّرت اسمها؟.. كل شيء جائز، مَن لديها أب مثل (سعد الدين إدريس) بكل الثراء والنفوذ الذي كان لديه يمكنها فعل أي شيء.. ثم ما علاقة (ليلى) بكل هذا؟

تلك الفتاة قتلت أمها من أجل أن تبقى مع أبيها، ليكون لها وحدها.. لو ظل نفس المرض النفسي لديها فهي على استعداد تام أن تقتل من أجل أن تحتفظ بمن تحب..

رنَّ هاتفي في تلك اللحظة فالتقطته في عصبية..

غريب، (أدهم) هو مَن يتصل بي..

أعطيتـه رقـم هاتفي عندما اسـتجوبته أول مـرة ليخبرني في حالة تذكره لشيء آخر.. رفعتُ الهاتف إلى أذني وانتظرت سماع صوته..

- «ألو، (سيف) بك، أنا (أدهم)، (أدهم) اللي...»

قلت بنفاذ صبر:

- «أيوا يا (أدهم) خير؟»

- «(ياسمين) معايا دلوقتي وبتعيط ومنهارة، بتقول إن في حد حاول يقتلها»

اعتدلتُ في مقعدي وأمسكت الهاتف بقوة وصِحتُ فيه:

- «حد مين اللي حاول يقتلها؟»

- «هـي بتحكي وهي بتعيط ومش فاهم منها حاجة، عشـان كده كلمت حضرتك، إحنا ممكن نجيلك؟»

قلت على الفور:

- «تعالوا، تعالوا حالًا»

أنهيت المكالمة وضغطت زر الاستدعاء على مكتبي وما أن ظهر العسـكري على الباب حتى صِحـتُ فيه أن يحضر لي قهوة أخرى وجلستُ ألتقط أنفاسي بصعوبة..

أنا فعلًا لا أفهم أي شيء..

لا أفهم شيء على الإطلاق..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

أنهيتُ المكالمة ونظرت إليها والشكُّ يكبر في داخلي مع كل ثانية تمر..

كنت في منزلي عندما رنَّ جرس هاتفي ووجدت أن الطالب هو (ياسمين)، كانت تتحدث بكلمات غير مفهومة، وتبكي، طلبتُ منها أن تهدأ وأن تخبرني بما حدث بالضبط، وبعد الكثير من النحيب فهمتُ أنها قد تعرضت لمحاولة قتل.. كانت تتحدث من مقهى قريب، لذا طلبت منها البقاء هناك ولم تمضِ أكثر من ربع ساعة حتى كنت أوقف سيارتي بجانب المقهى وأتجه إليه في خطوات سريعة، وما أن رأتني حتى اندفعت نحوي وأجهشت في بكاء هستيري يتخلله كلمات لم أفهم منها سوى أن هناك شيء يشبه الغوريلا حاول قتلها!..

لم تبذل مجهود كبير كي لا تثير ريبتي، كان يمكنها أن تخترع قصة أكثر منطقية وأقل اقترابًا من القصص المصورة، لماذا أشك فيما تقول؟ لأنه ببساطة شديدة الأشخاص قريبي الشبه بالغوريلا لا يجولون في الشوارع ليلًا محاولين قتل الجميلات اللاتي قادهن حظهن الأسود للمرور في تلك الشوارع في الليل بالذات، ظننت هذا واضحًا، ولأنه ببساطة أيضًا ليس من الطبيعي أن تتجول فتاة في الشوارع المحيطة بمنطقة صلاح الدين في ذلك الوقت من الليل.. كدت أن أخبرها بأنني لا

أصدق حرفًا مما تقول لكنني آثرت الصمت وأخبرتها أن علينا أن نخبر (سيف) بما حدث، وكأنما كانت تنتظر أن أدلي بذلك الاقتراح، وافقَت على الفور، الأمر الذي جعلني أشعر أنها اختلقت كل هذا من أجل أن يعلم (سيف) أنها خارج دائرة الشك وأنها ليست هي مَن قتل كل هؤلاء..

وبالفعل طلبتُ رقم هاتف (سيف) وحكيت له ما حدث، وطلبت منه أن نذهب إليه، وها نحن نجلس أنا و(ياسمين) أمامه ونشرب القهوة والليمون اللذان طلبهما لنا..

- «ها يا (ياسمين)، أظن هديتي شوية دلوقتي، عايزك بقى تحكيلي اللي حصل بالضبط واحدة واحدة كدا وحاولي ماتنسيش حاجة»

بدا الذعر في عيني (ياسمين) التي أخذت نفسًا عميقًا ثم زفرته وأمسكت الكوب بكلتا يديها كأنما يساعدها ذلك في خفض توترها، ثم قالت وهي تنظر إلى ركن الغرفة كأنما تتحاشى النظر إلى أيٍّ منَّا:

- «أنا كنت راجعة من عند (ليلى)، ماكانش معايا العربية ساعتها وكنت عاملة حسابي إني حشتري شوية حاجات للعربية ففضلت ماشية في شارع فؤاد لغاية ما وصلت (صلاح الدين)، أنا عارفة إن الوقت متأخر وإن محلات كتير كانت قافلة، بس أنا كان نفسي أتمشى في أي حتة جديدة، فضلت أدخل في شوارع جانبية لغاية ما وصلت لحتة فاضية كده وضلمة، فيها حاجة زي مصنع، بدأت أخاف شوية، فَشِلت السماعات من ودني، سمعت صوت حد جاي من ورايا، بصيت لقيت...»

لـم تـكمل الجملـة وصمتت لوهلـة وازدادت نظـرة الذعر في عينيها ثم نظرت لـ(سيف) وقالت:

- «وشـه كـان مرعـب، أسـود، ومليان شـعر، وعنـده أنياب طويلـة، حتى إيديه كانت سـودة. أنا فضلـت مش عارفة أتحرك لغايـة مـا قـرَّب مني ومـد إيـده ناحيتـي، كان معاه سـكينة، سـكينة كبيـرة، وكان حيضربني بيها، أنا مـش عارفة ازاي صرخت وجريت زي المجنونة، الشـوارع كلها ضلمة، مابصتش ورايـا وفضلت أدخل من شـارع للتانـي وأنا مش عارفـة أنا رايحة فين، لغاية ما وصلت لقهوة بلدي في شارع من الشوارع الجانبية، كانـت هي بس اللي فاتحة فـي الوقت ده، الناس اتلمَّت عليا لما قلتلهـم علـى اللي حصل، وفـي كذا واحد راحوا فعـلًا ناحية ما شـاورتلهم ورجعوا بعدهـا وقالولي إن مافيش حاجة وإني ممكن أكون شـفت حد في الضلمة واتهيألي كل الكلام ده، بس أنا واثقة إني شفته، وإنه كان زي ما أنا وصفته بالضبط»

ظل (سـيف) ينظر إليها في شـكٍّ دون أن يتحدث ثم فجأة انفجر في الضحك. نظرَت له (ياسـمين) باستغراب ثم في اسـتنكار ثم بدا الغضب على وجهها، كنت أنا قد كوَّنت رأيي الخاص أثناء جلساتي مع (سـيف) أنه غير مسـتقر نفسـيًّا لـذا لم أندهش ممـا فعله، هذا بالإضافة إلى أن ما تقوله (ياسمين) جدير بالسخرية بكل تأكيد.. توقف (سيف) عن الضحك أخيرًا وقال لـ(ياسمين) بابتسامة عريضة:

- «كل ما أقول إن الستات مالهمش في الألش والكوميديا، تيجي واحدة تثبتلي العكس»

قالت (ياسـمين) بعصبية شـديدة وهي تعتصر كوب العصير

بين كفيها حتى شعرتُ للحظة أنه سيتحطم في يديها:

- «لو سيادتك مش مصدق اللي أنا بقوله ممكن أمشي دلوقتي بدل ما دمي يتحرق وأنا شايفاك بتضحك على كلامي وأنا بقولك إني كنت حموت من ساعة تقريبًا، أنا مش شايفة حاجة تضحك في اللي أنا بحكيه»

لم تختفِ الابتسامة من على وجه (سيف) وقال:

- «لا أبدًا، مافيش حاجة تضحك، مافيش غير إن كينج كونج كان بيجري وراكي بسكينة في الشارع وإنك كنتي بتتمشي الساعة ١٠:٣٠ في صلاح الدين عشان تفكي عن نفسك شوية، غير كده مافيش حاجة تضحك الحقيقة»

امتلأت عيني (ياسمين) بالدموع وإن لم يبدُ هذا على صوتها وهي تقول وقد ازدادت عصبيتها:

- «كنت زهقانة، وما كنتش عايزة أنام، ما بعرفش أنام أصلًا، مش محتاجة أبررلك حاجة، ده اللي حصل، ولو مش مصدقني ممكن أمشي واعتبر إن مافيش حاجة حصلت»

قالتها ووضعت الكوب بعنف على المنضدة التي أمام المكتب ثم قامت واقفة، ظل (سيف) ينظر لها دون أن يتحدث كأنما قد قرر فعلًا أن يخبرها أنه لا يصدقها، نظرَت لي ثم اتجهت في خطواتٍ سريعة إلى الباب، نظرتُ لـ(سيف) الذي كان ينظر إليَّ بالفعل، نادرًا ما تتغير النظرة في عيني هذا الرجل، دائمًا كأن ما يحدث حوله لا يعنيه، قمت واقفًا أنا الآخر فظل ينظر إليَّ لثوانٍ ثم أومأ برأسه ومط شفتيه ففهمت أنه يريدني أن أرحل أنا

الآخر.. حيَّيته بهزَّة من رأسي واتجهت إلى الباب بسرعة محاولًا اللحاق بـ(ياسمين)..

كانت قد وصلت إلى المدخل الرئيسي بالفعل، أسرعت حتى صرت بجانبها وأمسكت بذراعها كي تبطئ من سرعتها، أجفلت للحظة ثم وقفت تنظر إليَّ والدموع تملأ عينيها، ثم قالت بعصبية وسط دموعها:

- «أنا مابكدبش يا (أدهم)، أنا حكيت اللي حصل فعلًا، أنا كنت حموت، أنا أول مرة أعيط أصلًا من زمان أوي، حتى لما كنت ببقى نفسي أعيط ماكنتش بعرف، بس اللي أنا شفته ده خلاني خايفة بجد يا (أدهم)»

مددت يدي ومسحت على ذراعها وقد قررت ألا أخبرها أنا الآخر أنني لا أصدقها ثم جذبتها في رفق لنتجه نحو السيارة، لكنها أمسكت بيدي وقالت بصوتٍ خافت:

- «(أدهم) أنا محتاجاك، أنا أول مرة أحس إني محتاجة حد يحميني، أنا عمري ما حسيت الإحساس ده قبل كده، طول عمري أنا اللي بدي إحساس الأمان ده للناس اللي حواليا، أنا اللي بحمي نفسي، بس النهارده لأ.. (أدهم)، ممكن تخليك معايا شوية؟ أنا مش حاعرف أروح، ممكن تفضل معايا؟ ممكن؟»

آه من إحساس الضعف هذا.. لا يمكن أن يرفض رجل أيًّا مَن كان امرأة تطلب منه أن يمارس ما خُلق من أجل ممارسته.. أن يكون رجلًا، أن يُشعرها بالأمان، أن يحميها.. أغلب الظن أن شعوره بأنه يمدها بالأمان هو ما يحركه وليس رغبته في

مساعدتها، لسبب مثل هذا تظهر شهامة الرجل فقط في المواقف التي يكون فيها نساء، أما إذا طلب منه رجل آخر أن يساعده فهو لن يفعل على الأرجح!..

أومأت برأسي وابتسمت متناسيًا ما يعتمل بداخلي ومسحت على ذراعها ثم اتجهنا سويًا نحو السيارة..

وما أن ركبنا السيارة حتى انهمرت دموعها على خديها دون أن يصدر منها صوت بكاء.. أردت أن أواسيها بأي شكل لكنها قالت فجأة دون أن تنظر إليّ:

- «أنا قتلت واحد من خمس سنين»

شعرت برجفة تسري في أطرافي فجأة، لكني لم أتكلم ولم أسألها، لم تعطِني هي فرصة وقالت تاركة دموعها تنساب على خديها:

- أنا كنت في أمريكا ساعتها، لوحدي بعد ما أمي ماتت، ماكنتش طايقة أقعد في مصر، أخدت الفيزا وقتها أيام ما الدنيا كانت سهلة، وقعدت هناك مع واحدة صاحبتي، كنت بشتغل أي حاجة، أبيع تيشيرتات، مطاعم، يعني، كانت الدنيا ماشية، لغاية ما صاحبتي اتعرفت على واحد أمريكاني، واتصاحبوا، كان شبه قاعد معانا في البيت، كنت بلاحظ على طول إنه دايمًا بيبصلي، عينه ماكانتش بتنزل من عليا، على جسمي، وفي مرة رجعت البيت، وكان هو لواحده، دخلت على أوضتي بس هو جه ورايا وكان... كان عايزني، أنا مش ضعيفة، أنا قوية، وكلهم فاكرين إن الست ضعيفة، ومش حتعرف تدافع عن نفسها، وهو

كان شارب، ضربته، ماسكتش، زقني على السرير، وهجم عليا، مالقيتش جنبي غير الأباجورة، ضربته بيها على دماغه، فجأة لقيت السرير بقى كله دم، أنا معرفتش أعمل إيه، ماكنتش قادرة أفكر، جريت، ماكنتش عارفة أروح فين، رحت للراجل اللي كنت بشتغل عنده، كنت منهارة، حكيت له اللي حصل، قالي ماتخافيش، وخلاني أبات في الجراج عنده، كان طيب، تقريبًا هو الراجل الوحيد اللي وقف جنبي في حياتي، حجزلي تذكرة طيران على مصر، كنت مرعوبة، وأنا في المطار كنت حاسة إن كل الناس عارفة إني قتلت، ما استريحتش شوية غير لما الطيارة اتحركت، وبعد ما وصلت مصر، مسألتش إيه اللي حصل هناك، حتى صاحبتي معرفش عنها حاجة لغاية دلوقتي».

قلت لها:

- «طيب، مش ممكن مايكونش مات؟»

صاحت على الفور:

- «معرفش، معرفش مات ولا لأ، بس الدم اللي كان بينزل من راسه وملا السرير بيقول كدا»

ثم ازداد انهمار دموعها فمدَّت يدها بسرعة لتمسحها، هذه الفتاة لا تريد أن تبدو ضعيفة حتى وهي تحكي عن شيء مثل هذا.. قالت:

- «مع كل الرعب اللي كنت فيه من إني أتمسك بس كنت حاسة بقوة غريبة، أنا بعرف أدافع عن نفسي، أنا مش محتاجة حد يدافع عني، بس النهارده ماحستش الإحساس ده»

ثم مدت يدها وأخرجت علبة سجائرها من حقيبتها وأشعلتها بعصبية ونفثَت دخانها تاركة إياه يصعد إلى سقف السيارة في بطء، كانت أصابعها الممسكة بالسيجارة ترتعد، هي خائفة فعلًا ولا تدعي ذلك، أو هي تجيد التمثيل بالفعل، ثم التفتت إليَّ وقالت وعيناها متسعتان بشدة والرعب متجلٍّ على وجهها:

- «اللي أنا شفته النهارده يا (أدهم)، اللي كان عايز يموتني ده خلاني أحس لأول مرة إني مقدرش أحمي نفسي»

قالتها والتفتت إلى الجهة الأخرى ونظرت عبر النافذة، ظللتُ شارد الذهن أنا أيضًا وأنا أفكر في كل ما قالته، التفتُّ إليها بعد وهلة فوجدتها كما هي، التفتَت إليَّ فجأة، ظللنا ننظر في عيني بعضنا البعض لثوانٍ ثم ابتسمت ابتسامة واهنة وقالت بصوتٍ خافت:

- «شكرا يا (أدهم)»

لم تمهلني حتى فرصة للرد عليها، فقد التفتت مرة أخرى لتنظر عبر النافذة، يبدو أنه لم يعد لديها ما تقول، أنا أيضًا شعرت أنني لا أريد أن أتكلم، أخذت نفسًا عميقًا ثم مددت يدي وأدرت المفتاح فانبعث صوت موتور السيارة ليشعرنا بأننا لسنا وحدنا تمامًا..

لست أنا فقط من لديه أسرار لا يعلم أحد عنها شيء..

على الأقل هي تتذكر ما حدث لها بالضبط..

أما أنا، فلست متأكدًا من أي شيء..

على الإطلاق..

❖ ❖ ❖

«إبراهيم»

- «مش حتصدق يا باشا»

الْتَفَتَ إلـيَّ (سـيف) عاقـدًا حاجبيـه، لـم أطرق بـاب حجرة مكتبه هذه المرة أيضًا ولم أكترث إن كان قد ضايقه هذا أم لا، فما لديَّ من معلومات سيجعله يتناسى أي شيء آخر.. أخذت نفسًا عميقًا لكي أرتب أفكاري ثم قلت والحماس يغلبني:

- «أخبار جديدة لسا واصلة من انجلترا»

لم يظهر الاهتمام على وجه (سـيف) ولم يقل شـيء، قلت على الفور:

- «حضرتك عارف إن الخارجية بعد ما (رضوان) باشا كلمهم لغايـة دلوقتي ماقدرتش توصل لاتفاق مع المستشـفى إنهم يدُّونا أي تفاصيـل عـن البنـت، أنا فكرت كدا في فكـرة إن ما دام إحنا شـاكين إن البنت دي ليها علاقة بقضية القتل يبقى أكيد هي رجعت مصر، عشـان كده طلبـت من الجوازات إنهم يدوروا في العشر سنين اللي فاتوا عن حركة (سعد الدين) أو بنته»

ظـل يتابعني بنفس النظرة ولم يبدُ عليه أي شـيء.. هذا الرجل فقد الشغف تمامًا.. أكملت:

- «وللأسـف، (أروى سـعد الديـن إدريـس) مـا دخلتش مصر تاني من ساعة ما سافرت، ولا (سعد الدين) نفسه، لأنه مات في انجلترا، ده اللي الخارجية قدرت توصل له لغاية دلوقتي»

- «مات ازاي؟»

قالها على الفور وباهتمام شديد لم أتعوده عليه، فنظرت له باستغراب ثم قلت:

- «لأ، المعلومة دي مش عندي، بس حيفرق في إيه هو مات ازاي؟»

- «حيفرق كتير، المهم، قدرت تعرف حاجة عن البنت حصلها إيه بعد ما أبوها مات؟»

كنت أود معرفة ما يفكر به، وإن كنت ما زلت لا أفهم سر أنه يريد معرفة كيفية موت (سعد الدين) وقلت:

- «للأسف الخارجية ماعندهاش أي معلومات عنها، بس في حاجة تانية عرفتها من الجوازات، (فريدة إدريس)، أخت (سعد الدين)، سافرت انجلترا من ست سنين، في نفس الوقت تقريبًا اللي (سعد الدين) مات فيه حسب المعلومة اللي جاية من الخارجية، بمعنى أصح، هي سافرت عشان تفضل مع البنت بعد موت أخوها ورجعت بعدها بسنة واحدة لمصر، بس من غير (أروى)»

قال بعصبية:

- «يعني إيه الخارجية ماعندهاش معلومات؟ أمال مين اللي عنده معلومات؟ أكيد دخلت مدرسة هناك، أكيد في نقل لأملاك وثروة (سعد الدين) باسمها؟ أكيد دخلت جامعة، أكيد عندها رخصة، كارنيه، ماينفعش بنت (سعد الدين إدريس) تختفي فجأة كده من غير ما نعرف أو ما الخارجية يكون عندها معلومات عنها»

ابتلعت ريقي وقلت:

- «للأسف، (سعد الدين) قبل ما يسافر كتب معظم ممتلكاته باسم (فريدة) أخته، والباقي سَيِّله وأخده معاه انجلترا، هو تقريبًا ماكانش ناوي يرجع مصر تاني، ده اللي مثبوت عندنا، إحنا عمومًا لسا مستنيين مفاوضات الخارجية مع المستشفى، أكيد الخيط حيبتدي من هناك»

صاح بانفعالٍ شديد وهو يطوح بيده في الهواء:

- «مافيش حد بيختفي من الحاجات الرسمية يا (ابراهيم)، لا هنا، ولا برًّا، الحكومات أصلًا عاملين الحاجات الرسمية دي عشان ماحدش يعرف يختفي، عشان الناس تفضل متراقبة، تروح دلوقتي وماترجعش إلا لما تجيبلي كل حاجة عنها، عايشة فين، ودخلت كلية إيه، بتحب مين، بتاكل بوريو ولا أوريو، كل حاجة، انتَ فاهمني؟ وأنا حكلم اللواء (رضوان) تاني أخليه يزق مع الخارجية شوية، مع إني مش عارف أقابله بأنهي وش واحنا مش عارفين نوصل لأي حاجة عن قتل (ريهام) أخت مراته، أكيد حوادث القتل دي مربوطة ببعض.. أنا واثق من ده»

قلت بعصبية وقد شعرت أنني لا أفهم لماذا يقودنا إلى هذا الطريق المسدود، كما أنني لا أفهم فعلًا لماذا يُصر على أن هناك علاقة بين مقتل (ريهام) هذه وباقي الحوادث:

- «وليه سيادتك مصمم إن بنت (سعد الدين) هي اللي قتلت؟ ليه مايكونش حد تاني عرف تفاصيل القضية وبيقنعنا إن هي اللي عملت كدا؟ زي ما حصل مع أخت مرات اللواء (رضوان)؟

وخصوصًا إن دكتور (حسين) كان هو الدكتور النفسي اللي كان مشرف على حالة (أروى)، يعني ممكن يكون هو برضو اللي سرَّب التفاصيل دي لنفس القاتل، وليه مايكونش القاتل نفسه غيَّر من اللي هو بيعمله عشان يقنعنا إن في اتنين بيقتلوا مش واحد؟»

شعرت أن كلماتي لامست شيئًا ما في داخله لأنه شرد طويلًا جدًّا هذه المرة ثم التفت إليَّ أخيرًا وقال بهدوء:

- «زي ما قلتلك يا (ابراهيم)، تروح دلوقتي وماتجيش إلا ومعاك تفاصيل عن (أروى) من انجلترا»

شعرتُ بالحرارة تنبعث من وجهي وبأسناني على وشك التحطم من فرط ضغطي عليها، ظننت أنه سيلقي إليَّ بتعليمات جديدة لها علاقة بما قلته له، لكن من الواضح أنه لم يقتنع، مع أني أرى أن ما قلته يفسر الكثير من الأشياء الغامضة ويريحنا من الدوران في متاهاتٍ لن توصلنا لشيء.. حاولت إخفاء ضيقي وأومأت برأسي، ثم تجهت للباب بالفعل..

- «(إبراهيم)، (فريدة إدريس)، وصلت لحاجة عنها؟»

الْتفتُّ إليه وقلت له في ضيقٍ لم أستطع إخفاءه:

- «إحنا وصلنا لعنوانها، هي عايشة في ڤيلا بتاعتها في سيدي كرير»

انبعث صوت هاتفه في تلك اللحظة فنظر فيه ثم وضع الهاتف على أذنه وقال في سأم:

- «دكتور (حلمي)، معلش أنا كنت المفروض أتأسفلك

على المرة اللي فاتت، انتَ عارف إن...»

قطـع كـلامه وعقد حاجبيه وهو يسـتمع إلى الطرف الآخر، لا بد أن ما قاله (حلمي) الطبيب الشـرعي شـيء مهم فعلًا، ظل يستمع لدقيقة كاملة ثم قال:

- «طيـب، ماتتكلمـش مـع حـد تاني فـي الموضـوع ده وأنا حتصرف، مع السلامة»

وأنهى المكالمة وشرد ببصره، احترمت صمته كي لا أقطع حبل أفكاره، نظر لي بنفس الشرود وقال:

- «(حلمي) بيقول إنه شاف المساعد بتاعه بيدور في مكتبه في المشرحة، رجع المكتب لقاه بيدور في التقارير ووشه اصفرّ لما سأله انتَ بتعمل إيه، وقاله إن في تقرير مش لاقيه وإنه فكَّر إن الدكتور شايله عنده، طبعًا (حلمي) عمل نفسه إنه مصدقه، بـس بيقول لـي إن الموضوع ده اتكرر بكذا شـكل قبل كدا بس مارضاش يقولي حاجة عشـان مايقطعش عيش الراجل، بس الموضوع المرة دي كبير وفي تقرير لتشـريح جثة في قضية قتل اتسـرب وهـو مش حيشـيل مسـؤوليته.. معنى كـدا إنه ممكن يكون هو اللي طلع التقرير بتاع الجثة الأولى أو التانية»

قالها وشـرد ببصره مرة أخرى، لم أتحدث وظلت أنتظر حتى يفرغ من أفـكاره، قام واقفًا فجأة والتقط الچاكت الخاص به من على الشماعة وقال لي وهو يتجه للباب:

- «بـص يـا (ابراهيم)، إديـنـي عنوان أخت (سـعد الدين)، أنا حروح لها دلوقتي، وانتَ تروح تجيب مساعد (حلمي) ده من قفاه»

هممت بالمضي خلفه بالفعل، لكن هاتفه رنَّ مرَّة أخرى فأخرجه من جيبه في عصبية، نظر فيه طويلًا، يبدو أن الرقم غير مسجل؛ لأنه وضع الهاتف على أذنه وسأل عن الطالب في عصبية شديدة.. ظل يستمع للحظات، ثم قال بعصبية:

- «امتى الكلام ده؟ طيب، طيب»

وأنهى المكالمة وهو يبدو عليه الغضب الشديد، سألته وقد شعرت أن تلك المكالمة تمُت بصلة للقضية:

- «حاجة تانية حصلت يا باشا؟»

ظل شاردًا لوهلة ثم نظر إليَّ وقال:

- «(مي)، البنت دي اللي كان مصاحبها (أدهم)، مختفية عن البيت من امبارح»

لم أرد، الحقيقة إنَّ ما يحدث في هذه القضية صار لا يعقل.. قال هو كي يريحني من الرد:

- «أنا حروح الأول لـ(فريدة إدريس) وبعد كده حروح أشوف موضوع البنت اللي اسمها (مي) دي كمان، كانت نقصاها الحقيقة، وانتَ روح المشرحة زي ما قُلتلك»

أومأت برأسي وغادرنا حجرة المكتب وأنا أشعر بالغباء كما لم أشعر من قبل..

❖ ❖ ❖

«ليلى»

برغـم معرفتــي التامة أن ما أكنه من شـعور نحو (ياسـمين) ليـس حبًّـا ؛ إلا أنني كنـت أحتاجها فعلًا في تلـك اللحظة.. أعلم أننا لسنا في بيتي، لسنا في السيارة، لسنا في منأى عن الناس.. من الغريب أنني الآن فقط قد لاحظت أنني لم أذهب لبيتها قط، ولـم تعرض عليَّ هي ذلك حتى، لكـن لا يهم، أليس ما يهم الآن فقـط أن نكون سـويًّا؟، أن نلتقي مهمـا كان المكان؟ عندما تشـعر بأن هناك من يحتويك فلا قيمة للأماكن ولا معنى للزمن من الأساس..

كنا نجلس في الاسـتوديو، قريبين من بعضنا البعض، يعانق كف كل منًّا كف الآخر، وتتلاقى أعيننا..

- «بحبِك»

قالتهـا فابتسـمتُ، لم أجـدر على الـرد، فلم يعد بوسـعي أن أكـذب عليهـا، أعلم أنهـا تنتظر تلك الكلمة منــي هي الأخرى لكني سـأمت من ذلك الكلام الذي لا معنى له.. لماذا يجب أن نضـع مسـمى لكل علاقة؟ سـمعت (أدهم) يقول ذات مرة شـيئًا مماثلًا.. هذه صديقتي، هذه أحبها، ألا يمكننا أن نتلاقى فقط لأننا نريد هذا، ونفترق عندما يمل أحدنا الآخر، ثم نعود لنتلاقى؟ ما أسوأ العلاقات التي يظل الطرفين مع بعضهما البعض بينما لا يريـد أحدهمـا أو كلاهما أن يرى الآخر إلا سـاعة واحدة خلال

اليوم أو حتى الأسبوع، لكنها المسميات، تخاف هي من أن تكون مطلَّقة، ويخاف هو من أن يُلقبوه بزير النساء، تخاف أن يطلق عليها أنها فتاة سيئة، أو امرأة لعوب، في حين تكون تلك التي تتزوج من رجل واحد ويمكث معها زوجها في البيت هي المرأة الصالحة، حتى لو لم يكن زوجها يطيقها، وحتى لو لم تكن هي تطيقه.. فلتسقط المسميات، ولتحيا تلك اللحظة التي تولد شعورًا لا أريد أن أطلق عليه اسمًا هو الآخر..

ولكي أتجنب الرد، اقتربت منها كأقرب ما يكون، ثم قبلتها..

قُبلة طويلة، بادلتني هي إيَّاها على الفور، فلم تكن مرتنا الأولى إن كنت تتذكر، لكنها كانت تختلف، لست أعرف لماذا، لكني لا أريد أن أعرف..

شعرت أن الموجودات تتلاشى من حولنا فلم أعد أشعر بأي شيء..

لم أشعر حتى به وهو يفتح الباب ويدخل..

لم ألحظ وجوده حتى ابتعدت (ياسمين) فجأة والتفتَت إليه بكيانها كله..

التفتُّ إلي حيث تنظر هي، كان واقفًا يتطلع إلينا ونظرة كُرهٍ لم أرَ مثيلًا لها مرتسمة على وجهه..

شعرت ببرودة غريبة تسري في أطرافي و(أدهم) ينظر إليَّ بتلك النظرة، أحيانًا تكون للنظرات وقعًا يفوق الكلمات، لماذا لا يصرخ؟ لماذا لا يصيح بأعلى صوته ويخبرني أنني عاهرة؟

أنني غير جديرة حتى بالحياة البائسة التي أحياها؟.. فلتتهرني، فلتضربني حتى كما تفعل (ياسمين) أحيانًا، لكن لا تقف هكذا دون أن تفعل شيء، ذلك الصمت الذي يجعلك تشعر أنك تسمع صوت عقلك حتى يكاد يودي بك إلى الجنون.. كانت (ياسمين) هي أول من قطع هذا الصمت الذي لم أعد أحتمله..

- «(أدهم)، إحنا.. إحنا كنا..»

لم تستطع أن تكمل كلامها، كانت هذه أول مرة أرى على وجه (ياسمين) هذا القدر من التوتر، العجيب أنني لم أشعر بأي شيء، صاح هو فجأة في غضب هادر:

- «المفروض ماكنتش أستنى لما أسمع من صحابكم إنكم ش..... عشان أعرف إنكم كدا.. أنا اللي غبي»

قامت (ياسمين) واقفة وبدا الغضب على وجهها وتقلص فمها وبدا عليها كأنما تريد قول شيء ما ولا تستطيع، ظلت تفتح فمها وتغلقه عدة مرات، ثم قالت أخيرًا كأنما نجحت لتوِّها في السيطرة على حنجرتها :

- «انننت ازززززاي بتتتكلمني آآآ كككككده؟»

خفق قلبي وأنا أراها هكذا، ولم أفهم ما يحدث لها، ثم تذكرت على الفور ما حكته لي عن فقدها للقدرة على الكلام عندما ينهرها أحد، والذي لم يحدث طوال فترة معرفتي بها، لم يمهلها (أدهم) فرصة وصاح فيها:

- «أكلمك كده ازاي؟ إنتِ ليكي عين تتكلمي كمان؟ مش عايز أسمع صوتك لا انتِ ولا الشاذة اللي قاعدة جنبك دي»

لم تزعجني الكلمة، سمعتها كثيرًا حتى صارت جزءًا لا يتجزأ من حياتي، كان ما يشغلني الآن هو (ياسمين) التي كانت شفتاها ترتعدان وهي تنظر إلى (أدهم) نظرة تحمل الغضب واليأس في مزيج غريب.. لم يجرؤ إنسان على أن يحدثها بهذه الطريقة من قبل، كانت قد أحاطت نفسها بهالة من الرهبة إلى جانب شخصيتها الكاسحة، لذا كنت أشعر بأنني لا أدري فعلًا ماذا أفعل وأنا أراها بهذا الشكل لأول مرة.. قمت من مقعدي على الفور ومددت يدي وأمسكت بيدها ثم التفتُّ إلى (أدهم) وقلت بعصبية:

- «ممكن تمشي؟ إنتَ شايف هي عاملة ازاي؟ إمشي لو سمحت يا (أدهم)»

ازدادت نظرة الكُره في عينيه وقال بوجهٍ متقلص:

- «إنتِ فعلًا أحقر إنسانة شفتها في حياتي، أحقر من أي حد قابلته قبل كده، أنا ازاي صدقت للحظة إني بحبك؟»

شعرت بالدم يصعد إلى رأسي وللحظة تناسيت (ياسمين) التي أشعر بيدها ترتجف في يدي وصحت فيه:

- «إنتَ عمرك ما حبتني، إنتَ شخص مريض، بتحاول تنسى (سارة) بـ(مي)، وبتحاول تنسى (مي) بيَّا، كان ليها حق (سارة) تسيبك، أنا عرفت إنك انتَ كنت صاحبها اللي قالتلي إنها حتسيبه عشان عرفت إنه مريض نفسي، أنا كنت مستنية أشوفك عشان أسألك، بس بما إن انتَ هنا دلوقتي يا (أدهم)، فأنا حسألك لأني كدا كدا مش عايزة أشوفك تاني

بعد النهارده.. إنتَ اللي قتلت (سارة) يا (أدهم)؟»

اقتــربَ منــي في خطـواتٍ بطيئة والشــرر يتطاير مــن عينيه، أحطـت خصر (ياسـمين) -التي كانت يداهــا مضمومتان تمامًا ووقفـت متجمدة تتابـع ما يحـدث بعينين زجاجيتيــن- بيدي وأنا أشـعر بالخـوف فعلًا، قال هـو بطريقة جعلتني أرتعد وأنا أشـعر بجلد ذراعي يصير كجلد الإوز:

- «أيـوا أنــا اللي قتلتهــا، وكنت أتمنى إني أقتــل (مي) وأبويا وأي حد خلاني أحس الإحساس اللي أنا حاسه دلوقتي»

التصقـت بـ(ياسـمين) وأنــا أشـعر بـكل نبضــة مـن نبضات قلبــي في جانبي رأســي وشـعرت بصداع ممــزوج بالخوف جعلني أفقـد القدرة علـى التركيز، وإن لم أنـزل عينــي عن عينيه كي أكـون مسـتعدة إذا ما أقدم على فعل شــيء ما، ثــم اندفع فجأة خارج الاسـتوديو فارتعد جسـدي كلـه من حركتـه المفاجِئة، ثم شـعرت فجأة أن قدماي لا تسـتطيعان أن تحملاني، كل هذا الضغط النفسي، كل هذا الخوف، كل هذه الإهانات، لم أعد أحتمل، فأنا برغم ما فيَّ من الخصال السـيئة، بشر، بشر برغم كل شيء..

وانهرت على المقعد وانفجرت في البكـاء..

كأنما لم يعد هناك من حولي أي شيء آخر..

❖ ❖ ❖

«سيف»

شــيء واحد أيقنت به عندما أوقفت سيارتي أمام الڤيلا.. لا بد وأن (سعد الدين إدريس) هذا كان (قارون) ذلك الزمن.. لماذا لم يخبرني ذلك التَّعِس (إبراهيم) أن (فريدة) هذه تسكن في قصر وليس ڤيلا؟ سأحتاج إلى أن أمضي ما بقي من عمري أدفع أقساط ثمـن تلـك التماثيل فقـط التي تزين السـور المعدني الـذي يناهز المترين ارتفاعًا.. ظللت أتطلع إلى بوابة القصر لدقيقة ثم اقتربت منهـا أخيـرًا في خطـوات بطيئة وضغطـت على الجـرس، أدرت عينـي في البوابة أتأمل النقوش على الحديد المطروق، ثم رفعت عينـي حتى وجـدت كاميرا مراقبـة تنظر لي مـن أعلى فنظرت فيهـا طويـلًا ، لا بد وأن مـن في داخل القصر الآن يتسـاءلون عن كُنـه ذلك المعتوه الذي يتطلع بهذه الطريقة المريبة للكاميرا ، وبالفعل سـمعت صـوت فنظرت لأجـد جهاز «انتركـوم» متطور لـم ألحظـه فـي البداية ثم صدر منـه صوت أنثوي يقـول في توتر ملحوظ:

- «إنتَ مين؟ وعايز إيه؟»

قلت على الفور:

- «مقدم (سيف الأسيوطي)، مباحث»

صمـت الصـوت طويلًا فعـلًا حتى ظننت أنها لن تـرد ثانية ثم قالت فجأة:

- «وسيادتك عايز إيه؟»

قررت أن أخبرها مباشرة بما جئت من أجله:

- «أنا عايز أتكلم مع حضرتك شوية عن بنت أخوكي، (أروى)»

صمتَت هذه المرة لمدة أطول مما سبقتها، ثم فجأة صدر صوت أزيز من البوابة المعدنية وانفتحت ببطء ثم انبعث الصوت الأنثوي مرة أخرى:

- «ادخل بالعربية عشان حتمشي كتير»

وأنا كنت أتحدث بانبهار عن السور..

ها أنا ذا أقود السيارة وأنا أتأمل تلك الحديقة الواسعة التي تحيط بالممر الذي تسير فيه السيارة نحو القصر، كمّ الألوان التي أراها حولي تشعرني بهدوء لم أشعر به منذ فترة، وإن كنت أشعر بالحقد على (فريدة) تلك قبل حتى أن أراها وأنا أشاهد كل هذا التَّرَف الذي تعيش فيه، فأنا حتى لا أعرف اسم أيًّا من تلك الأزهار التي تبهر ألوانها عينيّ.. لا بد وأن عقلها مزدحم بحفظ أنواع الأزهار والأشجار المختلفة التي لا أكاد أميز أيًّا منها.. هؤلاء القوم يتعبون فعلًا!

وصلت أخيرًا إلى نهاية الممر ووجدت أن مقولة أن الثراء قد يجعلك تبدو جميلًا أيضًا ليست خاطئة تمامًا، فمن تقف أعلى درجات السلم القليلة التي تسبق مدخل القصر هي واحدة من أجمل النساء التي يتعدى عمرها الخمسين التي وقعت عليها عيناي منذ أن صرت مراهقًا حتى هذه اللحظة..

لا بد وأنها هي..

تقف عاقدة كفيها خلف ظهرها وتنظر نحوي وأنفها المنمنم مرتفع قليلًا لأعلى..

لـم تبدُ متصنعـة، لا بد وأن هذه نظرتها الطبيعية لمن حولها، فهـي تملـك من حطـام الدنيا الكثير حسـب ما تـراه عيناي.. لم أحبها من النظرة الأولى، أنا أمقت هؤلاء القوم المتعالين بشكلٍ عـام والأثرياء بالوراثة بشـكل خاص.. تولـد لأب أو أم أو أخ ثريٍ فتضمـن مسـتقبلك دون أن تحتاج أن تفكر فـي الـ **career path** ولا أن تصـاب بالإسـهال قبـل أول مقابلـة عمل.. لا بـل لا بد وأنها قـد قامت هي نفسـها بعمل مقابلـة عمل كي تختار مـن تعد لها القهـوة فـي هذا القصر المتواضع، ولن أسـتغرب أبدًا إن كانت قد اشترطت إجادة تلك الفتاة التي ستصنع لها القهوة لثلاث لغات على الأقل!

أوقفت السـيارة أمام السـلم، ولفـت انتباهي بالطبع السـيارة الرولـز رويس الفارهة التي أوقفت سـيارتي أمامها.. لسـت خبيرًا فـي السـيارات ولم أكن طـوال عمري ممن ينبهرون بالسـيارات الفخمـة، لكن لا يوجـد في العالم أجمع من لا يعـرف حرفَي الـ $\boldsymbol{R_R}$ الملتصقان والمميزان لشعار رولز رويس.. الحقيقة أنني لم أرَ مثيلًا لها من قبل.. لم أميز موديلها بالطبع -إن كانت تلك الأشياء تصدر بموديل- وإن أبهرني شـكلها الكلاسيكي الفخم الذي ينتمي بالطبع لعالم ما بداخل أسوار هذا القصر، لا أعتقد أن بيع سـيارتي موديل عام ٢٠٠٠ -مع أنها ألمانية الصنع- سـيكفل لي شراء إطار واحد من إطاراتها..

ترجلت من السيارة وصعدت درجات السلم وأنا أتأمل (فريدة).. بشرتها بيضاء مشربة باللون الوردي، بشرة نقية وناعمة وإن كانت تجاعيد رقبتها تشي بعمرها ، عينان بنيتان يعلوهما حاجبان رفيعان، لا بد وأنها قد أمضت وقتًا لا بأس به عند الكوافير كي يخرجهما بهذا الشكل شديد التناسق، فم وذقن رفيعان يشِيَان بقسوة غير هينة، وكانت تعقص شعرها الكستنائي خلف رأسها وتعقده في شكل كروي، مما أضاف لمظهرها رسمية غير محببة، أضف لهذا البدلة النسائية السوداء التي كانت ترتديها والمكونة من بنطال وچاكت يظهر تحته «توب» أبيض وحذاء أسود ذو كعب عالٍ، لا بد وأن ثمنه يفوق راتبي، يعلوه خلخالًا ذهبيًّا رقيقًا يحيط بقدمها اليمنى، لا تنسى النساء أبدًا ذلك الشيء، مراهقة كانت أم تستعد لنزول القبر، لا بد وأنه يمثل طقسًا ما عندهن لا أفهمه ولا أحبه.. كنت الآن أشعر أنني أنا الآخر أتيت ليتم عمل مقابلة شخصية لي ولست أنا من جاء ليسأل الأسئلة.. الملابس تصنع فارقًا، ولا أحد يخبرني غير ذلك..

اقتربت منها فاخترق أنفي على الفور عطرها وصعد إلى مخي، رسمت على وجهي ابتسامة ومددت يدي إليها لأصافحها، مدت هي يدها اليمنى إليَّ دون أن تبتسم، كانت مصافحتها قوية، على عكس يدها التي كان ملمس جلدها الناعم يجعلني لا أريد أن أتركها، لكنها سحبت يدها وعادت تشبكها مع الأخرى خلف ظهرها وسألت بصوتها الذي تعود أن يلقي أوامر على من حوله، وإن اختلف بعض الشيء عمَّا سمعته في الإنتركوم:

- «خير يا سيادة المقدم؟»

ظللت أنظر إليها ولم أتكلم، مطت هي زاوية فمها وقد فطنت لما يدور في بالي فاتجهت إلى باب القصر الشبه مغلق ودفعَته فتبعتُها إلى الداخل، أفسحت لي المجال لأعبُر ثم أغلقت الباب.. وقفت أتأمل داخل القصر الذي يبدو وأنه كلما توغلت فيه كلما ازددت انبهارًا، لكني لا أنكر أن ذوقها راقٍ فعلًا، في اختيار الموبيليا، وفي الإضاءة، وفي كل شيء.. اقتادتني في خطوات بطيئة نحو صالون أنيق يبعد عن الباب بحوالي عشرة أمتار، ثم جلست على أحد مقاعده الوثيرة فاتجت للمقعد الذي بجوارها فجلست، واضعة ساقًا فوق الأخرى وشبكت أصابع يديها وأسندتها على ركبتها وهي تنظر لي في نفاذ صبر.. وبرغم ملامحها الجامدة وهدوئها الذي تفضحه ساقها التي تهتز في عصبية، إلا أن زاوية فمها كانت ترتعد برعشة خفيفة وفي عينيها الخاليتين من المشاعر رأيت ذعرًا لا أعرف كيف رأيته.. فركت يديَّ ثم قلت وأنا أشعر أنني قد أحسنت التصرف تمامًا عندما قررت أن آتي إلى هنا بنفسي:

- «مدام (فريدة)، أنا حدخل في الموضوع على طول عشان ماضيعش وقت حضرتك اللي واضح إنه ضيق، إحنا عرفنا إنك سافرتي من خمس سنين لانجلترا لما أخوكي اتوفى، وبعدها بسنة رجعتي لوحدك مصر، بس من غير (أروى)، أنا عايز أعرف بنت أخوكي فين، وليه مارجعتش معاكي مصر»

ازداد ارتفاع أنفها لأعلى وقالت بلهجة حادة:

- «إنتوا عايزين منها إيه؟ (أروى) اتعالجت في انجلترا،

وأعتقد إن كفاية أوي إنها فقدت أبوها وأمها، ابعدوا عنها بقى»

ابتسمتُ في سخرية وقلت:

- «ما احنا بعاد عنها فعلًا، مش هي في انجلترا؟»

ظللنا نتبادل النظرات لما يقرب على الدقيقة، أعتقد أنها فهمت ما لم يفهمه (إبراهيم) من إصراري على معرفة مكان (أروى) ومكانها الحالي في إنجلترا..

هذا لأنني -ولسبب لا أدريه سوى أنه الحدس الذي نما معي من كثرة ما رأيت من قضايا- أشعر وأن (أروى) هذه لم تعد في إنجلترا..

بل هي هنا..

في مصر..

وفي الإسكندرية بالذات..

لم ترد، كان من الواضح أنها تمارس معي لعبة التظاهر بالغباء.. اختيار غير موفق أيتها التعسة، قلت بلهجة رسمية جافة:

- «إحنا بنحقق في قضية اتقتل فيها أربعة، ثلاث بنات في سن (أروى) وراجل، والبنات دول اتقتلوا بنفس الطريقة اللي (أروى) قتلِت بيها أمها، والراجل اللي اتقتل هو الدكتور النفسي اللي كان بيشرف على حالة (أروى) أيام القضية بتاعتها»

عاد الارتعاد في زاوية فمها إلى الظهور مرة أخرى، ولم تستطع هذه المرة أن تخفي نظرة الذعر في عينيها وإن احتفظت بتماسك يديها ووضع جلستها، تلك المرأة أقوى مما اعتقدت.. رفعت أنفها عاليًا مرة أخرى وأخذت نفسًا عميقًا ثم قالت بلهجة حادة وإن

بدت مهزوزة للغاية:

- «(أروى) مالهاش علاقة بأي حاجة من اللي حصلت، وازاي حيكون ليها علاقة وهي في انجلترا؟»

صِحتُ وقد بدأت أفقد أعصابي:

- «وهي فين (أروى)؟» وليه مش عارفين نوصل لأي معلومات عنها، كأنها مش موجودة؟»

ظهر الغضب على وجهها حتى شعرت للحظة أنها ستنفجر فيّ هي الأخرى، ثم جاء ردها بصوتٍ هادئ على عكس ما توقعت:

- «علاقتي بـ(أروى) اتقطعت من ساعة ما رجعت مصر، الدنيا هناك غير هنا، من حق البنت الصغيرة دي إنها تقرر عايزة تقعد معايا ولا لأ، وهي اختارت، وأنا احترمت الاختيار ده، فأكيد مش أنا الشخص اللي ممكن تعرف منه معلومات عنها»

ظللت أنظر لعينيها.. كان الذعر بادٍ تمامًا في عينيها، هناك شيء ما تخفيه تلك المرأة، لكني أعرف أنها لن تتحدث.. حسنًا، فلننهي هذه الجولة لصالحها، فقد حان الوقت أن أذهب.. نهضت واقفًا بالفعل وقلت لها وأنا أعقد أزرار الچاكت:

- «أنا متشكر يا مدام (فريدة)، وآسف على الإزعاج»

قامت واقفة وأومأت برأسها، لكنها لم تمد يدها، لم أهُمّ بمصافحتها واتجهت للباب..

نزلت درجات السلم وأنا أتجه لسيارتي والتفتُّ لألقي نظرة على السيارة الرولز-رويس مرة أخرى، فقد تكون هذه آخر مرة أرى فيها مثل تلك السيارة العجيبة التي ستجعلني أهتم بالسيارات

فيما بعد.. لفت انتباهي أن هناك سيارة أخرى صغيرة تقف خلفها.. لم أسمع صوت سيارات تقترب وأنا أجلس مع (فريدة) في الداخل، يبدو أنني لم ألمحها حين دخولي لأنها كانت تختفي خلف الرولز-رويس الضخمة، سيارة صغيرة كورية الصنع، لا تنتمي بكل تأكيد لعالم (فريدة) الفخم الذي تشعر أن كل شيء فيه تم شراءه بعملة أخرى غير التي نتعامل بها..

ظللت أتطلع لثوانٍ للسيارة الأخرى، ثم التفتُّ إلى (فريدة) التي كانت واقفة ترمقني بنفس النظرة الجامدة فاتجهت لسيارتي وتحركت بها على الفور، ولم يفُتني أن ألقي نظرة أخرى على (فريدة) التي كانت لا تزال واقفة تتابعني حتى غادرت البوابة..

❖ ❖ ❖

«وليد»

بالرغم من أنني لم أكن أحبها فعلًا وأعتقد تمامًا أنها كانت تمثل كل ما أكرهه لدى الفتيات، إلا أنني شعرت بحزن حقيقي وأنا أجلس في صالة بيتهم أنا وأصدقائنا في الجامعة وأرى عائلتها وصديقاتها وهم يرتدون السواد والحزن يغلفهم.. حاولت الاتصال بـ(أدهم) عدة مرات إلا أن هاتفه ظل مغلقًا، لا أعتقد أنه كان سيحب أن يرى مراسم عزائها، حتى بعد ما فعلته هي معه، ولا أن يرى (كريم) الذي كان يجلس بجانب أمها وفي عينيه حزن مصطنع للغاية.. قاومت شعورًا طاغيًا في أن أذهب من خلفه وأصفعه على مؤخرة رأسه، أعلم أن هذا سيريحني لمدة شهر كامل على الأقل، لكن أعتقد أن الوقت ليس مناسبًا الآن لذلك، لكني سأفعلها يومًا ما، هذا وعد..

في الجهة المقابلة من أم (مي) كان يجلس رجل يبدو في أواخر الأربعينات، لم أتعرفه في البداية ثم تبيَّنت أنه الضابط الذي استجوبني صبيحة مقتل (مايا) بصفتنا زملاء في نفس الرحلة اللعينة إلى القاهرة.. بالطبع لا بد وأن يكون هنا، حادثة قتل أخرى مثل ما سبقها لا بد وأن تجعل الشرطة يقيمون هنا في المنزل معهم، لهذا كانت أم (مي) تبدو غضبَى أكثر منها حزينة، يبدو أن (سيف) هذا كان يمطرها بالأسئلة، هو معدوم الإحساس تمامًا كي يأتي الآن ليستجوبها ولم يمر على مقتل ابنتها سوى يوم واحد، بل هي حتى لم تدفنها بعد ولا تزال -على

حـد قول إحدى زميلاتنا - في المشـرحة، توجسـت من الفكـرة وظللت أنظر إلى الأرض محاولًا تحاشي النظر إلى أيٍّ من أقاربها وأصـوات النحيب تنصب داخل أذنـيّ وتضغط على أعصابي، رنَّ جـرس الباب فـي تلك اللحظة فأخرجني إلى حدٍّ ما من هذا الجو النفسـي السـيء، وإن كنت أخشـى أن تكون واحدة أخرى من صديقاتهـا وقـد أتت بحنجرة طازجة لم يرهقهـا البكـاء والعويل بعـد، وقد قرَّرَت أن تُدلـي بدلوها هي الأخرى وتثبت أنها كانت أكثرهم حزنًا على فراقها..

اتجهـت أم (مـي) إلى البـاب، يبدو أن أباها لم يأتِ من سـفره بعـد، وحتـى لو كان قد أتـى فلن أميزه بين الجالسـين، فلم أرَه من قبل.. تبًّا للغربة، أعتقد أن لحظة كهذه كفيلة بجعلك تشعر أن كل تلـك الأعـوام التي قضيتها بعيدًا عـن عائلتك من أجل أن توفـر لهم معيشـة أفضل قد ذهبت هباءً، فها هـي ابنته قد ماتت ولم يحضر حتى ليأخذ عزاءها.. لا أريد أن أكون مكانه وأتلقى مكالمـة مثـل تلك بـأي حالٍ من الأحـوال.. تذكـرت والدي في هذه اللحظة، ولِمَ لا أتذكره وهو موجود في كل وقت؟ يكفي صـوت سلسـلة مفاتحة وهـو يهم بفتـح باب البيت كي تشـعرني بالأمـان.. وأنـا الذي كنـت أريده أن يبتعد قليـلًا، أن يكف عن إلقاء الأوامر، هو دائمًا هناك، وهذا ما يهم، سـأرحل من هنا ثم سـأذهب إليه فورًا وأقبِّل يديه، على الأقل أشعر أن لدي أب أعود إليه عندما تسوَد بي الدنيا برغم كل شيء..

فتحـت أم (مي) الباب فظهر على عتبتـه آخر مَن كنت أتوقع رؤيته في هذه اللحظة..

(أدهم)..

وخفق قلبي في عنف..

أنا أعلم تمامًا أن هذا اللقاء لن يمر على خير.. ما الذي أتى بك هنا الآن أيها المتخلف؟..

تبادل مع أم (مي) نظرة ثم لدهشتي صاحَت هي فجأة بهيستيريا شديدة:

- «إنتَ ليك عين تيجي هنا؟ ولا كويس إنك جيت، اقبض عليه يا (سيف) بك، أهو جه لغاية هنا برجليه، اللي قتل بنتي جه لغاية هنا برجليه»

(سيف) بك؟.. حتى وهي منهارة وتودع ابنتها لم تتناسى إدعاء أنها بورجوازية، نظرت لـ(أدهم) فوجدت وجهه قد احمر بشدة وقال بصوت مهزوز:

- «أنا جيت عشان أعزِّي في (مي)، أنا ماقتلتهاش، مش أنا اللي عملت كدا»

- «لأ انتَ اللي عملت كدا، مافيش غيرك اللي ممكن يعمل كدا، إنتَ ماقدرتش تستحمل إنها سابتك واختارتني أنا، إنتَ فعلًا مريض»

نقلت بصري بين (كريم) و(أدهم) الذي ازداد احمرار وجهه بشدة ولم يرد فقال (كريم) وهو يلتفت إلى (سيف):

- «اقبض عليه يا (سيف) باشا، واحد مريض زي ده ماينفعش يتساب وسط الناس كدا، مانعرفش ممكن يقتل مين تاني»

وكان هذا أقصى ما يمكنني تحمله..

لم أفكر كثيرًا، وجدت نفسي أندفع نحو (كريم) وأمسكه من ياقته ثم ألكمه بيدي في وجهه.. اشتعل الموقف كله فجأة وسمعت صرخات من خلفي، ثم وجدت من يرفعني من الخلف ويلقي بي بعيدًا عنه..

- «إنتم الاتنين لو مابطلتوش شغل العيال الهبلة اللي انتوا بتعملوه ده حقبض عليكم دلوقتي وححطكم في الحجز لغاية ما تكبروا كده وتعقلوا».

نظرت لـ(سيف) الذي كان شاهرًا مسدسه لأعلى ويبدو من ملامح وجهه المتقلصة وجحوظ عينيه أنه يعني فعلًا ما يقول.. اتجه هو نحو (أدهم) وأمسك به من ياقته ودفعه ناحية الحائط فارتطم رأسه به وصاح بغضب:

- «وانتَ بقى مش حتبطل تكون موجود دايمًا في المكان الغلط، زي ما تكون بتشوف احنا بندور فين وبتروح قبلنا عشان نلاقيك؟ إهدا شوية، أنا (ليلى) كلمتني وقالتلي إنك قلتلها إنك انتَ اللي قتلت (سارة)، بس أنا عرفت منها إنك كنت متعصب وقلت الكلام ده عشان تخوِّفها.. أنا عارف إن مش انت اللي قتلتها، بتعمل في نفسك كده ليه؟ بتجيب إشاعات على نفسك وتحط نفسك في دايرة الشك ليه؟ أقبض عليك انتَ كمان دلوقتي؟ أحطك في الحجز مع ناس يعلموك تتصرف ازاي؟ إنتَ ولا فاهم دنيا ولا فاهم في أي حاجة تانية، دكتور إيه بس، يلا امشي من قدامي دلوقتي، إمشي وخلينا نشوف شغلنا بقى، يلا»

بدا على (أدهم) كأنما على وشك أن يهوي مغشيًّا عليه، لكنه تحرك ببطء وغادر المكان.. أدرت عيني بين (سيف)

و(كريم) وأم (مي)، هؤلاء القوم لا يكادون يشعرون من الأساس وفقدوا آدميتهم منذ زمن، ألقيت عليهم نظرة كارهة ثم اندفعت خلف (أدهم)..

كان قد وصل إلى الشارع في تلك اللحظة فأسرعت حتى وصلت إليه ثم أمسكت به من ذراعه ليتوقف فأجفل والتفت إليَّ ثم أبعد ذراعه بحركة عنيفة واستمر في المشي، جذبته من ذراعه هذه المرة بعنف ليتوقف، فالتفَتَ إليَّ وفي عينيه نظرة غضبَى، لكني لن أتوقف، كان هناك سؤال يلحُّ في داخلي وأريد أن يجيب عليه الآن ثم ليذهب بعدها إلى الجحيم..

- «(أدهم)، انتَ قلت لـ(ليلى) إنك قتلت (سارة) زي ما (سيف) بيقول؟»

لم يرد.. الصمت الشديد حولنا ونظراته تلك جعلتني أفقد أعصابي أكثر فأكثر، جذبته من ذراعه بعنفٍ أكبر وصِحتُ مرة أخرى وأنا أشعر بعينيَّ على وشك الخروج من محجريهما:

- «رد عليَّا، انتَ قلتلها كدا؟ قتلتها فعلًا يا (أدهم) ولا قلتلها كدا عشان تخوفها زي ما (سيف) بيقول؟»

وكأنما صار الضغط بداخله أعظم كثيرًا مما تتحمله روحه، انفجر (أدهم) فجأة في البكاء، لا، ليس هذا صوت بكاء، بل صوت بخار يخرج من صمام أمان، ما كل هذا الألم؟.. شعرت بغصة تعتصر قلبي وأنا أعلم أنني ما كان يجب عليَّ أن أضغط عليه أنا الآخر وهو في هذه الحالة، مددت يدي ووضعتها على كتفه فأبعدها في عنف، نظر لي بعينين ملأتهما

الدموع والغضب والألم في مزيج غريب وقال بصوتٍ متهدج:

- «كنت عايزني أعمل إيه بعد ما شفتها مع (ياسمين)؟ إنتَ قلتلي، وخليت صاحبك يقولي، وكل الناس عارفة، بس أنا لازم أضحك على نفسي وأقنع نفسي باللي أنا شايفه بس، كان لازم أخوفها مني، على الأقل أحس إني مش ضعيف قوي كدا.. ماحدش حاسس باللي بيحصل معايا، عمر ما حد فهمني»

قالها وتكور على نفسه واستمر في البكاء وجسده يهتز بشدة، ثم وقع على ركبتيه على الأرض..

للحظة لم أعرف ماذا أفعل، ثم اقتربت منه وجلست على ركبتي أنا الآخر وأخذت أربت على كتفيه وأنا أشعر بالغصة داخل صدري تزداد وتعتصر قلبي أكثر فأكثر..

ماذا فعلت يا (أدهم) حتى تستحق كل هذا الألم؟..

ماذا فعلت؟..

❖ ❖ ❖

«سيف»

- «إيـه بقـى الأخبار الجديدة اللي كنت عايز تقابلني عشـان تبلغني بيها؟»

قلت وأنا أتفرس في ملامحه:

- «أخبـار كويسـة معاليـك، إحنـا لاقينـا نسـخة تانيـة مـن الشـرايط والسـيديهات اللي دكتور (حسـين) اللـي اتقتل كان بيسـجلها للمرضـى بتوعه، كان شـايل نسـخة فـي البيت عنده ومراتـه جابتهالنـا، دي خطـوة مهمـة أوي لأننا حنعـرف (ريهام) قالت له إيه بالضبط»

كنـت لا أزال أتفـرَّس فـي ملامحه.. لا شـيء، لا يوجد أدنى تغييـر، ثبـات انفعالي يحسـد عليه.. هذا الرجل يسـتحق منصبه بكل تأكيد.. قلت:

- «(حسين) كان بلغني إنها استخدمت اسم مستعار.. للأسف ماهتمتش وقتها إني أعرفه منه.. كان ممكن يسهل علينا واحنا بندور في الشـرايط بدل ما نضطر نسـمع الشرايط كلها عشان نوصل للشريط المطلوب»

ظـل يتطلـع إليَّ بنفس الوجه الجامد، شـخصيته الكاسـحة باديـة تمامًـا علـى وجهـه.. لا أعـرف إن كانـت زوجتـه وأولاده يتحملـون تلـك النظرة هم الآخريـن أم لا. لا بد وأنه لا يرفع صوته فـي البيـت أبـدًا.. يكفي تلـك النظرة لـلأولاد والمـدام ليقوموا

بواجباتهم الدراسية ولتعد هي الطعام أو لتصمت عن الحديث كي لا تصيبه بالصداع.. لا أحب أن يكون عمري عشر سنوات ثم أجد من ينظر لي هذه النظرة ليخبرني أن عليَّ أن أذاكر دروسي، لا أعرف إن كنت سأحب المدرسة بعدها أم سأهرب من البيت ولا أعود أبدًا، قال أخيرًا بصوتٍ أحادي النغمة أيضًا:

- «في حاجة تانية عايز تبلغني بيها؟»

هززت رأسي وقلت:

- «لأ معاليك، إحنا حنستنى الشرايط تطلع من الطب الشرعي وياخدوا البصمات من عليها وحنبتدي بعدها فورًا نفرز الشرايط»

شرد ببصره للحظة، ثم مط شفتيه وأومأ برأسه وهو يقول:

- «ماشي، ابقى بلغني بكل جديد»

قلت وأنا أقف:

- «أوامر معاليك»

ثم أديت التحية العسكرية له واتجهت في خطوات سريعة إلى الباب..

❖ ❖ ❖

فتحت باب مكتبي لأجد (إبراهيم) يندفع خلفي للداخل قبل أن يغلق الباب وفي يده عدة أوراق.. قال مباشرة دون أن يلقي عليَّ التحية وهو يتصفح الأوراق التي في يده:

- «أنا لو كنت قابلت واحدة زي (فريدة) دي قبل ما اتجوز كان زمان سيادتك لما رحت لاقتني قاعد هناك بروب-دي-شامبر»

قلت وأنا أتجه لمكتبي:

- «وهي حتبص لواحد زيك ليه يا (ابراهيم)؟»

لم يبدُ عليه أنه سمع جملتي الساخرة؛ لأنه قال على الفور:

- «أنا دخلت على حساباتها على فيسبوك وانستجرام.. الست دي مابترحش البحر؟ ما بتلبسش جينز؟ ما بتنزلش تتمشى؟ كل صورها ببدل كلاسيك، شعرها لماه ورا راسها، مابتلبسش شبشب حتى، أنا حاسس إنها بتنام بالبدلة»

قالها وهو يمد يده إليَّ ببعض الصور التي يبدو أنه طبعها مباشرة من حساباتها على مواقع التواصل.. هي بالفعل تظهر في الصور بنفس موديل البدلة التي رأيتها ترتديها لكن باختلاف الألوان التي لم تتعدَ الكحلي والرمادي والأسود.. تظهر في الصور وحيدة، بابتسامة رسمية.. توقفت عند صورة ترتدي فيها نفس البدلة لكن باللون الأبيض وتبدو من خلفها سيارتها الفارهة..

- «حتى عربيتها، رولز-رولس فانتوم يا (سيف) بك، أنا عارف إن سيادتك ما بتحبش العربيات، بس العربية دي حاجة صعبة قوي»

(إبراهيم) معه حق، هي حقًّا سيارة تختلف، ظللت أتأمل الصورة الوحيدة التي تظهر فيها (فريدة) بالأبيض، جميلة عندما تترك الألوان القاتمة، حتى في هذا السن، صورة بجانب شلالات الفيوم، يبدو أنها كانت في رحلة ما على غير عادتها في الصور الأخرى التي تكون فيها غالبًا داخل قصرها.. قلبت الصورة التي

تليها ثم تذكرت أنني رأيت شيئًا ما فعُدت إلى صورتها بالأبيض..

الصورة بعيدة نوعًا ما ، لذا كانت سيارتها الفارهة تظهر بالكامل.. ليس هذا ما لفت نظري، ما جذب انتباهي أن هناك سيارة تقف خلف سيارتها تمامًا ، كان من الممكن أن يكون هذا عاديًا لولا أنها نفس السيارة الصغيرة التي رأيتها في الڤيلا تقف خلف سيارتها ولم ألحظها في البداية.. نفس الموديل، نفس اللون، قربت الصورة من وجهي وأنا أتمعن فيها.. أرقام السيارة تظهر نصفها فقط، ثلاث حروف ثم تختفي الأرقام، حاولت تذكر الأرقام التي كانت على السيارة يوم رأيتها في قصر (فريدة) لكن هيهات، شرود ذهني في هذه الفترة سيودي بعملي في المباحث لا ريب..

- «في حاجة يا باشا؟»

التفتُّ إلى (إبراهيم) وأنا أفكر في تلك السيارة.. قد تكون لإحدى صديقاتها ، لكن مَن هم مثل (فريدة) لن تربطها صداقة إلا بمن في نفس مستواها الاجتماعي.. فلمن إذَن تلك السيارة؟.. عامةً لن نخسر شيء بالبحث عنها قلت لـ(إبراهيم) الذي كان ينتظر إجابتي المتأخرة كعادته وأنا أشير للصورة التي في يدي:

- «شايف البيكانتو الرصاصي دي يا (إبراهيم)؟ النمَر بتاعتها باين نصها بس، الحروف، عايزك تشوف مع المرور كل البيكانتو اللي باللون ده وبيبتدوا بنفس الحروف دي وشوف مين في الليستة اللي طلَّعِتها له علاقة بـ(فريدة)»

ظل ينظر لي وعلامات عدم الفهم متجلية على وجهه فقلت:

- «العربيــة دي أنا شـفتها في ڤيـلا (فريدة) لمـا رحتلها ، بس للأسف ماجاش في بالي آخد النمر بتاعتها»

ظل ينظر لي بنفس النظرة ثم قال:

- «طيب وسيادتك شاكك ليه في العربية دي؟ حنكسب إيه لما نعرف هي بتاعة مين؟»

لـم أُرد أن أشـركه معـي الآن فيمـا أفكر فيه ، لـذا قلت له بعصبية :

- «إعمل اللي قلتلك عليه يا (ابراهيم) وحفهمك بعدين»

بدا الضيق على وجهه ومط شفتيه ثم قال بحدة حاولَ إخفاءها :

- «أوامر سيادتك»

ثم اتجه إلى الباب في خطواتٍ سريعة..

ليس هذا هو الوقت المناسـب يا (إبراهيم)، سـأخبرك بكل شـيء لكن في وقتـه ، فما أفكر بـه الآن ليس شـيئًا يمكنني شرحه لك..

إنه الجنون..

الجنون بعينه..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

كنت أسير وأنا أشعر أن حياتي ليست سوى سراب، فقط سراب.. أردت أن أبكي كما بكيت ليلة أمس بعد زيارتي لبيت (مي) لكن يبدو أن حتى ذلك المتنفس لم يعد ممكنًا.. (سارة)، (مي)، (ليلى)، حتى (ياسمين)، من المؤسف أنه لا يوجد من بينهم علاقة واحدة يمكنني أن أطلق عليها حب، هي لم تكن سوى ارتباط عاطفي، حتى (سارة) و(مي)، ما شعرته نحوهما هو انتحال للعاطفة، ملئ للفراغ العاطفي الذي أشعر به، ليس إلا، والعجيب أنني لم يكن يمكنني أن أصارح نفسي بكل هذا.. (سارة) قُتِلت، (مايا)، (مي)، وأنا حتى لا أعرف إن كنت قد قتلتهم أم لا..

ما قالته (ليلى) وما قاله (كريم) صحيح، أنا فعلًا مريض نفسي وأستحق كل ما يحدث لي..

وصلت للبيت، لم أضرب الجرس، لا أريد أن أراها، أخرجت سلسلة مفاتيحي بيدٍ مرتجفة أسيطر عليها بصعوبة، ثم فتحت الباب لأجد أنوار البيت كله تقريبًا مضاءة.. كانت هناك أصوات نسائية قادمة من حجرة المعيشة التي لا نكاد نجلس فيها تقريبًا أنا وهي بعد وفاته.. هل هي إحدى صديقاتها؟ لم أعرف لها صديقة منذ فترة طويلة ولم تزرنا إحداهن -إن كانت هناك واحدة من الأساس- منذ زمن.. كدت أتجه لغرفتي ثم

فكـرت في أن ألقي نظرة فقـط لأعرف مَن معها ثم أتجه بعدها إلـى غرفتـي، وبالفعل اقتربت من الحجرة كي أسـتطيع أن أرى مـن هنـاك من زاويـة لا تمكِّنهم من رؤيتي، بـدأت أميز الصوت شـيئًا فشـيئًا حتى لاحَ وجه الجالسـة مع أمي وهمـا تتحدثان عن شيء لا بد وأنه شيق لأنهما كانتا تضحكان في مرح..

ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟..

عدلـت عن فكرة الذهاب إلى غرفتـي ودخلت على الفور من باب حجرة المعيشة لأقف أمامهما..

توقفـت ضيفتها عن الـكلام ونظرَت إليَّ بابتسـامة فالتفتت أمي إليَّ وابتسـمت ابتسـامة لم أرها على وجههـا منذ فترة طويلة وقالت:

- «(كارما) مسـتنياك بقالها سـاعة، قعدنا نتكلم مع بعض وماحسـيناش بالوقـت، مش تقولـي إن زميلتك فـي الكلية قمر كدا؟»

بـدا على (كارمـا) الإحراج ونظـرَت للجهة الأخـرى ثم قالت بصوتٍ خافت:

- «ميرسي يا طنط، ده من ذوقك بس»

طنط؟.. أنا أرى خِطبة ودبلتين وزغاريد تنسـج أمامي الآن بين هاتيـن الأنثييـن.. هـن لا يعرفن أي شـيء.. لماذا لا تفهمـان أنني مريض نفسي، ليست لديَّ القدرة ولا الرغبة في الارتباط والحب والعيـش كشـخص طبيعـي؟.. شـعرت بالـدم يصعد إلى رأسـي ورمقـت أمـي بنظرة يبـدو أنها أرعبتهـا لأن وجهها تغيـر وابتعلت

ريقها وقالت وهي تقف وتتجه لخارج الحجرة:

- إحنا شربنا شاي أنا و(كارما)، حعملكوا شاي تاني بقى انتَ وهيَّا»

ثم غادرَت فالتفتُّ لـ(كارما) التي كانت تنظر لي بوجنتين حمراوين، لم أقل أي شيء، ظللت أنظر لها وأنا أتساءل ما الذي تفعله هي هنا الآن..

- «إزيك يا (أدهم)»

قلت لها على الفور:

- «إيه اللي جابك هنا يا (كارما)؟»

اختفت الابتسامة من على وجهها وفركت يديها ثم عدلت شعرها وهي تنظر إلى الأرض ثم التفتت لي وقالت:

- «إنتَ اختفيت فجأة يا (أدهم)، مابتردش على تليفونك، ومابتجيش حتى الكلية، مابشوفكش خالص، مواعيدك غير مواعيدي، معرفش انتَ بتروح أصلًا ولا لأ، سألت عليك (وليد) ماقاليش حاجة مفيدة»

ثم نظرَت إلى النافذة وعدلت شعرها مرة أخرى وقالت بصوتٍ خافت:

- «أنا كنت طايرة من الفرحة لما خرجنا أنا وانتَ وعزفتلي على البيانو، كنت حاسة إن كل الناس اللي حوالينا مش موجودين وإن انتَ بتعزفلي أنا بس، وطرت أكتر من الفرحة لما قلتلي آجي معاك البروڤة مع (ياسمين)، كنت حاسة إني ابتديت أشاركك كل حاجة في حياتك، الكلية والبيانو، ويوم

مـا طلعنا مـع بعض الرحلة وقعـدت جنبي، أنا قلـت مش حنبطل كلام، وحفضـل أحكيلـك، عنـي، وعـن كل حاجـة بحبها، وحسـمعك، بس انتَ سـبتني ورحت لـ(ليلـى) وصاحبتها (مايا)، و(ياسـمين).. إنـتَ ماتعرفـش أنا كنت حاسـة بإيـه وقتها، مش عارف مشـاعري كانـت عاملـة ازاي وأنا شـايفاك بتعمل كده وانتَ مش شايفني أساسًا.. إنتَ بتعمل معايا كده ليه يا (أدهم)؟ ممكن أعرف؟ ممكن تفَهِّمني؟»

لم أسـتطع الرد.. كنت أشـعر كأنما قد فقـدت القدرة على النطق، ما أسمعه الآن يشعرني أي أحمق كُنته.. لقد فعلتُ معها بالضبـط ما فعلَتـه معي (ليلـى).. حزنت وغضبت ممـا فعلَته هي معـي، فقط لأفعـل المثل مع أخرى أعلم أنهـا تُكن إليَّ الكثير من المشـاعر.. الواقع أنني تناسـيت أنها هناك من الأساس.. كل ما فكرت فيه هو نفسي، نفسي فقط..

ثم ألوم على أخرى عندما تفعل معي المثل..

قامـت هـي واقفـة واقتربت مني ثـم نظرت في عيني مباشـرة وقالت بصوتٍ متهدج:

- «(أدهـم) أنـا بحبك، بحبـك أكتر ما حبيـت أي حد أو أي حاجـة تانية فـي حياتي.. أنا ماكنتش متخيلـة إني حقولك كدا فـي الوقت ده، وانتَ بتعمل فيَّا كدا.. وانتَ بتحسسـنـي إني مش موجودة، في الوقت اللي أنا حاسة إن وجودي معناه وجودك جنبي وإن الحياة من غيرك مالهاش معنى»

أشـحتُ بوجهـي وأنـا أتجنـب النظر إلـى وجهها فمـدت يدها

وأدارت وجهي ناحيتها ثم نظرت في عيني مباشرة بعينيها الممتلئتين بالدموع وقالت بصوتٍ خافت:

- «(أدهم)، انتَ بتحبني؟ مش لازم تكون بتحبني زي ما أنا بحبك، عمرك ما حتكون بتحبني زي ما أنا بحبك، بس على الأقل انتَ بتحبني؟»

شعرت بقلبي ينبض بعنف، ليس بفعل الحب، لكن بفعل الشفقة.. هي تحب مَن كان يحب فتاة، ثم فتاة أخرى ثم أخرى، ثم اكتشف فجأة أنه لم يحب أي واحدة منهن وليس متأكدًا من الأساس إن كُنَّ قد أحببنه فعلًا أم لا.. ثم هما قد قُتِلا وهو لا يعرف حتى إن كان هو مَن قتلهما أم لا.. أمسكت بيدها برفق فلان وجهها قليلًا ثم أبعدتها عن وجهي وتركتها فتحولت النظرة في عينيها إلى الأسى، قررت أن أخبرها بكل شيء، على الأقل كي تعرف سبب عدم قبولي لعلاقتنا التي لم تبدأ من الأساس مع أنه من الواضح أنها بدأت لديها منذ زمن.. قلت:

- «(كارما)، دي أجمل حاجة اتقالتلي من ساعة ما اتولدت تقريبًا، إنتِ جميلة ورقيقة، بس أنا ماينفعش حد يحبني»

كانت عيناها متسعتان بشدة وهي تسمعني وقد انفرجت شفتاها قليلًا، هذا ما يمكن أن نسميه أنها تسمعني بكل جوارحها.. لماذا لم يكن أبي يسمعني مثلما تفعل هي الآن؟.. لماذا لم تكوني أنتِ من البداية يا (كارما)؟.. قلت:

- «أنا مش شخص سوي زي ما انتِ متخيلة، (كارما) أنا مريض نفسي، أنا عندي حاجة غلط من ساعة ما كنت صغير،

ولغايـة دلوقتي مش عارف أتعالج منهـا ، وماحاولتش أتعالج منها من الأسـاس»

خفضت رأسها قليلًا وهي لا تزال تنظر في عيني ثم قالت:

- «ممكن تقولي إيه هي الحاجة اللي عندك دي؟»

لم أسـتطع الاسـتمرار في النظر في عينيها فأشـحت بوجهي للجهة الأخرى وأخذت نفسًـا عميقًا لأهدأ بعض الشـيء، ثم قلت دون أن ألتفت إليها :

- «وأنا صغير كان عندي قُط، في يوم لقيته مابيتحركش، ولسـانه طالـع لبره، ماكنتش فاهم هو إيـه اللي حصله وفضلت أهز فيه عشـان أصحيه، فجأة أبويا دخـل عليًّا وقالي إن أنا اللي قتلتـه، فضلت أقوله إنـي ما عملتش حاجة بـس هو ماصدقنيش وحبسني، يومها فُقت فجأة لقيتني في أوضة تانية غير اللي كان حابسـني فيهـا ومامـا جنبي، وفضلـت بعدها بفوق فجـأة ألاقي نفسـي في مكان تاني غير اللي كنت فيه وأنا معرفش إيه اللي حصل»

ابتلعتُ ريقي وأنا أتذكر ما حدث يومها كأنه حدث البارحة، ثـم التفـتُّ إليها فوجـدت عينيها قد ازدادت اتسـاعًا وظهر فيهما الرعب، ضايقتني نظراتها فأشحت بوجهي مرة أخرى ثم قلت:

- «يـوم مـا (سـارة) اتقتلت أنا كنـت في البيـت، في أوضتي بقـرا ، فجأة صحيـت لقيت النهـار طلع ولقيت الكتـاب جنبي، عرفت بعدها إن (سـارة) اتقتلت، ما شـكتش في حاجة يومها، مـع إنـي مش عارف نمـت ازاي، بس يـوم (مايا) مـا اتقتلت، يوم

الرحلـة، أنا ما رجعتـش البيت، ركنت العربية في شـارع قريب مـن مـكان ما نزلنـا من الأوتوبيس، كنت عايز أتمشـى شـوية عشـان كنت متضايـق، فجأة صحيت لقيت نفسـي على الأرض جنـب العربية، معرفش اللـي حصل، معرفش أي حاجة، وكنت متبهـدل، أخدت العربية وروحت عالبيت وعرفت بعدها إن (مايا) اتقتلـت، وفـي يـوم مـا (مـي) اتقتلت أنا كنـت في الاسـتوديو، وصلـت هناك ومشـيت بعدها على طول وأنـا متعصب وغضبان، وفجأة فقت بعدها لقيت نفسي في العربية.. كل اللي أنا فاكره إني طلعت من باب الاسـتوديو وكنت بعدي الشـارع معرفش اللي حصـل، معرفش وصلـت العربية ولا دخلت جواها ازاي، معرفش أي حاجة»

التفتُّ إليها مرة أخرى فوجدت أن نظرة الترقب قد حلَّ محلها نظرة أخرى لم أتوقع وجودها مطلقًا وأنا أخبرها بشيءٍ مثل هذا..

وجـدت في عينيها حنان.. حنان خام، كأنما قد وجدت لتوِّي منبعه في الكون.. لكم تمنيت أن تملك أمي نصف هذا الحنان.. نصفه فقط..

ابتلعـتُ ريقـي وقلـت بصـوتٍ متهـدج ما أظـن أنها اسـتنتجته لكني أريد أن أخبرها إياه بالحرف حتى لا تتصنع فيما بعد أنها لم تكن تفهم:

- «أنـا لغاية دلوقتـي معرفش إذا كنت قتلت (سـارة) و(مايا) و(مي) ولا لأ»

ومـا أنهيت الجملة حتى سـمعنا صوت تهشـم زجاج، صرخت

(كارما) والتصقت بي.. انتفضت وأنا ألتفت إلى مصدر الصوت فوجدت أمي وقد أوقعت صينية الشاي على الأرض ووقفَت واضعة يدها على فمها وفي عينيها ظهر الرعب متجلٍّ كأوضح ما يكون.. يبدو أنها سمعت آخر جملة قلتها.. ظللنا ننظر لبعضنا البعض ثم قالت هي بصوتٍ مرتجف:

- «آآآآ أنا آسفة، أنا حجيب جاروف ألم الحاجات اللي اتكسرت وحعملكم شاي تاني»

قالتها واندفعت نحو المطبخ، هممتُ بالذهاب وراءها لكن (كارما) جذبتني من يدي فالتفتُّ إليها، نظرَت لي بنفس الحنان وقالت هامسة كأن كل ما يحدث لا يعنيها:

- «(أدهم)، اللي بيحصل ده انتَ مالكش ذنب فيه، دي حاجة بسبب أبوك وحتروح لدكتور نفسي وحتتعالج، أنا واثقة من كدا، زي ما أنا واثقة إنك مش إنتَ اللي قتلت، إنتَ لا يمكن تقتل يا (أدهم)»

قلت على الفور وأنا أشعر بارتباكٍ شديد وعدم القدرة على التفكير:

- « أنا بقولك مش متأكد إذا كنت عملت كدا ولا لأ، اللي بيحـ...»

وضعت أناملها على فمي لأصمت ثم قالت برقة والحب يقطر من عينيها:

- «ششش، إنتَ مش متأكد، بس أنا متأكدة، إنتَ ماقتلتش حد يا (أدهم)، وحتى لو قتلت، مش مهم برضو، المهم نكون

مع بعض، هو ده بس المهم، مش أي حاجة تانية»

كان كفها لا يزال يحتضن يدي فسحبت يدي من يدها فنظرَت لي في لوم، أنا لا أصدق ما يحدث الآن، أحدثها عن أنني من الممكن أنً أكون قد قتلت ثلاث فتيات، فتخبرني أن هذا لا يهم وأنها تحبني وأن ما يهم هو أن نكون سويًا.. شعرت أن كل هذ خطأ، قلت لها بصوتٍ خرج رغمًا عني متحشرجًا:

- «مش حينفع يا (كارما)»

قطبت حاجبيها ونظرت لي في عدم فهم فقلت:

- «أنا مش عايز أعمل معاكي زي ما كل اللي عرفتهم عملوا معايا، صحيح في الأول مشيت ورا كلام (وليد) وقلت مش لازم يكون في مسمى للعلاقة، بس لأ، لازم يكون في مسمى، ماينفعش نبقى عايشين كدا، كل واحد فينا شايف التاني بشكل، لو مش متفقين إننا صحاب أو إننا بنحب بعض أو.. أو.. يبقى مالهاش لازمة العلاقة من الأساس.. (كارما) أنا مش بحبك، مش حاسس ناحيتك بأي حاجة، ومش عايز أظلمك معايا، مش عايز أجرحك»

كانت تسمعني وملامح وجهها تتغير من الصدمة إلى الاستنكار إلى الغضب.. صاحت على الفور بعد أن انتهيتُ والدموع تملأ عينيها وتسيل على خدها:

- «تجرحني؟ إنتَ قتلتني ماجرحتنيش، إنتَ دمرت حياتي»

نظرت لها وأنا لا أفهم.. أنا بالفعل لم أخبرها بغير الحقيقة ولم أفعل ما يوحي بعكس هذا.. أنا لم أخدعها، قلت:

- «أفتكر إن أنا عمري ما قُلتلك إني بحبك، عمري ما بينتلك ده، ليه بتقولي يا (كارما) إني دمرت حياتك؟ أنا فاهم مشاعرك بس أنا...»

انفجرت فيَّ مقاطعة:

- «اسكت يا (أدهم)، كفاية.. إنتَ مش فاهم أي حاجة، ماتعرفش يعني إيه تحب حد الحب ده وبعدين فجأة متلاقيهوش.. (أدهم) إنتَ ماتعرفش أي حاجة عني، مش فاهم انتَ كدا بتعمل فيَّا إيه.. أنا مش ببالغ لما بقولك إنك بتدمرني باللي انتَ بتقوله ده، ممكن تسكت؟»

قلت محاولًا تهدئتها:

- «(كارما)، أنا أكيد مش قصدي إني أ...»

- «اسكت!»

كانت صرختها عالية للغاية، حتى أنني أغلقت عيني بشكل لا إرادي، وعندما فتحتها وجدت على وجهها نظرة لم أرها من قبل..

عجيب هو حجم ما يمكن أن تحمله العينان من مشاعر..

كانت عينيها متسعتين بشدة، حاجبيها مرتفعان، وزاوية فمها ترتعش.. أدرت عينيَّ إلى قبضتيها المضمومتان بشدة حتى أن مفاصلهما قد ابيضت من شدة الضغط.. لم تُثر فتاة خوفي من قبل، لكن (كارما) قد فعلت الآن لتوِّها.. فتحت فمي لأقول أي شيء لكن الكلمات احتبست في حلقي.. اقتربَت منِّي خطوة أخرى ثم قالت بصوتٍ أقرب للفحيح:

- «ماينفعـش تدمر حياة حد وتبقى مسـتني إنه حيتفرج عليك وانتَ بتعمل كدا، لأ، ده حيدمر حياتك وحياة كل اللي حواليك كمان، كلهم»

أيُّ حُمقٍ هذا؟ ماذا فعلت أنا لهذه المتخلفة؟ هذه الفتاة مختلَّة فعـلًا.. كيف لم ألحظ هذا من قبل؟.. ابتلعتُ ريقي وقلت لها وأنا أرفع كفيَّ المفرودتين أمام صدري:

- «(كارما)، إهدي»

أكملَت هي في هيسـتيريا تتصاعد مع كل ثانية تمر كأنها لم تسمعني:

- «انتوا مابتحسوش؟ مابتعرفوش اللي بيحب ده بيبقى حاسس بإيـه، ما بتفهمـوش ده؟ (أدهم) إنـتَ زيك زيـه بالظبط، مافيش فرق ما بينكوا، كلكم كده»

قطبـت حاجبي وأنا أشـعر بضربـات قلبي تزداد.. أنـا فعلًا لا أعرف تلك الفتاة التي تقف أمامي الآن.. (كارما) الرقيقة التي لا تكاد تسمع صوتها.. عمَّن تتحدث هذه المجنونة؟ قلت:

- «إنتِ بتتكلمي عن مين؟»

ظلَّـت تنظر لي بكُرهٍ لم أرَه فـي عينيها من قبل ثم فجأة تفتق وجههـا عـن ابتسـامة سـاخرة، وأدارت عينيها فـي الحجرة حتى اسـتقرت على المنضدة العالية المجـاورة للحائط تحت النافذة، اقتربَت منها في خطواتٍ بطيئة، ثم أمسكَت بالفازة التي تعلوها وتأملَتها عن قرب.. تحفزتُ من تصرفها هذا الذي لا أفهمه، ظلَّت تتأمل هي الفازة في يدها ثم قالت دون أن تنظر إليّ:

- «عارف يا (أدهم)؟.. أنا حياتي عاملة زي الفازة دي بالضبط، تبان من برة جميلة، ومتماسكة، بس في الحقيقة، هي هشة، وفاضية من جوا، وممكن تتكسر من أقل حاجة، بس المشكلة إنها لو اتكسرت مابترجعش تاني زي الأول، مابترجعش أصلًا»

قالتها ثم أفلتت الفازة من يدها فوقعت على الأرض وتهشمت بِدويٍّ شديد وتناثرت قطعها عبر مسافة كبيرة، تأملت القطع المتناثرة على الأرض ثم رفعت عينيَّ إليها وصِحتُ في غضب:

- «إنتِ مجنونة!»

ظلت الابتسامة الساخرة الممزوجة بالمَقت على وجهها وهي تنظر إليّ، ثم اندفعَت نحو الباب في خطواتٍ سريعة، تابعتها بعينيَّ وأنا أشعر أنني قد فقدت القدرة على الحركة، ثم سمعت صوت باب الشقة وهو يغلق في عنف..

- «في إيه يا (أدهم)؟ (كارما) مشت ليه؟»

لم أرد بالطبع، نظرتُ لأمي وأنا أشعر بالبرودة في جسدي كله..

وكنت أرتجف..

من تلك الفتاة التي رحلت للتو؟..

مَن هي؟..

❖ ❖ ❖

«إبراهيم»

طرقـت البـاب هذه المرة وانتظرت حتى أتى صوته من الداخل فدفعت البـاب وقلت أول ما رأيته:

- «أنا آسف يا باشا، إنتَ طلعت معلم واللّٰه»

نظر لي بنفس نظرته الزجاجية ثم قال بهدوء:

- «طول عمري يا ابني، إيه الجديد؟»

ابتسـمتُ واقتربت من مكتبه ثم جلست على أحد الكراسي أمـام المكتـب، فوضعت الملف الذي في يـدي أمامه وقلت وأنا أعدِّل من ياقة قميصي:

- «أنا دوَّرت على كل البيكانتو الرمادي اللي بتبتدي بالأرقام دي، لقيت حوالي ألف عربية، فضلت وراهم لغاية ما جبت الألف اسـم بتوع مُلَّاك العربيات، ماكانش في ولا اسم له علاقة بعيلة (إدريـس) دي خالـص، قلت أدعبس شـوية ورا (فريدة)، لغاية ما لقيت الاسم ده»

قلتهـا وأنـا أفتـح الملف على صفحـة بعينيها وأشـير إلى جزء فيها.. نظر للاسم المكتوب أمام إصبعي ثم رفع عينيه إليَّ وقال:

- «ده جوز (فريدة)؟»

أومأت برأسي ثم قلت:

- «(أحمـد مختار)، كـان مهندس شـغال في شـركة، أهله

عاديين جدًّا، مش عارف أهل (فريدة) بالثراء الفاحش ده وافقوا إنها تتجوزه ازاي»

رفع عينيه إليَّ وبدا عليه أنه يتساءل عن علاقة ما أقوله برقم السيارة.. أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- «(أحمد مختار) و(فريدة إدريس) اتجوزوا من حوالي ١٥ سنة، بعدها بحوالي سنتين مات في حادثة عربية وهو راجع من القاهرة، ماكانوش خلفوا وهي ماتجوزتش حد بعديه، المهم إن موضوع بنت (سعد الدين) ده حصل و(فريدة) سافرت لهم وبعديها بسنة رجعت زي ما سيادتك عارف، بس الجديد بقى إني لقيت إن في عربية في الألف عربية متسجلة بالاسم ده»

قلتها وتصفحت أوراق الملف حتى وصلت لورقة عليها شعار الإدارة العامة للمرور وأشرت للاسم وقلت:

- «سيادتك متخيل إن الاسم ده عدى علينا خلال التحقيقات وعمرنا ما فكرنا ندور ورا معلومة واحدة عنه؟.. فضلنا نراقب كل اللي كانوا في الرحلة زي ما سيادتك أمرت وكانت هي من الناس اللي ماشكيناش فيها خالص، بتروح الكلية بعربيتها اللي ما اتذكرش رقمها أو موديلها في التقرير، وترجع بيتها اللي زي ما متكوب في بطاقتها.. أنا مانكرش إن ده فيه تقصير كبير من ناحيتنا، الرجالة بتوعنا كانوا بينفذوا اللي طلبناه منهم حرفيًّا من غير ما يجوِّدوا، ماحدش فيهم ذكر أي حاجة غير إن خط سيرها وتحركاتها ما تثيرش أي ريبة وإنها بنت عادية جدًّا، لدرجة إني طلبت منهم بعد كذا يوم إنهم يوقفوا مراقبتهم ليها ويركزوا مع (أدهم) و(ليلى) و(ياسمين)، لأنهم

أكتر ناس ممكن يتشك فيهم»

قال على الفور:

- «فالح»

شعرت بالحرج وقلت:

- «عارف سيادتك، أنا لما لقيت البنت دي اسمها كدا، جاتلي فكرة مجنونة أنا كمان وطلبت من الجوازات إنهم يدوروا بالاسم ده على أي تحركات حصلت لداخل أو خارج مصر، وكانت هي دي بقى المفاجأة»

وتصفحت في الأوراق مرة أخرى حتى وصلت إلى صفحة بعينها ثم أبعدت يدي وقلت:

- «البنت دي ما خرجتش برا مصر قبل كدا، بس دخلت مصر على نفس الطيارة اللي كانت راجعة عليها (فريدة) من انجلترا بعد ما سافرت هناك لما (سعد الدين) مات»

تأمل الورقة التي أمامه ثم رفع عينيه إليَّ دون أن يتكلم، قلت وقد أغاظني انعدام الحماس الذي يعتريه برغم ما كشفته له لتوِّي:

- «وده معناه إن البنت دي ممكن تكون هي (أروى سعد الدين إدريس)»

ولأول مرة منذ فترة طويلة جدًّا هي عمر عملي معه أرى تلك النظرة في عينيّ (سيف)..

ذلك الرجل الذي ظننت أن لا شيء يثير انفعالاته..

نظرة انتصار..

تأملتـه وقد عرفت لمـاذا تكونت تلك النظرة فـي عينيه، ثم ابتسمت وقلت:

- «سيادتك كنت عارف، مش كده؟»

ابتسـم دون أن يـرد، فاتسـعت ابتسـامتي.. أنا فعـلًا لم أعطه حقـه مـن التقدير من قبل، وإن كنت أريد أن أعرف حالًا كيف استنتج كل هذا.. ظل مبتسمًا دون أن يتحدث فسألته لأنني فعلًا أريد أن أعرف:

- «سيادتك عرفت ازاي»

ظل ينظر لي بنفس الطريقة، ثم شرد بذهنه بعيدًا وقال:

- «أول مـا شـفت العربية عند (فريدة) جه فـي بالي الأول إنها مالهـاش علاقة بالعالم بتاعهـا، كل حاجة فخمة وغالية ما عدا العربيـة دي، وقلـت ممكن تكـون بتاعة الشـغالة مثلًا، معلش يـا (ابراهيـم)، أنا عـارف إن المدام عندها عربيـة زيها، بس لما انـتَ وريتنـي الصـور بعدها جـه في بالـي فكرة غريبـة.. لو انتَ عايـز تخبـي حـد من عيلتـك، حتخليه يعيـش نفس العيشـة اللي انتَ عايشـها، ولا حتخليه عايش في مسـتوى متوسط، مايثيرش فضول حـد، مافيش عربيات آخر موديـل، مافيش فلوس أكتر مـن اللزوم، (فريـدة) لما حتخرج مش حتخرج مع الشـغالة أو مع حد مش من نفس مسـتواها، وبالتالي أكيد اللي معاها بعربيتها دي واحدة حتخرج معاها، وحترجع المكان اللي هي عايشة فيه دلوقتـي من غير مـا (فريدة) توصلها عشـان ما تبقـاش بتوصلها برولز-رويس.. Keeping low profile يا (ابراهيم)، الحل الوحيد

عشــان (أروى) بنت (ســعد الدين) تكون موجـودة في مصر إنها تكون عايشة في مستوى مش مستواها، وأكيد مش بإسمها»

راقنــي تفكيره المنطقي الذي لا يتماشــى إطلاقًا مع شــرود ذهنــه شــبه الدائم.. لكن لا يزال هناك شــيء مــا غير منطقي لا يستسيغه عقلي.. قلت:

- «بــس في حاجة ناقصة، هو إيه اللي يخليهم يعملوا كل ده؟ إيه اللي يخليهم يغيروا اســمها ويدوها اســم مســتعار؟ ومعنى إنها طلعت رخصة وعملت بطاقة ودخلت مدرسة وبعدين كلية معناها إن الاسم ده بقى رسمي.. إزاي؟»

فتح درج مكتبه وهو يقول:

- «إزاي دي ما تسألش عليها، إنتَ ضابط وعارف إن في مصر كل حاجة بتمشــي بالفلوس والعلاقات، وزي ما انتَ شايف هما مــا عندهمش نقص فــي الحاجتين دول، أما ليــه بقى، فحتعرف حالًا»

قالها وأخرج ملف من الدرج ووضعه أمامي وتراجع في كرسيه وهو ينظر لي بابتسامة لا تتماشى مع ما يحدث..

تناولــت الملف من على المكتب، كان تقريرًا مزينًا بشــعار وزارة الخارجية..

تقرير عن ملابسات وفاة (سعد الدين إدريس) وابنته حسب ما ورد في تحقيقات سكوتلانديارد..

وفاة (سعد الدين) وابنته؟

قلبت أول صفحة وبدأت أقرأ..

وأنا الذي كنت أتساءل عن السبب..

التقرير يتحدث عن تلك الفترة منذ خروج (أروى) من المستشفى بعد سنتين من دخولها وحتى وفاتهما.. حسب ما ذكر في التقرير، باع (سعد الدين) بيته في لندن بعدها وانتقل هو وابنته للعيش في مدينة (بريستول) وابتاع بيتًا هناك، بعدها بحوالي ثلاثة أشهر قُتِل في منزله، ولم يكن موجودًا وقتها سوى (أروى)..

ثم يأتي أمتع جزء في التقرير، وهو ترجمة ما حصلوا عليه من التحقيقات الخاصة بسكوتلاند يارد..

تم قتل (سعد الدين) بواسطة سكين وهو نائم في فراشه..

طعنة في البطن، وعدة طعنات في أعضائه التناسلية.. ولا يوجد بصمات على سلاح الجريمة..

أغلقت ساقَيّ على الفور وأنا أتخيل حدوث ذلك، يبدو أن تلك الفتاة تعرف كيف توصل رسالتها بأكثر الطرق سلاسة..

أكملت قراءة..

استدعت اسكوتلاند يارد «صديقة» (سعد الدين)، والتي -حسب ما يقول التقرير- كانت ستكون زوجته قريبًا جدًّا، لكن كان لديها حجة غياب محترمة، لذا نفَت التهمة عنها..

ولم يتبقَّ للزملاء في اسكوتلاند يارد سوى ابنة (سعد الدين).. (أروى)..

بالطبع أتى الحديث عن حالتها النفسية وعن تلك الفترة التي قضتها في مستشفى الأمراض النفسية في لندن حتى خروجها

مـن هنـاك بعـد أن «أصبحت قادرة علـى الاندماج فـي المجتمع» حسب ما كتب في التقرير..

ولـم يحتـج الأمـر لكثير مـن البحـث.. طفلة (سـعد الدين)، والتـي كانت تجاهد للوصول إلى سـن المراهقـة هي مَن قتلته، وتم وضعها في مصحة هناك تحت الحراسة..

ثـم يأتـي دور الجزء الأكثر تشـويقًا على الإطـلاق في تقرير اسكوتلاند يارد، وهو موت (أروى)!..

حريق شبَّ فجأة في العنبر الذي كانت تمكث فيه (أروى)، يبـدو أن الحريـق كان عنيفًـا فعـلًا، إلا أنه لم يخلِّـف عددًا من الجثث المتفحمة، فقط ابنة (سعد الدين)..

يبـدو -حسـب ما ذكر هنا- أنها كانت فـي غرفتها وقت أن كانـوا جميعًـا في الحديقة في وقت الظهيـرة، كما يبدو أيضًا أن أحدهم قد نسى إبلاغ أن رشاشات الإطفاء لا تعمل في غرفتها بالذات..

ولم يجدوا بالطبع مَن يتعرَّف على الجثة سوى قريبتها الوحيدة التي كانت قد وصلت إلى (إنجلترا) فور وفاة شقيقها..

(فريدة إدريس)..

تم اتهام المستشفى بالإهمال من قِبَل (فريدة)، إلا أنها -قبيل مغادرتهـا إنجلتـرا- تنازلت عن القضية بحجة أنها أرادت نسـيان كل هذا الألم..

وبالطبـع، انتقلـت أمـلاك وثـروات (سـعد الديـن) إلـى أخته بحسب وصيته التي تركها قبل مماته..

ثم تترك (فريدة) إنجلترا وتعود لمصر وحدها..

انتهى التقرير، فرفعت عيني وأنا أتخيل عدد الأصفار على يمين المبلغ التي دفعته (فريدة) لأيٍّ مَن كان كي تقنع اسكوتلاند يارد بكل سمعتها في حل القضايا أن (أروى) ماتت فعلًا.. يبدو أن «جاك السفاح» ليست القضية الوحيدة التي لم ينجحوا في حلها!.. النقود تتحدث فعلًا ليس في مصر فقط، لكن في أي مكان في العالم..

وبالطبع لم يكن استخراج جواز سفر مصري لها باسمها الجديد لتتنسب إلى زوج (فريدة) وتصير ابنتها التي لم تنجبها أصعب ما تم..

التفتُّ إلى (سيف) الذي كان يطالعني وشبح ابتسامة على وجهه وهممت بقول شيء ما، لكن ومضَ شيء آخر في عقلي فجأة..

ياللغباء.. كيف لم أربط بين الأحداث قبل تلك اللحظة؟.. تلك الفتاة ابنة (سعد الدين) التي قتلت أمها من أجل أن تحتفظ بأبيها لها وحدها، ومن ثم قتلت أباها بسبب عزمه على أن يتزوج بأخرى، ثم عادت إلى مصر وأحبت شخصًا ما بنفس قدر حبها لأبيها، ومن ثَمَّ تقتل الآن كل النساء من حوله كي تحتفظ به لنفسها فقط..

كيف لم أفطن من قبل أن ذلك الشخص الذي أحبته هو (أدهم) نفسه؟..

نظرتُ إلى (سيف) فاغرا فاهي فاتسعَت ابتسامته وقال بهدوء عجيب:

- «شكلك عرفت دلوقتي هي بتقتل اللي حوالين (أدهم) ليه»

نظرتُ إليه بانبهار وقد عجز لساني عن الكلام.. ثم تذكرت شيئًا ما فقلت له أنا أشعر برأسي يكاد ينفجر:

- «طيب إيه علاقة الكلام ده بـ(حسين) الدكتور أو (ريهام) أخت مرات (رضوان) باشا؟»

اتسعت ابتسمته ولم يرد، ثم قام من مقعده فجأة والتقط الچاكت من على الشماعة وقال وهو يتجه إلى الباب:

- «يلا بينا يا (ابراهيم)، مستني إيه؟»

قمت من مقعدي وسألته:

- «حنروح فين يا باشا؟»

التفتَ إليَّ وقال باستغراب:

- «في إيه يا (ابراهيم)؟ أنا كنت بحسبك أذكي من كده، حنروح لـ(فريدة) طبعا»..

❖ ❖ ❖

«أروى»

سأفعلها الليلة..

سرتُ خلفه بسيارتي منذ أن تحرك هو بسيارته من عند بيته إلى أن وصل للاستوديو..

ثم أوقف سيارته وانتظَر..

أوقفتُ سيارتي على بُعد ناصيتين من حيث كان يقف ثم أطفات المحرك وجلست داخل سيارتي أنتظر أنا الأخرى..

مرَّ حوالي ربع ساعة وهو يقف كالجماد عند نهاية الشارع الذي يقع فيه الاستوديو، ثم ربع ساعة أخرى..

لكني لم أملّ..

لن أفعلها هنا بالتأكيد بينما لا يزال هناك من يمر في الشارع، لكنهما سيذهبان لمكان آخر حتمًا بعد أن تخرج هي.. من الجَميل أنهم قد اختاروا هذه البقعة بالذات من (كفر عبده) كموقع للاستوديو، لن أجد مكانًا أفضل بالتأكيد..

فأنا أعلم أنه ينتظرها..

بالتأكيد ينتظرها..

وسأقتلهما معًا..

وها هو باب الاستوديو يُفتَح وتخرج هي منه وحدها..

(ليلى)..

طالما كرهتها، منذ أن وقعَت عيناي عليها أول يوم في تلك البروڤة السخيفة التي حضرتها معهم.. كان يجب أن يكون لي وقتها، لا أن يتعرَّف عليها..

كلهم يفعلون نفس الشيء.. أكون لديهم، وعلى استعداد لفعل أي شيء لهم، ثم يتركونني ويذهبون لأخرى تعذبهم وتحيل حياتهم جحيمًا..

ألا يتعلمون إطلاقًا؟..

تحركَت في خطوات سريعة وهي تنظر داخل حقيبتها ثم أخرجت هاتفها ووضعته على أذنها وهي تتجه إلى شارع جانبي.. غريب هذا، توقعت أنها ستذهب إليه فور أن تخرج، لكنها استمرت في المشي حتى اختفت في ذلك الشارع، هذا جميل وهذا ما بنيت عليه خطتي.. سنصير بعيدًا تمامًا عن أعين الناس..

انتظر (أدهم) حتى اختفت داخل الشارع ثم ترجل من السيارة وسار خلفها..

لا أعرف ما الذي ينتويه مما يفعله الآن، لماذا كان ينتظرها، ولماذا يتبعها بهذه الطريقة المريبة كأنما يعمد ألا تلحظ وجوده؟.. لا يهم، ستنتهي حياتهما البائسة الآن ولن أحتاج حتى إلى فهم ما يفعله (أدهم) بالضبط.. سحبت مفتاح السيارة من مكانه وهممت بفتح الباب، لكني لمحت باب الاستوديو يفتح مرة أخرى ورأيت (ياسمين) تخرج، ثم تلتقط عيناها (أدهم) الذي يسير خلف (ليلى) فتتسمر، ثم تغلق باب الاستوديو وتسرع الخطى خلفه..

الليلة تزداد جمالًا ، يبدو أن مصير تلك الفرقة سيكون إلى زوال الليلة بالذات..

فتحتُ الباب، ولم أنسَ أن ألتقط ذلك الماسك المرعب من على الكرسي بجانبي. ظهر تحته السكين تلمع في ضوء الشارع الخافت الذي تسلل عبر النافذة.. كنت أرتدي القفازات السوداء بالفعل، لذا التقطت السكين ثم خرجت وأغلقت باب السيارة خلفي برفق كي لا يصدر صوتًا ، ولم أهتم بغلق القفل المركزي للسيارة كي لا يثير صوته الانتباه، ثم سرت خلفهم..

كانت (ياسمين) تسير وراءهم وهي تبقي على مسافة كافية كي لا يلاحظها (أدهم)، في حين كان يبدو عبر هذه المسافة أن (أدهم) يسرع الخطى ويقترب من (ليلى)، يبدو أنه يريد اللحاق بها قبل أن تصل لسيارتها.

أسرعتُ الخطى حتى أصبحتُ على مسافة حوالي خمسة أمتار من (ياسمين) ثم ارتديت الماسك بسرعة وتأكدت من أنه يغطي رأسي بالكامل ثم أسرعت أكثر حتى لحقت بها..

لم أمهلها فرصة للاستدارة، صحيح أنني أريد أن أرى الفزع في عينيها أولًا وهي ترى ماسك الغوريلا هذا الذي أرتديه، شعور ألا تعرف ما هذا الشيء الذي يقتلك، أن تموت من الرعب قبل أن تموت من الطعنات، نفس النظرة التي رأيتها على وجه أمي يومها حين استيقظت من أثر الطعنة الأولى لتجد ذلك الوجه المرعب يحدق فيها..

هل تذكرَت وقتها أنه نفس الماسك الذي أهدتني إيَّاه في

عيد ميلادي قبل ثلاثة أشهر؟ أم أن الصدمة أنستها هذا وصارت تتسائل في اللحظات القليلة التي عاشتها قبل أن تفارق الحياة عن كُنه ذلك الشيء الذي ينتزع حياتها مع كل طعنة؟..

ثم أيّ أُم تلك التي تهدي ابنتها مثل هذا الماسك المرعب؟

كم راقني هذا الشعور وقتها..

لكن الآن ليست (ياسمين) هي هدفي، صحيح أن قتلها يسعدني، لكن هناك من هُم أهم..

ثم هي قد رأتني من قبل في محاولتي الأولى لقتلها وهربت اللعينة في تلك الليلة..

يكفي ما أصابها من الرعب ليلتها إذَن، ولننهي الأمر سريعًا..

وبسرعة تعودت عليها بعد الخبرة التي كونتها مع الوقت، أحطتُّ فمها بيدي اليسرى كي أمنعها من الصراخ ثم ذبحتها بالسكين باليد الأخرى، وتعمدت أن أضغط جيدًا كي لا أحتاج لأن أعيد ما أفعله مرة ثانية..

وبالفعل تهاوت (ياسمين) على الفور وهي ترفع يديها المرتجفتين إلى رقبتها..

لكن للأسف، صوت ارتطامها بالأرض وذلك الصوت الصادر من حنجرتها وهي تحاول أن تدخل الهواء إلى رئتيها من خلال عنقها المشقوق، والشبيه بصوت إنسان يغرق جعل كل من (أدهم) و(ليلى) يلتفتان للخلف..

❖ ❖ ❖

ظللتُ أتطلع إليها لوهلة من أعلى وهي تتمدد على الأرض..

جميل هو إحساس القدرة المطلقة هذا.. ثم رفعت يدي الممسكة بالسكين وهبطت على ركبتي وأنا أستعد لاستكمال ما بدأته..

لكي أخبرها آخر رسالة لها قبل أن تترك عالمنا..

أنني أكرهها كأنثى، وأكره كل أنثى مثلها..

ثم توقفت ونظرت إلى الناحية الأخرى من الشارع..

لا أعرف لماذا شعرت بوجودها في تلك اللحظة، لا بد وأن ما يربطنا هو شيء يفوق قدرة البشر على الفهم..

وعلى مدخل ذلك الطريق الجانبي لمحتها..

كانت هناك، تقف دون حراك، كأنما كانت تتابع ما أفعله بشغفٍ شديد، شغف مُعلم يرى تلميذه يفعل ما علَّمه إياه بإتقان فاقه هو شخصيًا..

كانت هي الجمهور..

لم أكن أرى وجهها الذي يغلفه الظلام، لكنني رأيت تلك الأشياء التي كانت تلمع في وجهها..

هذان القرطان العملاقان وذلك الخاتم الذي يزين أنفها الذي طالما أبهرني..

وفهمت لماذا هي هنا.. في هذا الوقت بالذات..

فقد أتت -بدون أدنى شك- كي تشاهد ما أفعله..

أو ما أنا على وشك أن أفعله..

وبهدوء شديد، لا يشي بذلك البركان الذي بداخلي، أشحت بوجهي ونظرت مرة أخرى إليها..

إلى (سارة)..

ثم بدأتُ في فعل ما أنا قادمة من أجله..

وكان ما أفعله شنيع..

شنيع إلى أقصى درجة..

شنيع إلى درجة أنني رأيت - دون أن ألتفت لأنظر حتى إلى وجهها - أنها كانت تفعل آخر شيء يتوقعه من يشاهد ذلك الشيء المقزز الذي أفعله..

كانت تبتسم..

❖ ❖ ❖

صراخ (ليلى) يكاد يوقظ الموتى في قبورهم.. ليس هذا ما أردته، ليس هكذا، اندفعتُ نحوها، صرخَت بشكل أعلى وهي تتراجع إلى الخلف، (أدهم) كان يقف متخشبًا يراقب ما يحدث كالمسحورين، يبدو أن الصدمة ألجمته فلم يدرِ ماذا يفعل.. هذا جيد، سأنهي الأمر معها ثم سأفرغ له بعد قليل..

❖ ❖ ❖

لم ينظر إليَّ حتى وأنا أمسك بمقبض السكين وأطعنه..

لم يرني، كعادته، كأنني لست موجودة..

بدا الألم على ملامحه، تقلص وجهه، ثم همد فجأة، قلبه الواهن لم يحتمل تلك المفاجأة..

لا، لا تمُت الآن، فلتشعر بكل طعنة، مثل تلك الطعنات التي انغرزت في قلبي وأنا أراك تريدها، تريد أن تتزوج ثانيةً من تلك

اللعينة، سأقتلها هي الأخرى، لقد قتلتُ من أجلِك، قتلتُ أمي، والآن تريد أن تتركني لتعيش معها، تتركني مع (فريدة) أختك التي لا أعرفها تقريبًا، لا تمُت أرجوك، أريدك أن تتعذب، أريدك أن تشعر بما أشعر به الآن..

لا تمُت!..

❖ ❖ ❖

- «(كارما)!».

توقفتُ وأنا على قيد نصف متر من (ليلى) ونظرتُ للخلف..

كان (سيف) يقف وبجواره شخص آخر كان موجودًا في التحقيقات بعد مقتل (مايا) العفِنة، ويرفع كل منهما مسدسه في وجهي..

لقد ناداني بـ(كارما).. هو يعرف مَن أنا.. إذَن لا داعي لادِّعاء عكس هذا..

مددتُ يدي ونزعت الماسك الذي أرتديه، ثم رفعت يدي وعدلت شعري لأنني أكره أن يبدو غير منمق أمام (أدهم) بالذات..

ألا يجب أن تكون آخر ذكرى له عني في أجمل صورة؟..

هو يبدو مصدومًا تمامًا وينظر لي بعينين غير مصدقتين وقد ألجمته المفاجأة..

وقبل أن يفكر أيًا منهم في شيء ما يفعله، تحركت بسرعة نحو (ليلى) التي صرخت بصوتٍ عالٍ وأحطت رقبتها بيدي وأنا أرفع السكين وأقربها من وجهها..

- «(كارما)، استتي!»

التفتُّ إلى(أدهم) الذي قالها في لوعة.. ألهذا الحد يخاف عليها؟.. شعرت بغصة تعتصر قلبي وضغطت بيدي على السكين أكثر حتى شعرت به يحتك بوجه (ليلى)..

- «(كارما)، لأ!»

التفتُّ بسرعة نحو مصدر الصوت.. صوتها المحبب، برغم قسوتها منذ اللحظة الأولى، إلا أنها فعلت كل شيء من أجلي، من أجل ألا تنتهي حياتي في تلك البلاد البعيدة التي لم أحبها أبدًا..

(فريدة)..

لكنها خانتني الآن..

لماذا أتَت مع هؤلاء الضباط إذَن؟ لماذا يعرفون اسمي؟

هي أخبرتهم بكل شيء..

شعرت رغمًا عني بدموعي تتكون في مقلتيَّ، قاومتها، حاولت، لا أريد الظهور بمظهر الضعيفة الآن.. بينما يشاهدون سيطرتي عليهم، بينما يرون كيف سأنهي حياة (ليلى) و(أدهم) وأدفن هذا الحب هنا كما دفنوا هم حبي بحبهم هذا، لكن دموعي خانتني هي الأخرى للأسف، وها هي تنساب على خدَّيّ.. شعرت بها كأنما تحتك بجلدي وتلهبه، يكفي ما رحل من كرامتي، ليس الآن، ليس هنا.. ليس لدي للأسف يد أخرى لأمسح بها دموعي، لذا تركتها تنساب وقلت وأنا أشعر بقلبي كأنما هناك من يعتصره:

- «ماحدش فيهم حبني يا (فريدة)»

كانت هي تنظر لي في لوعة.. رأيت في عينيها الدموع لأول مرة أيضًا منذ فترة طويلة.. لماذا تبكين أيتها الخائنة؟ أنتِ مثلهم، فقط مثلهم، أنتِ أخته قبل كل شيء..

- «إنتِ قلتي لهم.. إنتِ قلتي لهم يا (فريدة)، فرقتي إيه عن أي حد منهم؟ إنتِ كمان ماحبتنيش؟»

صرخت (ليلى) في تلك اللحظة والنصل ينغرز في عنقها من أثر ضغطي عليه، كانت ترتجف، مثلي، لكن شتَّان بين الأسباب..

- «(كارما) أنا بحبك»

- «اسمي (أروى)!»

رفعَت أصابعها لتغطي فمها عندما سمعت صرختي، نعم أنا اسمي (أروى)، كل تلك الفترة التي أمضيتها كـ(كارما) أثبتت أنها لا تعني أي شيء، (أروى) هي مَن تعلمت أن تدافع عن حبها ممن لا تعرف الحب، (أروى) هي مَن شعرت بمذاق الانتقام لأول مرة، (أروى) من كرهت فيهن الأنثى، (كارما) لا وجود لها وأكرهها كما أكرههن جميعًا وكما أكره أبي و(أدهم)..

- «قولي لهم أنا بعمل كدا ليه!»

قلتها وأنا أنظر إليها، عيناها الكحيلة، وقرطهيا الكبيرين، وذلك الخاتم الذي يشق أنفها، كان يجب أن تأتي منذ أن وصلتُ، لا أن تصل متأخرة كعادتها، لكنها على الأقل هنا، الوحيدة التي لم تتركني، الوحيدة التي لم تخونني.. نظروا

جميعًا إلى حيث أنظر ثم التفتوا لي مرة أخرى..

- «إنتِ بتكلمي مين؟»

ظللتُ أنظر لها في انتظار أن ترد على (سيف)، لماذا لا تفعلين؟ لماذا تصمتين الآن؟

- «ردي عليهم، قوليلهم»

نقلت بصري بينها وبينهم، سيظنون أنني قد فقدت عقلي أيتها الحمقاء..

- «(أروى)، سيبي السكينة، ماحدش حيعملك حاجة، (ليلى) ماعملتكيش حاجة، وأكيد مش عايزة تأذيكي»

التفتُّ إلى (سيف) الذي كان يبدو أكثر قربًا، لا بد وأنه كان يقترب مني ببطء دون أن أشعر، أحكمتُ من قبضتي والتفتُّ إلى (إبراهيم) الذي كان يقترب في بطء هو الآخر..

ثم فجأة لمحته..

التفتُّ متأخرًا جدًّا نحو (أدهم) الذي كان الآن على بُعد خطوة واحدة عن يميني، أبعدت يدي عن (ليلى) بشكل لا إرادي والتفت إليه بجسدي كله..

التفاتتي جاءت في الوقت المناسب لأنني مددت السكين أمامي وأطبقت أصابعي حوله بكل ما أملك من قوة كي أدافع عن نفسي..

يبدو أنه أيضًا لم يفكر وهو يندفع ليزود عن (ليلى)..

وها هو الآن بقربي، كأقرب ما يكون..

حتى وملامح الألم ترتسم على وجهه..

ظللت أنظر في عينيه وأنا ما زلت أقبض على مقبض السكين الذي كان ينغرز الآن في بطنه..

لم أوجه طعنتي هذه المرة، لكنها كانت تعرف طريقها من تلقاء نفسها..

نفس نظراته، فقط هو كان لديه تجاعيد في وجهه وكان أشيب الشعر..

لكنه هو..

الكثير من الصيحات والصراخ، عدة أشخاص تندفع نحوي، ثم سمعت صوت (ليلى) وهي تصرخ باسمه وتندفع نحوه فجذبت السكين بقوة من جسد (أدهم) ثم رفعتها لأعلى وأنا أدور بجسدي نحو مصدر الصوت..

ثم سمعت صوت الطلقات وشعرتُ على الفور بألمٍ في ظهري وذراعي..

وسقطت على ركبتي..

لكني لم أترك السكين..

أحكمتُ قبضتي عليها أكثر كما لو كانت هي كل ما أتشبث به كي أظل على قيد الحياة..

لكن يدي تراخت رغمًا عني وشعرت بالدم ينسحب من رأسي فتهاويت على الأرض كأني دمية، قصَّ أحدهم تلك الحبال التي تحركها..

أهكذا شعروا إذَن؟.. أن الحياة تنساب منهم وأن كل شيء

سينتهي؟ حياتهم، أحلامهم؟.. حياتي انتهت بالفعل قبل هذه اللحظة بكثير، منذ أن سلبتني أمي إيَّاها ، منذ أن فشلت في أن تحبني، وفشلت في أن تجعلني أحبها..

كنت أشاهد السماء أمامي، ملاذي القادم، هناك سأكون، بلا وعود لن يوفي بها أصحابها ، بلا إحباط، سأجد من يحبني هناك بالتأكيد، سأجد من يقدر ما سأمنحه له..

كانت أطرافي تبرد بحق، أخيرًا ستصير مثل ذلك القلب الذي لم ينبض لشيء إلا وابتعد عنه.. أخيرًا سيتماشى وباقي جسدي، وسيسكن تمامًا بعد أن حركه كل هذا الكُره الذي نتج عن كل هذا الحب..

الرؤية تصير أكثر ضبابية، السماء تبهت، لونها يتحول من الكحلي إلى الأزرق إلى السماوي إلى اللبني..

لكني شعرت بتلك الدمعة الأخيرة تسيل من عيني وتحتك بإذني.. يداي فارغتان، لكني لا أستطيع رفعهما كي أمسح تلك الدمعة، كي لا تصير هي ما يتذكرونني به..

ثم..

ثم اختفى كل شي..

❖ ❖ ❖

«سيف»

- «بنت (سعد الدين إدريس)؟ سبحان اللّه!»

قالها (رضوان) وتراجع في مقعده وهو يشرد ببصره بعيدًا.. بإمكانك أن تكون عميقًا وأن يكون كل كلامك ذا قيمة، فقط كن غنيًا أو اجلس في مقعد يعطيك سلطة ما وسيصير كل كلامك كذلك، لا تقلق!..

ظللتُ صامتًا طوال فترة صمته حتى حوَّل نظره إليَّ وتنهد بعمق ثم قال:

- «أنا كنت أعرف أبوها كويس يا (سيف)، كان راجل كويس، أنا نفسي أفهم إيه اللي وصَّل بنته لكدا»

تنحنحتُ لأسلك حنجرتي وبدأت أحكي..

عندما تحدثنا مع (فريدة)، استطعنا أن نفسر الكثير من الأشياء التي لم نكن نفهمها..

زوجة (سعد الدين) كانت سيدة غريبة الأطوار فعلًا.. حاولت السيطرة عليه، وإبعاد كل الناس عنه بشكل عجيب، حتى أخته، وكانت دائمًا تشعر أنه سيتركها.. استعانت بكثير من الدجالين والمشعوذين، حتى استطاعت إحداهن أن تسيطر عليها تمامًا، ثم صارت تسمع لكلامها في كل شيء.

حتى (أروى)..

(أروى) تعلقت بها، أكثر من أمها بكثير..

بعد ما حدث، كان (سعد الدين) في حالة يرثى لها، فعل كل ما في استطاعته كي ينجح في ألا تذهب ابنته إلى الأحداث، وبالفعل، استطاع (حسين) أن يثبت أنها حالة فصام وأن يوصي بأن تدخل مصحة نفسية، بعدها استطاع (سعد الدين) أن يذهب معها إلى إنجلترا..

النوتة التي وجدناها في جيب (حسين)، والتي جعلتنا نعرف أن (ليلى) أخبرت (حسين) في البداية أن اسمها هو (أروى)، جعلتنا أيضا نشُك لوهلة أن (ليلى) هي ابنة (سعد الدين)، أو على الأقل لا يزالان على علاقة ببعضهما البعض، إلا أن (ليلى) أخبرتنا بعد أن استجوبناها ثانيةً أن (أروى) هو اسم طفلة كانت معها في المدرسة، كانت تحبها جدًّا، ثم اختفت فجأة من المدرسة وقالت لها أمها أنها سافرت؛ لذا اختارت هذا الاسم بالذات عندما ذهبت للمرة الأولى إلى (حسين)..

(أروى) و(ليلى) كانوا أصدقاء، طفلتين في مدرسة واحدة جمعتهما صداقة بريئة، ثم تقابلا بعد عشر سنوات وكانت إحداهما على شفا أن تقتل الأخرى، دون أن تعرف أيهما بذلك»

رفع حاجبيه ثم خفضهما وقال:

- «إسكندرية أوضة وصالة فعلًا زي ما بيقولوا، بس الصدفة دي بتحصل كل مليون سنة يا (سيف)»

أومأت برأسي موافقًا واستمريت في الحديث..

بعد خروج (أروى) من المصحة في لندن وانتقالهم إلى بريستول، قرر (سعد الدين) أن يتزوج، في تلك الفترة كان

يحـادث (فريـدة) فـي الهاتـف يوميًّـا تقريبًـا ويحكـي لهـا عن تصرفات (أروى) الغريبة مع خطيبته، كانت تقول له أنه خائن، وكانت تنظر له بطريقة تخيفه، ومع كل هذا طلب من (فريدة) أن تأتِ لتمكث مع (أروى) بعد زواجه، رحبت هي بذلك، خاصةً أنها لم ترزق بأطفال، واتفقا بالفعل على أن تأتي (فريدة) لتعيش فـي البيـت مـع (أروى)، فهو قد كتبه باسـمها علـى كل حال، وسيشتري هو بيت آخر ليمكث فيه هو وصديقته بعد زواجهما..

بعدها مباشرةً قُتِل (سعد الدين)..

وتسافر (فريدة) لانجلترا، وتدبر حريق المستشفى لتثبت وفاة (أروى)، ثم تستخرج لها جواز سفر وشهادة ميلاد باسمها الجديد تثبت أنها ولدت في إنجلترا، وكانت واثقة بالطبع أن الشهادة لن يتـم إثبـات أنها مزورة لأنها ستسـتخدمها فقط فـي مصر، لتبدأ (أروى) حياة جديدة في مصر باسم (كارما)..

بعـد أن وصلـت مصر، اشـترت لهـا (فريدة) شـقة في منطقة (سموحة)، كانت المنطقة لا تزال بِكر، لذا لم يسأل الجيران أسـئلة كثيـرة ولـم يشـغلوا أنفسـهم بالقاطنين الجُـدد طالما لا يفعلون ما يثير الريبة، هم في حالهم، زيادة عن اللزوم في الواقع، لكنهم تغاضوا عن ذلك طالما لا يمسهم هذا بسوء..

كانت هناك مربية مقيمة معها طوال الوقت، يعرف الجميع أنها قريبتهـا التي ترعاها بعد موت أبويها، كما أحضرت لها مدرسـين اختارتهـم هي بنفسـها، ليدرسـوا لهـا في المنـزل، جعلهـم المبلغ السخي الذي يتلقونه يتغاضون تمامًا عن الأسئلة التي لا طائل منها، وتحدث المعجزة وتثبت تلك الفتاة تفوقها وتدخل كلية الطب..

ويمكننـا أن نتخيـل هذه الطفلة التي لم تكـن تتعامل إلا مع عدد محدود من الناس، ولا تخرج تقريبًا إلا للضرورة، تجد نفسها فجأة في مجتمع الجامعة الصعب، حيث هناك مَن تمتد علاقتهم مِـن المدرسـة، وهنـاك مـن لا يجـد صعوبـة أبدًا فـي الاختلاط بالنـاس.. لم تتأقلم، مع أنها كانت محط أنظار زملائها بسـبب جمالهـا، وإن ابتعدوا عنها مع الوقت بسـبب أنهـا غريبة الأطوار كما كانت تخبر (فريدة)..

ثم تُقابل (أدهم) فتحبه ويصير هو كل شيء..

إلـى أن جـاء الوقـت عندمـا بـدأت المربيـة تحكي عـن تلك الأشياء الغريبة التي رأتها..

ماسـك مرعب وجدته في غرفتها، سـكين عليـه آثار دماء، تحدثها مع أشـخاص غير موجوديـن، حاولت (فريدة) أن تحدثها في هذا الموضوع إلا أن ردَّها كان عنيفًا جدًّا، بعدها عرفت أن المربيـة اختفت، خافت في البداية أن تكون (أروى) قد قتلتها، إلا أنها حدثتها هاتفيًّا بعدها وأخبرتها أنها كانت خائفة.. خائفة لدرجـة أنهـا انتهزت أن (أروى) خـارج المنـزل وتركته، لكنها أخبرتها أيضًا أنها كانت تتحدث مع تلك المرأة التي لا وجود لها وأخبرتهـا أنها قد قررت «قتلهم»، لا تعرف مَن هم لكن لا يوجد في حياتها الكثير من الأشخاص لحسن الحظ..

أخبرتنـا (فريدة) عندما ذهبنا إليها أن تلك المكالمة كانت فـي صباح اليـوم، حاولنا محادثة (أدهم) أو (ليلى) أو (ياسـمين) إلا أن هواتفهم كانت غير متاحة، قال (إبراهيم) وقتها ملحوظة جيدة أنهم قد يكونون في الاسـتوديو لأن لديه تجربة سـابقة في

أن العزل الصوتي في الاستوديو يحجب شبكة الهواتف النقالة كما يحجب الصوت، لذا اتجهنا إلى هناك على الفور، لكن متأخرًا للأسف»

- «و(أدهم) حالته مستقرة؟»

أومأتُ برأسي وقلت:

- «الحمد لله، الطعنة ماجتش في حاجة من أجهزة الجسم الحيوية، بس هو لسا في المستشفى طبعًا»

مال إلى الأمام واستند بمرفقيه على المكتب ثم قال:

- «(سيف)، أنا عايز أشكرك على مجهودك ده، إنتَ قِدرت تحِل قضية من أصعب القضايا اللي عدِّت عليَّا أنا شخصيًّا، والحمد لله، اللي قتَلِت (ريهام) أخدت جزاءها، صحيح إحنا ماقدرناش نعرف علاقة (أروى) بيها، بس بما إنها كانت بتروح لنفس الدكتور اللي كانت بتروح له (أروى)، وبما إنه هو نفسه اتقتل فأنا متوقع إن (حسين) هو همزة الوصل، مش مهم، المهم إننا عرفنا مين اللي قتلها.. الحمد لله»

قالها وقام واقفًا ومد يده إليَّ ليصافحني..

لكني لم أمد يدي..

ظللت أنظر إليه دون أن أفعل..

عقد حاجبيه وهو ينظر لي باستغراب ثم بغضبٍ ثم صاح والشرر يتطاير من عينيه وهو يكوِّر يده الممدودة:

- «إنتَ يا بني آدم انتَ، انتَ بتعمل إيه؟»

ظللت أنظر إليه وأنا أحاول جاهدًا أن أعرف كيف يسيطر

على أعصابه لهذه الدرجة، ثم قلت وأنا أبقي على الْتقاء أعيننا:

- «في حاجة بس لسا ماقلتهاش لسيادتك، الرائد اللي سيادتك بعتُّه للمعمل الجنائي، اتمسَك وهو بيحاول يسرق السيديهات اللي أنا قلت لسيادتك بس إن عليها تسجيلات جلسات الدكتور مع المرضى بتوعه من المعمل الجنائي، وماحدش تاني كان يعرف الموضوع ده، بس اللي أنا ماقلتوش لمعاليك.. إن مافيش تسجيلات من الأساس»

ثم أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أراقب ذلك الشرخ الذي ظهر على ملامحه الجامدة ويده التي ارتجفت قليلًا، ثم قلت بهدوء:

- «أنا فكَّرت كتير قوي في موضوع (ريهام) أخت مرات معاليك، مرواحها لدكتور نفسي، وبَعدها الدكتور يموت، واللي موِّتها يحاول يقلد نفس طريقة القتل بتاعة (أروى)، أنا مابلَّغتش معاليك بالمعلومة الأخيرة دي اللي ماكناش حنعرفها لولا دكتور (حلمي)؛ لأن دي الفكرة المجنونة اللي جات في دماغي وقتها، إن مافيش غير إن في حد بيحاول يوهمنا إن في قاتل واحد عشان يفلت هو، كأنه مش موجود، واللي أكد لي الموضوع ده قتل (حسين) وسرقة أي حاجة ليها علاقة بالمرضى، ماعدا النوتة الصغيرة اللي كان فيها كلام عن (أروى) أو (ليلى)، وما دام الشخص ده إيده طايلة لدرجة إنه يطَّلع على تقارير معمل جنائي لجريمة، وما دام يهمه إن اللي حكته (ريهام) للدكتور مايظهرش، لأنها أكيد بتتكلم عن علاقتهم -غير الشريفة- ببعض، وأكيد ده اللي كان تاعبها نفسيًّا، فمافيش ناس كتير أعرفها حوالين (ريهام) بينطبق عليه كل

الحاجات دي غير معاليك»

شعرتُ بالشَّر يتجلَّى في عينيه، فقلت بسرعة خوفًا من أن يُقدِم على فعل شيء متهور بحجة أنني أنا فقط من يعرف هذه المعلومات:

- «وطبعًا حرصًا على مكانة معاليك ورُتبتك فأنا بلَّغت المعلومات دي لجناب معالي الوزير شخصيًّا، وهو حيقرر بنفسه حيتعامل مع معاليك إزاي»

ظل ينظر لي، وإن اختلفت النظرة في عينيه كثيرًا، نظرة إنسان فقد كل شيء.. مؤلم أن ترى مثل تلك النظرة في مَن تعود أن ترتعد أطراف من ينظر إليهم، يمكنك أن تضحك حتى البكاء وانتَ ترى فأر صغير يتعثر، لكني أراهن أنك لن تشعر بنفس الشعور إذا حدث هذا الشيء لأسد، شيء ما في داخلك سيجعلك تشعُر بالشفقة..

ما أصعبه من شعور.. الضعف بعد القوة..

- «كان عندها كل حاجة، جميلة، رقيقة، ماكانش فيها أي حاجة من أختها، مراتي»

قالها وهو يعبث في أزرار أكمام البدلة بيده الأخرى ويشرد بنظره بعيدًا.. لم أتوقع أن يحكي لذا بقيت على نفس الوضع أنظر إليه وهو يقول:

- «شغلتنا دي محتاجة معاها إن شريك حياتك يكون عكسك في كل حاجة، محتاج حد يدلعك، يرقص لك، محتاج أنوثة.. وهي كانت من زمان بتعتبر إني أخوها الكبير، كانت

بتحكيلي، كنت بشوفها، لبسها، جسمها، حركاتها، كان فيها كل حاجة أنا مفتقدها، كان لازم بعد وقت نعدي مرحلة إننا اخوات.. بس هي ماكانتش قادرة تستحمل»

قالها وبدا الحزن في عينيه.. تبًّا، لقد كان يحبها فعلًا!.. أكمل بصوتٍ خفيض لم يليق في نظري بهيبته البادية عليه مما زاد من شعوري نحوه بالشفقة:

- «الموضوع ده كان مأثر عليها جدًّا، كانت مكتئبة، كانت بتقول إنها مش قادرة تبص في وش أختها، بطَّلت تجيلنا، ماكانتش حتى بترد على تليفونات مراتي.. وبعدها كلمتني وقالت لي إنها مش قادرة تحتفظ بالسر أكتر من كده، وإنها حتقول لمراتي، حاولت أقنعها، أقولها إنها كده حتدمر كل حاجة، بس هِيَّا ماسمعتش كلامي، كانت منهارة وماكانتش شايفة حل تاني للحالة اللي هي فيها ولضميرها اللي حيموتها.. وبعدها ابتدت حالات القتل مالاقيتش حل تاني غير كده.. كان في حل تاني؟»

قالها وهو ينظر إليَّ فابتلعتُ ريقي، الرجل منهار بحق، خان زوجته مع أختها ولم يجد بُدًّا لإخفاء جريمته سوى بقتلها ثم بقتل (حسين) الدكتور.. لا بد وأنه كان يبذل جهدًا خرافيًّا كي يبدو بهذا الثبات وقوة الشكيمة، إلا أنه فقد السيطرة تمامًا الآن.. دار بجسده ورفع عينيه يتطلع إلى شهادات التقدير والأوسمة المعلقة على الحائط خلفه، ومد يديه وأخذ يلامس بأصابعه إطار تلو الآخر حتى توقفَت يده عند مسدس معلق وسط الأوسمة، لا بد وأنه يرمز هو الآخر لأحد إنجازاته، تحركَت يدي رغمًا عنِّي

ولامست جراب المسدس المعلق في حزامي، الرجل حالته النفسية ليست على ما يرام ولا يمكن توقع تصرفاته بتاتًا.. قال دون أن يلتفت إليّ:

- «أنا إديت كتير من عمري للوزارة، أخدت رُتب وشهادات بس كنت دايمًا حاسس إن ناقصني حاجة، لغاية ما علاقتي بـ(ريهام) اتطورت، وعرفت وقتها إن هو ده معنى الحياة، إن يبقى معاك حد عايز تروح البيت عشان تشوفه، إن كل اللي أنا وصلت له ده من غير وجودها في حياتي ولا حاجة»

ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- «بس أنا اخترت المنصب والحياة اللي أنا عرفت إنهم ولا حاجة، ودلوقتي هي راحت، وحتى الحياة اللي أنا اخترتها راحت»

قالها وسحب المسدس المعلق من غِمده فسحبت مسدسي بسرعة وقمت واقفًا وأنا أصوِّبه نحوه..

لكنه لم يمهلني وقتًا للأسف..

بسرعة شديدة كأنما قد قرر أنه لا مجال للتفكير فيما رأى أنه التصرف الأمثل، رفع المسدس إلى رأسه وضغط الزناد..

تناثرت الدماء وشظايا جمجمته على كل شيء، وشعرت ببعضها يلامس وجهي..

وتهاوى جسده على الأرض..

ظللت واقفًا لثوانٍ ثم اتجهت نحو المقعد الذي كنت أجلس عليه فجلست..

أو بمعنى أصح انْهار جسدي عليه..

يبدو أن الجثث تتناثر في أي مكان أكون موجودًا فيه..

أرحتُ رأسي للوراء وعقلي يعيد أحداث الأسابيع الماضية..

أنا أيضًا حياتي بلا معنى..

ولهذا السبب انفصلتُ عنها..

على الأقل أنا اخترت..

ولم أنتظر حتى أفعل ما فعله (رضوان)..

سمعتُ طرقات على الباب وانفتحَ الباب بالفعل وسمعتُ أصوات مَن يندفع إلى الداخل، لا بد وأن صوت الطلقة قد جذبهم..

لكني لم أبالي بكل هذا..

أغمضتُ عيني..

فأنا أحتاج للراحة..

وأن يكون لحياتي معنى أنا الآخر..

❖ ❖ ❖

«أدهم»

لم أمُت حتى..

لا أعرف لماذا كنت أفكر في (كارما) الآن، هي على الأقل استراحت مما هي فيه، لم يكن هناك مفر من ذلك العذاب سوى بالموت، مسكينة (كارما)، لكنها على الأقل قد استراحت إلى الأبد..

وبقيتُ أنا..

أنا سببٌ أساسي فيما حدث لها، عرفتُ تفاصيل قصتها من (سيف) الذي أمضى معي بعض الوقت، اعتذاره كان ضمنيًّا، لم يقُلها صراحةً، لكنني فهمت، على الأقل فعل شيئًا ما، تمنيت أن تفعل أمي نفس الشيء، هي تأتي إلى هنا كل يوم، تتحدث، تحاول على الأقل، في حين أظل أنا صامتًا حتى ترحل، لم يعد هناك ما يقال، انتهى الحوار بيننا منذ زمن، لم تعطِ ما يجب أن تعطيه عندما كان يجب أن تعطيه، كان عليها أن تتوقع أن الصلة بيننا ستكون فقط أننا نبيتُ تحت سقف واحد، وستكف هذه الصلة عن أن تربطنا في يوم ما، لستُ أظنه قريبًا لكنه سيأتي، لا أعتقد أنني أفكر في الارتباط والزواج الآن، سأحتاج لأن أكون مستقرًا نفسيًّا أولًا، سأحتاج لأن أعرف ماذا يحدث في داخلي، أعلم أنني لم أقتل أحدًا، على الأقل هذا يبُثّ نوعًا من الطمأنينة المؤقتة..

لكنني لا أريد أن آتي إلى العالم بأطفالٍ مشوهين مثلي..

هذا إن لم يكونوا أكثر تشوُّهًا..

أريد لأطفالي أن يكونون أفضل حالًا، وهو ما لن يحدث أبدًا لو ظللت كما أنا..

سأحتاج للتفرُّغ لدراسة نفسي في الفترة القادمة قبل أي شيء..

كنت غارقًا في أفكاري عندما انفتح الباب وظهرَت هي على عتبته..

لم أكن قد رأيتها منذ يوم الحادث، لذا خفَق قلبي نوعًا ما وأنا أراها الآن..

(ليلى)..

كانت نظرتها تحمل الكثير من المعاني، لا أعلم إن كنت قد فسَّرت الانطباع الذي ارتسم على وجهها بشكل صحيح، لكن ما فهمت هو أنها تتساءل عمَّا تفعله هنا، الآن.. يبدو أنها لم تفكر كثيرًا قبل أن تأتي، ساقتها قدماها إلى هنا بالذات..

لم أعد أثق في التصرفات التي تنتج عن الرغبة الملحة تلك دون تفكير، كنت أفكر لتوِّي في جدوى الزواج وأنا بهذه الحالة النفسية، فما بالك لو ارتبطنا أنا و(ليلى)؟.. زوجان من المرضى النفسيين سيُحضران إلى الدنيا أطفالًا سويِّين حقًّا!.. لا، لن أفعلها، لا أريد أن أكون سببًا في أن يتعذب طفلي ويظل يكرهني مع كلِّ نفَسٍ يتنفسه.. وبالطبع لن نصير أنا وهي أصدقاء.. لا أعرف كيف يعود هؤلاء المتحابين أصدقاء بعد أن أذابهم كل ذلك العشق، هذا شيء لا أفهمه من الأساس ولا

أستطيع أن أفعله، هذا طريق بلا عودة، تحتاج إلى قدرٍ كبير جدًّا من خداعِ النفس كي تُقنع نفسك أنك تستطيع أن تجعله طريقًا ذو اتجاهَيْن..

ظللنا نتبادل النظرات، قلنا الكثير فعلًا، كل ما لم يمكننا قوله، لكن صوتنا لم يعلُ على صوت وجداننا، وظللنا هكذا ثم ارتسم الأسى على ملامحها وأغلقَت الباب..

غادرَت بلا رجعة..

أو على الأقل هذا ما أعتقده..

لا أنكر أن غصة اعتصرت قلبي بعد أن أغلقت الباب، لكن هذا أفضل كثيرًا، على الأقل لن أستمر في علاقة بلا معنى، بلا مسمى، فلقد سأمتُ كل هذا..

شيء واحد ظللت أفتقده، وأشعر أنني أريد أن أغادر هذا الفراش فقط من أجل أن أذهب إليه..

الحقيقة أنه لا شيء آخر بقي على موقعه في قلبي بهذا القدر..

البيانو..

نعم، فمع كل ما مرَّ بي، ظل هو بجانبي، وظل ارتباطي به يدفعني ألا أسعد كثيرًا بلقب «دكتور» الذي يظل الجميع يناديني به شاعرين بالفخر، بل سأظل أنا، ودائمًا، في داخلي على الأقل، أحب الاسم الذي يجعلني أرتبط بهذا الشيء المخلص..

البيانيست..